سلجوق ألتون

أغنيات لم تعلمني إياها أمي

مكتبة | 277

رواية

ترجمة
ريم طويل

دار الساقي

مكتبة الرمحي أحمد

أغنيات
لم تعلّمني إيّاها أمي

مكتبة الرمحي أحمد

للحصول على كتبنا قبل الجميع
بروابط تحميل مباشرة
تابعونا
على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد
facebook.com/ktabpdf
على تيليجرام
telegram @ktabpdf

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

مكتبة الرمحي أحمد

سلجوق ألتون

أغنيات
لم تعلّمني إيّاها أمي

ترجمة
ريم طويل

دار الساقي

مكتبة الرمحي أحمد

Selçuk Altun, *Songs My Mother Never Taught Me*, Telegram 2008
© Selçuk Altun, 2008

© دار الساقي 2015
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-839-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

مكتبة الرمحي أحمد

– أ –

أمي، المرأة الأكثر شجاعةً التي عرفتها على الإطلاق، استسلمت للسرطان، وبعد سبعة أسابيع قضتها في المستشفى، الذي كان من اللافت أن يحمل اسم فلورانس نايتنجل[1]، ماتت. كانت كلماتها الأخيرة قبل أن تدخل غرفة العناية الفائقة: "أردا، أفضل مطعم للدونر كباب في إسطنبول هو في الشارع الواقع إلى يمين هذا المبنى، اذهب وجربه..."

سيلاحظ كل من يقرأ ما هو مكتوب على شاهدتَي قبرَي والدَيّ، المجاورين لقبر الشاعر أقطاي رفعت[2]، أنهما كانا يبدوان كأبٍ وابنته:

البروفيسور الدكتور مرسل كمال أرجينكون (١٩٢٨–١٩٩١)

---

١ ولدت فلورانس نايتنجل في الثاني عشر من مايو عام ١٨٢٠م في بلدة فلورنسا الإيطالية. عملت في مجال التمريض ورسمت طرقاً وقواعد في هذه المهنة ما زالت تدرس في جميع معاهد وكليات التمريض على مستوى العالم. توجد في تركيا مجموعة مستشفيات تحمل اسمها.

٢ شاعر تركي وممثل سينمائي وكاتب روائي يعتبر أكبر الأسماء على الإطلاق بين الشعراء الأتراك.

مكتبة الرمحي أحمد

البروفيسورة الدكتورة أدا أرجينكون (١٩٥٠-٢٠٠٣)

انتظرت سبعة أيّام قبل أن أنفصل عن ملكة المشكلات، صاحبة الاسم السخيف جيل، التي كانت طالبة علم اجتماع في الجامعة الأميركية وتقارن نفسها بالنجمة السينمائية جوليا روبرتس. تحرّرت من هذه الفتاة الثرية التي كنت قد خطبتها لمجرد إرضاء أمي، وهأنذا أتذوّق متأخرّاً طعم كبريائي مثل طالبة في الثانوية تدخل بيت دعارة للمرة الأولى في حياتها.

أعيش اليوم في القصر العثماني - الذي عشت فيه كوريث، وكضيف وسجين، والآن كسيّد - وتثيرني فكرة أني لا أعرف كم من الأيام أو السنوات سأبقى فيه. لم ألجأ إلى شقتي الواقعة في قمة ناطحة سحاب في العاصمة وفضّلت البقاء في شيشلي الهادئة فقط من أجل إفاكت - الخادمة التي لا تتعب في البناء القديم المتعب والتي كانت على استعداد أن تتناول حبّةً فاسدة من دواء للبروستات فقط كي لا تضيع سدى. مع انتهاء الصراع بين مصراعَي النافذة وريح الجنوب يرتفع أذان الفجر، وأنا أجلس منتظراً بتثاقل في الصالة تحيط بي التماثيل البرونزية الصغيرة من كل جانب. عندما تنتهي الصلاة ستشتدّ الريح من جديد. تستمتع يدي اليسرى بنفض رماد السيجار على السجادة الحريرية وأنا مدركٌ أني نسيت نوع الشراب الذي أحمله في يدي اليمنى. تلوت في حفل التأبين، الذي حضره نخبة من أهل المدينة، سطوراً من قصيدة "بيان صخرة"[١]

١ انقلي لي عدوى الأكزيما، أمي! ابتاعي لي مسكناً! اشتري لي خريطة كنز! استأجري لي صفارة إنذار، وأعيدي لي حبلي السري، أمي، سخّني لي الحليب ودم الحيض وحضّري لي العرق، ربّيني فاسقاً، أعطيني العديد من الهرمونات والأنزيمات! =

مكتبة الرمحي أحمد

للشاعر كوجوك إسكندر، وأشعر الآن أني أستطيع أن أدمدم تلك الخطبة القاسية حتى أغيب عن الوعي في ساعات هذا الصباح الغائم.

عمري اليوم سبعة وعشرون عاماً، والنعمة الوحيدة التي أتوق للتمتّع بها هي نشوة كوني متحرّراً من أمي ومن خطيبتي...

= آلميني، أيتها الأم المومس! كوني عازفة القيثارة للمقصلة الحديدية! تدرّبي على حرب العصابات واذهبي إلى الجبال! ابدئي الإعدام بإطلاق النار على صفوف الأطفال! اكبري أيتها الأم، ودعي عضوي في سلام! فهو مصدر ثقتي بأكوام النطاف!

مكتبة الرمحي أحمد

– ب –

يروي أبو موسى الأشعري أن سيّدنا النبيّ قال:
"يجيء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبٍ أمثال الجبال فيغفرها الله لهم"

يكمل اليوم خادمكم المتواضع بدرخان أوزتورك عامه السابع والثلاثين! وقد قرّرت أن أتّخذ قراراً حاسماً في حياتي، بدلاً من أن أبتاع لنفسي هدية عيد ميلاد: سأتوقّف، إن شاء الله، عن ممارسة العمل الذي صبرت عليه طيلة الاثني عشرة سنة الماضية.

لا تنسوا من فضلكم حقيقة أنني قاتل مأجور يبعث على الخوف. كانت مهمتي محصورة بأولئك الذين يرتكبون جرائم قاتلة، خاصةً ضد ديننا، ويتجرّؤون على الاختفاء في جيوب نظام عدالتنا وأمننا، لكن يعلم الله أني لم أنهِ أكثر من حياتين في العام.

أنا أتبرّع بجزءٍ من الأربعين من دخلي للأيتام والمحتاجين في البلد الذي يقال فيه أنه مقابل كل ١٠٠ ليرة تُدفع كضريبة هناك ٢٢٥ ليرة تضيع نتيجةً للتهرّب الضريبي.

عندما احترفت مهنتي للمرة الأولى تمّ تحذيري من أنّ الدخول

مكتبة الرمحي أحمد

إلى عالم القتل أمرٌ صعب ولكنّ الأصعب هو الخروج منه، وقد هدّدني الشخص المقزّز الذي ينقل إليّ أوامر التنفيذ (والذي يتحرّك باسم بايبورا) قائلاً: "لا تفكّر حتى في الاعتزال المبكر! يجب أن تأخذ إذن الرئيس أولاً"

أنا لم أسمع أبداً صوت زعيمنا، كما أنّي لم أرَ وجهه قط.

ولكنّ الاعتزال سيحدث بإذن الله!

سأتلو صلاتي وأذهب إلى النوم بعد أن أستمع بإجلال لأذان المساء وأتناول ثمرة الرمان المباركة هذه، إذا سمحتم لي. أنا واثقٌ من أنكم بدأتم تدركون أنّ "خادمكم المتواضع" ليس قاتلاً مأجوراً عادياً...

مكتبة الرمحي أحمد

– أ –

كانت أمي تتباهى على الدوام بأنه ليس هناك في إسطنبول قصراً أعلى من قصرنا أو له إطلالة أجمل من إطلالته. كنت معتاداً على تتبّع الفسيفساء البانورامية للمدينة، شبراً شبراً، والنقاط الاستراتيجية التي تبدو كأنها واقفة في انتظار دورها في الاستعراض التاريخي. على الرغم من السحب التي تحجب الرؤية، تستوقفني أبراج قصر التوب كابي[1] الباقي من الآثار البيزنطية، وعندما يهبّ النسيم المتثاقل فوق الجدار الحجري فإنه يحمل معه رائحة منعشة من أعشاب الحديقة إلى داخل الصالة لتنتهي رحلته بتنهيدة.

قالت إنها اختارت تشامليجا[2]، التي تجذب كمغناطيس أذان الصبح من مساجد المدينة الثلاثة آلاف، "لأنّه لم يبقَ هناك حيٌّ لم يفقد نكهته". وقد كان القصر العثماني بواجهته المزخرفة ونقوشه

١ قصر التوب كابي: الباب العالي: يقع في اسطنبول في تركيا. بُني بأمر من السلطان محمد الفاتح عام ١٤٧٨، وافتتح أول مرة للزيارة العامة عام ١٩٢٤ بأمر من مصطفى كمال أتاتورك.

٢ تشامليجا: تعرف بتلة العرائس وهي التلة الفاصلة بين اسطنبول الأوروبية والآسيوية.

مكتبة الرمحي أحمد

المزيّنة هديّة الزفاف التي جعلت والدها يقدّمها لها.

كانت تقول بحماس: "منذ رأيت مرسل للمرة الأولى عرفت أنه كُتب لي أن يكون زوجي وسيدي. عندما كان يتجوّل في حرم الجامعة وهو يعضّ شفته السفلى، واضعاً يديه في جيوب بنطاله المجعّد، حتّى الطالبات اليساريات كنّ يرتجفن. لقد عمل جاهداً ليكون مستقيماً، لكنّ ابتسامات المجاملة التي كانت ترتسم على شفتيه كانت كافية لتسحر الفتيات. وعلى الرغم من شعره الدهني والخربشات غير اللائقة على بعض أعضاء جسده، حتى عاملات التنظيف كنّ معجبات به..."

لسوء الحظ كانت أمي امرأة جذابة بشعرها الأشقر الغزير وعينيها الزرقاوين بلون البحر وأنفها المعقوف وجسدها الرشيق. أعتقد أنه حتى الكلاب في الشارع كانت تقف لتحدّق فيها عندما تمرّ. عندما كنا نذهب معاً إلى التسوّق كنت أتمنى أن أقتل كل أولئك الرجال الخسيسين الذين كانت عيونهم تعلق بها بمسدّسي اللعبة.

ليس عليّ الغوص في تفاصيل أساليبها اللعوب التي كانت تدفع زوجها إلى الغليان. يمكنني فقط أن أكشف كيف غيّرت تيلدا تاراجونا اسمها وديانتها لتحصل على زوجها وسيّدها الذي كان مشغولاً حينها بطلاق "زوجته الأولى العاقر التي كانت تحمل شهادة دبلوم ولم يرها أحد أبداً" والتي كان قد تزوّجها "بناءً على أوامر عمّته"

كان والد أمي، إسحاق تاراجونا، يهودياً شرقياً. كان يدرس القانون في جامعة جنيف عندما وقع من النظرة الأولى في حب آنّا،

مكتبة الرمحي أحمد

الطالبة التي كانت أطول منه. وقد استمرّ يتوسّل أمه سبعةً وعشرين شهراً كي تسمح له بالزواج من الفتاة الجذّابة التي كانت تدرس الفلسفة، والتي هي ابنة لزوجين مسيحيّين مثقّفين من ستوكهولم. وضعت جدّتي طفلاً مشلولاً في ٧ نيسان/ أبريل ١٩٤٧، وهو اليوم نفسه الذي مات فيه هنري فورد مؤسس صناعة السيارات، الأمر الذي أطلق العنان لتذمّر حماتها العصبية التي كانت تناديها "ديبوك الفايكنغ الشريرة"[١].

لم أرَ في حياتي شخصاً بدا كالقديس مثل خالي سلفادور الذي قضى حياته وهو يجرجر ساقه اليسرى أثناء المشي.

"امتازت" أمي والأميرة آن، أميرة بريطانيا العظمى، بأنهما ولدتا في ١٥ أب/ أغسطس ١٩٥٠، تحت "برج الأسد". وقد سُمّيت تيلدا نسبةً إلى زوجة الكاتب المعروف يشار كمال[٢]، التي كانت صديقة جدتي الحميمة. كانت أمي في طفولتها عنيدة وأنانية، ولكنها كانت جميلة كدمية، وأصبحت تُعتبر التعويذة الجالبة للحظ في العائلة، وهي المحبوبة من أم أبيها التي كانت تدعوها "ديبوك الغزال" تخرّجت من كليّة الفتيات الأميركيات في أوسكودار، وكانت الثانية على المدرسة، وأقنعتها تيلدا كمال بالدراسة في جامعة براندیز، الجامعة المفضّلة لدى الشابات اليهوديّات. حين كانت أمي تحضّر شهادة الدكتوراه في الأدب واللغة الإنكليزية،

١ ديبوك: جنّي مؤذي متحرك في الفلكلور اليهودي يسيطر على الروح البشرية ويجلب الشر، ويُطرد بالصلاة، ويستعمل اللفظ للإهانة.

٢ يشار كمال (١٩٢٣ – ٢٠١٥): روائي وكاتب سيناريو وقصة قصيرة، من أصول كردية، نال جائزة نوبل للآداب.

مكتبة الرمحي أحمد

كان والدي بروفسوراً في قسم الرياضيات في جامعة بوغازيتشي. كان عمري سبعَ سنوات عندما اشتروا لي دراجة لأنني تمكّنت من قراءة عنوان أطروحتها "التأثير غير المباشر لإلياس كانيتي في روايات ايريس مردوخ" والتي كانت تحضّرها تحت إشراف البروفسور أويا باشاك، أحد الأكاديميين النادرين الذين كانت تعتبرهم مهمّين. لم توافق العائلة على زواجها من البروفسور الذي كان كبيراً في السن، وكان مطلّقاً ومسلماً، ولكنّ أحداً لم يدِ أيّ اعتراض، لأنهم كانوا يدركون أنها لن تصغي إليه.

توفيت جدتي بالسرطان وكنت لا أزال طفلاً أحبو. كلما نظرت إلى صورتها الموضوعة على المنضدة الصغيرة المصنوعة من خشب البتولا في صالة منزلنا تفاجئني درجة الشبه بينها وبين أمي وهي على سرير موتها.

وجد جدّي وخالي نفسيهما في مدار أمي من جديد بعد وفاة جدتي.

***

تمزّق رحم أمي عند ولادتي وكان يجب إزالته. أعتقد أنها كانت تنتقم مني، دون وعي منها، بسجني في قصرها. (شعرت بالفخر لأني قلت لها في أحدّ الأحلام: إيه، أمّي، ألا تلاحظين أبداً إلى أيّة درجة تزجّين بالابن الذي تقلقين عليه كثيراً في دوّامة الشقاء؟) كنت خجولاً ومطيعاً كأميرٍ وولي عهد يعيش في المنفى. كنت ثريّاً ولكني

مكتبة الرمحي أحمد

كنت أسير الخيارات والقرارات التي تُتَّخذ باسمي.

لم تكتفِ أمي بتقرير أيّة لعبة يجب أن ألعب ومتى، لقد حرمتني حتّى من أن يكون لديّ أصدقاء. كانت تقول بكثيرٍ من العاطفة: "يمكنني أن أكون مسليّة أكثر منهم يا أردا" كانت تسحرني القصص الخيالية التي كانت ترويها لي همساً. سيطرت على حياتي بالتغييرات التي كانت تجريها على طبقة صوتها السحري، وضحكاتها الاصطناعية الخافتة وحركات عينيها المتوعّدة. كانت تذهب إلى الجامعة بدوام جزئي يومين في الأسبوع، وكانت تشعر بالسعادة عندما أبكي لدى مغادرتها. وفيما كانت بوابة الحديقة تغلق خلف سيارة المرسيدس الضخمة، كنت أضرب على صدر إفاكت الضخم وأعضّ ذراعيها البيضاوين كالثلج بعصبيّة.

عندما كنت في السنة الثانية في المدرسة الابتدائية طُرد سائق حافلة المدرسة لأنه قام بتوبيخي. وفي السنة التالية تمّ نقل أستاذ سيّئ الطبع إلى قرية نائية لأنه حاول معاقبتي بسبب مزحة كذبة الأول من نيسان/ أبريل التي لم تعجبه. وفي الصف التحضيري في كلية روبرت قرص شابٌّ متسكع خدّي ساخراً بأني أبدو أجمل من فتاة، وعرفت أن سائقنا خير الله وأخاه التوأم سيقومان بضربه في اليوم التالي. بعد ذلك لم يعلم سيدو، ابن الجيران المتنمر، ما الذي كان يسبّبه لنفسه عندما صرخ حين رآني: "يهودي سري". لقد تعرّض للضرب بشدة، وتحوّل مخزن الفاكهة المجففة الذي كان يملكه أبوه إلى غبار ورماد، وأُجبرت عائلته على مغادرة تشاماليجا.

كنا نخرج مساء كل أحد لتناول العشاء في مطعم يقدّم سمك

مكتبة الرمحي أحمد

البوسفور. وبينما كانت أمي تتبادل الأحاديث مع الأشخاص الموجودين على الطاولة المجاورة، كنت أنا أطعم القطة المقيمة في المطعم السمك البحري مع صلصة الصويا، ولم أترك أبداً تلك الأمسيات تمرّ دون أن أتباهى أنّ أمي يمكنها أن تجعلني أمشي على الماء إذا طلبتُ منها ذلك.

***

كانت أمي تخاطب زوجها دائماً بـ"خوجة" (سيدي) كنوع من الاحترام في مخاطبة معلّم كبير، هو الذي كان أحد علماء الرياضيّات الرئيسيّين في القرن العشرين. وحسب رأي البروفسور هالوك أورال المولع بالكتب، الذي كان طالباً سابقاً لدى أبي، وقد التقيته بعد وفاته، فإنه "لم يكن له مثيل في نظرية الرسم البياني" كان أبي ينشر مقالاته في مجلة **النظرية التركيبية**، لكنّه كان يرفض عروض استضافته كأستاذ للمشاركة في المؤتمرات الدولية بسبب حيائه و"خوفه من الطيران". أعتقد أن أمي كرّست نفسها لنشر عبقريّة أبي. كنت ممزّقاً بفكرة: هل كان عليّ أن أغار من اهتمامها المبالغ بأبي أو أن أشعر بالأسف لأجله؟ كنت أكرّر، في كل مرة همست فيها في أذني: "إنك محظوظ جدّاً لأنّك ابنٌ لعبقريّ"، عهدي لنفسي بأنني لن أكون عبقرياً أبداً عندما أكبر. ترك أبي عمله مباشرةً عندما وصل إلى سنّ التقاعد لأنه كان قد ارتقى إلى مراتب الأثرياء بفضل زوجته.

"حربٌ شاملةٌ ضدّ مشكلة السطحية الاقتصادية الاجتماعية

مكتبة الرمحي أحمد

التي تعلّق بهذا البلد مثل القطران." تلك هي مهمّة السيّد الجديدة. همست أمي بذلك بوضوح في أذني، ووعدتني بمكافأة ١٠٠ دولار إذا كرّرت ذلك دون خطأ. قالت بمنتهى الوقار: "أردا، سيوظّف أبوك العبقري صاحب السمو من الآن فصاعداً كل مقدراته لخدمة هذا المشروع العظيم"

كان إيقاع نشاطات أبي يحدّد مجرى حياتنا العائلية الهانئة، فقد ارتبطت حياتنا بنشاطاته إلى أقصى درجة. كنت أشعر بالمرض في كل مرة يترك فيها دراساته الجامدة لينضمّ إلينا. كانت أمي تقفز لتضع الوسادة المخملية فوق كرسيّه العتيق عندما تسمع صرير باب غرفة المعيشة حين يفتحه، وتعلو الموسيقا الباروكيّة في الـ"هاي فاي"، وكان يجلس صامتاً بينما يتم تحضير شرابه. كانت المواضيع غير الضرورية أو المواضيع التي يفترض أنها عاديّة مرفوضة وكان يشارك فقط في طرح أفكار جديدة.

كان "أنيغما"، الحلاق الصامت، يأتي إلى قصرنا عندما يصبح شعر سيدنا طويلاً جداً. وكانت أمي تختار الأقمشة التي تخاط منها بذلاته، وإذا كان رئيس الخياطين في شركة زيغنا[1] موجوداً في البلدة فقد كان يأتي هو لأخذ القياسات بنفسه. كنّا أنا وأمي المؤيدة للحزب الجمهوري نسافر إلى لندن في عطل الأعياد ونذهب لحضور الحفلات الموسيقيّة والمسرحيّات. كانت تشتكي من أنها كان عليها أن تتسوق من متاجر هارود ومن محلات شارع

١ زيغنا: شركة متخصصة بصناعة الألبسة الرجالية في تركيا ومعروفة على مستوى العالم.

مكتبة الرمحي أحمد

بوند لشراء الأغراض لزوجها الذي لا يستطيع أن ينضمّ إلينا لأنه يخاف ركوب الطائرة. إذا صادف قدوم العطل الدينية في الربيع كانت عائلتنا تذهب إلى فينيسا. كان أبي يسير بسرعة عبر الشوارع التي يلفّها الزمن في هذه المدينة المنعزلة، ويعبرها جسراً بعد جسر، مشغولاً بوضع النظريات إذا لم يكن يحلّ المعادلات. كنا ننزل في فندق باوير، القصر المنعزل في ميدان القديس مارك. وكنا نمشي نحو كنيسة سان فيتيل الساحرة عندما كان يتم عزف موسيقا كلٍّ من سيمادور ودراغونيتي ولورينزيتي وبوتيسيني. (كيف لي أن أذكر هؤلاء المؤلفين الموسيقيين الكلاسيكيين غير المعروفين الذين كانت أمي تتظاهر بأنهم مهمّين فقط لأن أبي كان معجباً بهم؟ لم أنسَ قط أيّ اسم مفردٍ قرأته منذ كنت في السابعة من عمري. طريقة أبي السهلة في استعراض عبقريته كانت بمقدرته على مضاعفة أعداد مؤلفة من خمسة أرقام في رأسه بسرعة الحاسوب. لا أعلم إذا كان بإمكان أيّ أحد آخر القيام بذلك، ولكنّي منذ أن أتقنت العمليات الرياضية الأساسية الأربعة أصبحت قادراً على مضاعفة أرقام مؤلفة من ست مراتب. لقد أخفيت موهبتي التي ليس لها معنى والتي كانت ستسيء إلى أبي وتثير غرور أمي إلى درجة النشوة.

بفضل اهتمام أمي المستمر تحوّل أبي إلى شخصٍ نهم دائم الشكوى، فقد كان الأطعمة المفضّلة تُطلب بطلبات خاصّة: جبن الحلوم الطازج من كيرينيا، البسطرما الطرية من قيصرية، النقانق متوسطة الطعم الحاد من غيرسون، البندق المحمّص من أفيون والحمص مع البهارات من تشوروم، وكان يتم تأمين الشاي والمربّى

مكتبة الرمحي أحمد

من فورتنوم وماسون في لندن، والمعجنات والصلصات من مطعم فاوشون في باريس. وقد تعلّمت أمي طلب عجّة الجبن من مقهى "لي دو ماغو". وإذا كان هناك طلب خاص للبيتزا الصقليّة المطهوة في الفرن من فرن بومودورو (لندن)، أو لحم العجل عالي الطراوة من مطعم بيتر لاجر (نيويورك)، فقد كان يتم تلقيهما في المطار ويتم الإسراع بنقلهما إلى القصر كأنهما ترياق الحياة.

اعترف أبي، الذي لم يكن يستطيع ركوب الدراجة، ناهيك عن قيادة سيارة، بأنه: يفضّل الاستمرار بالقيام بعمله بالكتابة العادية "بدلاً من العراك مع الكمبيوتر"

لم يكن يستطيع السباحة أو أخذ حمام شمس قرب حوض السباحة. كان ينزعج من الكلاب الصغيرة والقطط الناعسة والأدوات الإلكترونية. وكان يزعجني أنه، عندما يملّ من مشاهدة إحدى القنوات التلفزيونيّة، ويكون كسولاً جداً بحيث لا يقوى على الوصول إلى جهاز التحكّم، كان ينادي أمي التي تكون مشغولة في المطبخ. كنت أتساءل أحياناً ما إذا كان يمتلك القوة للتخلص من القيد بعد تحرير نفسه. كنت متأكداً من أنهما عندما كانا يمارسان الجنس كانت أمي تُستنزف بدلاً من الاثنين. كان يبدو أن قلّة حركته هي "الصفة الجليلة التي ميّزت عبقريته عن البقية"

كنت متأكّداً من أنّه حتى لو كان أبي في الثامنة والعشرين من عمره عند ولادتي، بدلاً من كونه في الثامنة والأربعين، ما كانت لتكون هناك علاقة وثيقة بيننا. لم يكن حنوناً. كان لديه موقفٌ مؤكّد من الناس المحيطين به يبدو وكأنّه يقول لك إنّك مدينٌ له بالاحترام

مكتبة الرمحي أحمد

والعرفان لأنه يتشارك الوجود معك المكان والزمان. وكانت فطنته القاسية لتجرح أي شخص يتحدث حديثاً تافهاً. كان طويلاً، ذا عينين خضراوين، جذّاباً ومنتقداً. كنت أحب أن أقارنه مع جون لو كاريه، أفضل من كتب قصص التشويق عن التجسس في فترة الحرب الباردة. إذا كنت أنا عندليباً مسجوناً في قفص ذهبي، مقيداً بالإقامة الجبريّة تحت سلطة أمي، فقد كان هو سمكة غريبة نادرة في حوض سمك مخصّص لسمكة واحدة.

السيد، كما كانت زوجته تدعوه، كان الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يجمع الديمقراطيين الاجتماعيين المنقسمين ومثقّفي اليمين الناقمين تحت سقفٍ واحد. حتى إنه كان لديه خطة لرفع مستوى الرخاء الاقتصادي في بلدهم غير المحظوظ ليصل إلى مستوى إسبانيا خلال خمس سنوات، ويصبح هو رئيساً للوزراء في أول انتخابات عامة.

تلقينا نبأ وفاة والدي عشيّة عيد ميلادي الرابع عشر. وكان علي بعد الصدمة الأولى أن أهيئ نفسي لما سيحدث.

telegram @ktabpdf ***

بينما أنا مشغول بإخفاء عبقريتي الكامنة، استمرت أمي تهس كالأفعى طوال ثلاث سنوات: "سيسافر ابني عندما ينهي دراسته الثانوية ليدرس إدارة الأعمال في هارفرد"

قُبلتُ في هارفرد بمساعدة المدرّسين النافذين في مدرستي

مكتبة الرمحي أحمد

وتوصيات أصدقاء أبي المشهورين وجهود أمي. وكنت سعيداً لأجلها. ولكن عندما جعلت الصحف المحليّة تضع عناوين مثل: "هارفرد اختارت ابن البروفيسور الكبير"، أصبحت محطّ سخريتي وازدرائي.

وحين كنت في السنة الأولى كانت تختار أغرب الأوقات لتحصل على التقرير الشفهيّ وهي تحاول كبت غضبها جزئيّاً إذا لم أتّصل بها مرتين في اليوم. ولكي أمنعها من الطيران مباشرةً إلى أميركا وبدء الشجار مع مدرسيّ، كان علي الحصول على ٩٠% من الدرجات. لسوء الحظ، تمّ تعيينها مستشارةً في هارفرد في الصيف الذي انتقلت فيه إلى السنة الثانية. قضينا فترة فصلين دراسيين في كومة من قطع الآجر تدعى فيلا كانت تطلّ على نهر تشارلز في المدينة الجامعية لكامبريدج. في السنوات الباقية التي بدت كأنها ستستمر للأبد، وبينما كانت الأستاذة المحاضرة الضيفة أدا أرجينكون تدرّس الأدب المقارن بلهجتها الإنكليزيّة المتكلّفة، كنت أنا غارقاً في الاكتئاب.

حضّرت نفسي حتّى لإمكانية وجود زوج أم أميركيّ، كوسيلة للتهرّب من اهتمامها المزعج. لكن، وكما صرّحت لوسائل الإعلام، "يمكنها أن تفكّر في وحيدها فقط، وفقط في أردا المميّز" كانت تستخدم الثياب وطريقة الكلام ولغة الجسد بطريقة مثيرة لتبقي الرجال من حولها تحت سيطرتها. وكنت أغضب عندما كانت تتبادل الغزل، لا شعوريّاً، مع الأصدقاء الذين يأتون لزيارتي. وكانت تحاول باستمرار أن تحرج صديقاتي المسكينات بصراحتها المصطنعة

مكتبة الرمحي أحمد

وألعاب العقل القويّة والذكيّة التي كانت تجيدها.

أدارت أمي شركات تجارة مختلفة تحت مظلة خدمات تاراجانو المالية، التي كانت هي واحداً من ثلاثة شركاء فيها. كان جدّي رئيس مجلس الإدارة وكان قلقاً من خالي سلفادور، مساعده، الذي كان يتصرّف بسذاجة ويفشل في زيادة أرباح الشركات. كان جدي يدغدغ أنفي بحبات سبّحته الكهرمانيّة ويقول: "أنه دراستك، لأجل الله، وسوف نخطّط للقيام بجريمة نشترك فيها معاً"

ارتقى جدّ جدّي إلى طبقة الأغنياء من خلال الأرباح التي جناها من استغلال السوق السوداء عبر تجارة الأغذية الأساسيّة. كما أنّ جدّي كان متورطاً بتهريب الذهب في الفترة التي سبقت التدخل العسكري في ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠، واتّجه بعد ذلك إلى تجارة الصادرات الوهمية واختلاس عائدات الضرائب الحكومية، محققاً بذلك ربحاً مقداره ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار في تلك العملية، ليأسف فقط لأنه: "خسرنا الفرصة الكبيرة"

نُقلت أسهم أمي إلى اسمي بعد أن تخرجت من هارفرد بدرجة شرف، لكني عرفت أنها لن تسمح لي بالانتقال إلى الشقّة العالية التي أعطاني إيّاها أبي، كما أنها وبّخت خالي لأنه اشترى لي سيّارة رياضيّة.

أظلم عالمي في تلك الليلة الصيفيّة التي سمعت فيها بمرض إيريس مردوخ الأخير بينما كنت أقود سيّارتي على ضفاف البوسفور. أخبرتني أمّي فيما بعد أنّ "الحافلة الصغيرة التي ضربت

مكتبة الرمحي أحمد

سيّارتك الفيراري من الخلف اندفعت في البحر عند ينيكوي[1] والسائق الخسيس وكلبته السلافيّة أصبحا الآن طعاماً للأسماك"
أذكر كيف تغيّرت أعضائي الداخليّة لحظة الصدمة. وأنا أنزلق تدريجيّاً إلى أسفل ذلك النفق المظلم ابتسمت ربّما لعزاء أن أمي عاجلاً أم آجلاً سوف تسحبني إلى النور. أُصبت إصابات بالغة في رأسي، وبالنتيجة خضعت للجراحة وتم التشخيص بوجود نزيف دماغيٍّ حادّ. على الرغم من نجاح العمليّة الجراحية ولكن بسبب إمكانيّة حدوث نزيف مزمن نُقلت، في طائرة إسعاف جاءت من سويسرا، إلى مستشفى مايو[2] في روتشستر، في الولايات المتحدة الأميركيّة، وكان من الضروري الخضوع لجراحة ثانية لمنع تراكم الدم بين خلايا الدماغ. عانيت لسبعة شهور من صعوبات بصريّة ومشكلات في النطق، ومن فقدان جزئي للذاكرة، والأكثر إحراجاً من الكل، سلس البول. كلّ ما أذكره هو صورة أمّي الضبابيّة وكنت غير قادر على تذكّر ما إذا كان اسمي آتياً من نهر أو من بحيرة. كنت أسمعها تبكي في الغرفة المجاورة حين أستيقظ ولا أجدها إلى جانبي، وينتابني القلق. نقل إلي الطبيب ذو الأصل التتري بلغته التركيّة المكسّرة أنه لم يكن لأمي الفضل في شفائي السريع وخروجي من المشكلة فقط، بل لولاها لكنت على الأرجح بقيت أعاني من الشلل النصفي. حاولت خلال فترة نقاهتي أن أتخلص من مواهبي العقلية، دونما جدوى. وبينما كنا نستقلّ الطائرة في

١ ينيكوي: قرية في اسطنبول تقع على الشواطئ الأوروبية لمضيق البوسفور.

٢ مستشفى مايو: مصنف من أفضل مشافي العالم.

مكتبة الرمحي أحمد

رحلة اسطنبول – نيويورك أخذت عهداً على نفسي أنني لن أزعج أمي القدّيسة مرةً ثانيةً أبداً.

***

مع نهاية أذان الظهر، وقبل أن يدخل شبحها المشهد، كان عليّ أن أرمي عقب السيجار الذي سقط على الأرض في المنفضة العثمانيّة. كانت روح أمي قادرة على الوصول حتى دون دعوة، بينما أنا أتصارع مع زجاجة الشراب الذي في متناولي أيّاً كان نوعه. يمكنني إذاً أن أتساءل ما إذا كانت هي من لقّنت الطبيب التتري ذاك التعليق الأخير.

لا أستطيع أن أكتفي بابتداع وابلٍ من مطر الخريف كما في الروايات التافهة والذهاب بعدها للنوم. بدلاً من ذلك، سوف أغفو مهمهماً مقطعاً من قصيدة "استعراض صخرة" لإسكندر كوجوك[1]...

---

١ بينما أنا أنتحب في غرفتي/ استحمّي بالدم يا أمي!/ سخّني لي الحليب ودم الحيض!/ من فضلك لا تجفلي إذا عويت للقمر الكامل/ لا تغضبي من صديقي الشيطان لأنه يبقى الآن وفيما بعد/ لا تغضبي منه لأنه يصل الرعشة ويصرخ "٦٦٦ ٦٦٦" حين يتبول في المرحاض.../ أنت غنّي وارقصي يا أمي/ بما أن الآخرين يقتلون!/ نظّفي أسلحتي، زيتيها!/ لا تحاولي حتى أن تفهمي لماذا أستمني حتى بزوغ الفجر!/ نحن وحيدون/ جميعنا وحيدون/ أعرف أنه مضحك جداً/ ولكن حان الوقت لتعلمي أنتِ أيضاً ذلك يا أمي!

مكتبة الرمحي أحمد

– ب –

كان سيّدنا النبي يتلو على حفيديه، الحسن والحسين، الصلاة التالية:

"أعيذكما بكلمات الله التامّة من كل شيطانٍ وهامة ومن كل عينٍ لامّة."

البخاري، **تجريد الصريح**، ١٣٤٨

أعترف أنني أنا الشاعر الذي كتب المقطع التالي على الجدار: "كيف يمكنني، أنا الذي لم أعرف طعم الضحك، أن أشتاق للدموع"؛ و"أرني الروح المسكينة التي لم تكن أبداً ضحيّةً لعائلتها في المقام الأول!"

كان سيّدي باقي، أسكنه الله فسيح جنّاته، يقول: "كيف يمكن جمع الكتب المقدّسة الأربعة في مجلدٍ واحد لو لم يكونوا شعريّاً أكثر دقّةً من **هاملت**؟" قضيت السنوات الخمس والعشرين الأولى من حياتي – هل سأرى الثانية؟ – أصارع للبقاء، لم أستطع حتى التمتّع بشقائي للنهاية. إذا لم يكن خادمكم المتواضع يزعجكم بسرد بعض الأحداث من شبابه

مكتبة الرمحي أحمد

البسيط، فهو بحاجة لأن يضع عن كاهله حمل روحه الثقيل.

بما أن أجدادي كانوا من الأيزيديين الأكراد والعرب المسيحيّين، الذين عاشوا شمال الحدود السورية، فمن الواضح سبب حملهم لقب "أوزتورك"[1]. لم يكن جدّي الأكبر ينتمي إلى قبيلة نبيلة، وقد نجا من الفقر بتهريب الحيوانات الحيّة والمواد الغذائية الأساسيّة. كانت هناك أغنية فلكلورية مؤلّفة على شرفه بعد أن أطلق النار على قائد معروف في الدرك دفاعاً عن النفس. انتشرت الأخبار عن أنه قد نُسف تماماً حين دخل حقل ألغام بينما كان يقوم بإحدى عملياته، عشيّة عيد الأضحى المبارك.

يقولون إنّ جدي، البوّاب في مكتب التسجيل العام، كان مبتهجاً تماماً عندما ولد له الصبي، وحيد، بعد أربع فتيات. ارتاد وحيد المدرسة الابتدائية ست سنوات، والمدرسة الإعدادية خمس سنوات، وبعد عودته من الخدمة العسكرية غادر إلى اسطنبول مع بيراي، التي كانت طالبة في معهد إعداد المدرّسات، وهي الابنة الوحيدة لمدير من أورلا أتى إلى المنطقة منفيّاً على خلفيّة كونه يسارياً، وكان زير نساء، وعندما تبرّأ من ابنته وأبعد صهره المستقبلي إلى الحدود البلغاريّة امتلأت البلدة بالشائعات. جدّي الذي أحمل اسمه مات بنوبة قلبية وتشتّتت عائلته.

أشعر أني أتيت إلى هذا العالم وأنا في الرابعة من عمري في تارلا باشي[2]، المنطقة الواقعة في مركز مدينة اسطنبول، ولم أهتم إذا

١ تركي أصيل، من OZ (حقيقي) وTurk (تركي).

٢ تارلاباشي: منطقة موجودة في حي بايوغلو في إسطنبول، مجاورة لميدان =

مكتبة الرمحي أحمد

كان سائقو سيارات الأجرة المجانين والباعة الجوالون يستخفّون بشوارعنا التي تتبدل أحوالها بسرعة. شاهدت النساء اليائسات يسترحن على نوافذهن المتهدّمة، ويوبّخن أولادهنّ بالتركيّة أو الكرديّة الشديدة القسوة. والبناء الذي لا تصدر منه أصوات الشجار يكون مدرجاً على القائمة السوداء على أنه "شاذ" كنا نسكن مع أشخاص متكيّفين مع أقدارهم، القاسم المشترك الذي جمعنا بهم هو الفقر التام.

كان أبي يعود إلى المنزل مع حلول الظلام وكان عليّ أن أتحضّر كي أتجنّب سماع الشجار الحتميّ، فقد كان يستمرّ بضرب أمي حتى تلجأ إلى غرفتي تحضنني وتبكي، "ولدي المسكين"، لكن نشيجها وارتجافها فشلا بطريقة ما في إثارتي.

كان أبي يعمل في النادي الليلي "Wo-Manhattan" سيئ السمعة كحارس على الباب. وقد أطلقت أمّي النار عليه وعلى عشيقته الغجريّة ثم انتحرت، وتركتني برعاية ماريكا أنادوليا ديس ذات السبعين عاماً التي تسكن الطابق الأرضي.

كانت أمي تلقّب ماريكا بملكة تارلا باشي الأصيلة، لأنها ظهرت أول مرة في شارع استقلال وهي تلوّن وجهها بألوان مخيفة كما يفعل الهنود الحمر وترتدي ملابس مضى وقتها منذ ثلاثين عاماً. وفي شقتها، التي كانت تشبه مستودعاً للقطع الأثريّة، شغلتني بقراءة القصص البوليسية.

ازداد غضب جارنا الجاهل من هذه المرأة المضحكة التي كانت

= تقسيم، يقطنها المهاجرون من الدول المجاورة وأفريقيا.

مكتبة الرمحي أحمد

مهووسة بالسينما وتقرأ دائماً وهي تستمع إلى الموسيقا الكلاسيكية، فأخذ يقول: "هذه القزم الحدباء سوف تخرّب ابن أخي المتبنّى"، واتّخذ قراره بأنه يجب إبعادي عنها. أذكر كيف عانقتني ماريكا للمرة الأخيرة وهي تبكي في قبوي المظلم الذي تفوح منه رائحة المنظفات. بسبب تدخل ذاك الحليف العنيف لأبي الراحل دخلتُ معهد قاسم باشا التعليمي للأيتام حيث وضعوني في الصف الرابع الابتدائيّ. كان وصول خادمكم المتواضع هو الحدث الأكثر أهميّةً في تاريخ هذا المعهد العام الذي يسكنه الأيتام والمساكين. وهناك كان يتم تجنّبي لأنني قتلت والدَيّ.

عرفت لاحقاً، في المدرسة الحرفيّة للطباعة، التي كانت للأيتام أيضاً، أنّ سمعتي المأساويّة وصلت إلى المدرسة وقت التسجيل وأنه خلال ثماني وأربعين ساعة ستمتلئ المدرسة كلها بالشائعات. تعلّمت ألاّ أشعر بالإهانة من تعاطف المعلّمين الزائف. لم أكن ذا شعبيّة في المهجع بسبب حبي الكبير للكتب وطبيعتي قليلة الكلام. ولكن عند بداية كل سنة كانت لدي فترة من السلام بعد أن أقوم بمظاهرة عامة أضرب فيها أول زميل متهوّر لا تردعه ضخامتي عن الإساءة إلي.

كان المدرّسون في المدرسة مساكين وتعساء كما الأولاد. كان العديد منهم يُنهكون من التعب بعد العمل الإضافي الذي كانوا مضطرين إليه لتدبير أمور معيشتهم. صارت الكتب أصدقائي الوحيدين، وقد قرأت كل كتاب وجد في مكتبة المدرسة. ولهذا السبب اعتُبرت شاذاً. حلمت أن أصبح بائع كتب مستعملة أستمتع برائحة الكتب وأغرق في دوامة القراءة جملةً بعد جملة حتى أستهلك نفسي. ربّما كان أقلّ

مكتبة الرمحي أحمد

الأعمال تهديداً لعزلتي هو أن أصبح حارساً لمنارة. (هل كانت مأساة أهلي، التي أهدرت ثلاثة أجيال من الحياة، هي السبب في كوني غير قادر على قراءة الروايات والشعر؟ سيحتوي متجري فقط على القصص البوليسية والكتب الدينية والتاريخية وكتب الرحلات.)

كانت ماريكا تزورني مرتين في الشهر أحياناً، وكانت تقدم بطاقة تقاعدها بفخر عند الباب، بوصفها كانت مديرة الأرشيف في مصرف سالونيك. وبعد أن نتبادل الحديث في مطعم الكباب المنعزل، نادراً ما كنّا نتمكّن من حضور أحدث الأفلام البوليسية. في ليالي الشتاء، عندما كان أولئك الذين يسكنون البيوت يعودون إلى بيوتهم وهم يشتمون ويعمون عيونهم عن الآخرين كي يبقوا دافئين، كنت أتلو الصلوات في آخر الليل لأجل ماريكا، هذه المرأة المعوقة التي ألهبت عشقي للقراءة.

المدرّس الذي درّسنا مادة الأدب كان تتريّاً مثقّفاً، رحمه الله! وكان يعمل في مجال الكتب في أيام العطل وقد رتّب لي عملاً في ورشة إندرون لتبادل الكتب في شارع هوزور، الطريق الرئيسي في منطقة تشامليجا الراقية. كانت الورشة تقع في وسط تلّة منفردة مزيّنة بالحجارة غير المقطوعة، حيث كانت هناك شجرة صفصاف لا تزال شامخة، وكأنّها الناجي الوحيد من زلزال ضرب المكان. كنت قلقاً، في البداية، من العمل في قبو البناء الواقع في ظل تلك الشجرة الجليلة.

باقي قوطاي، المعروف جداً في عالم الكتاب كمرمّم للكتب الأثرية، كان كولونيلاً متقاعداً في البحرية أتى الشيب على شعره ولحيته، ومثل العديد من أصحاب الحرف اليدوية كان رفيقاً صامتاً.

مكتبة الرمحي أحمد

وقد أخضعني لفترة تدريب إذا نجحت في اجتيازها كنت سأباشر العمل في الورشة حتى يحين موعد التحاقي بالخدمة الإلزامية. لم يسأل معلّمي عن ماضيّ ولم يقم بأي حركة لزيادة اهتمامي بصنعته.

كنت خائفاً في البداية من هذا البحّار السابق الشجاع الذي عاش مع ابنته المريضة هيل في الطابق الثاني من بناء خشبي قديم تركته له أمه. كانت هيل تشبه الأميرة كارولينا أميرة موناكو، ولكن لم تكن لديها يدٌ يمنى، على الأرجح كانت كذلك منذ ولادتها. في الطابق الأخير من البناء المطلي بدهان مقاوم للحشرات عاشت حفيدته دالغا، وكانت طالبة في المرحلة الثانوية، وزوجة ابنه الماكرة سيلا. كان زوج سيلا، ناظم، نقيباً في البحرية، وقد قُتل خلال إحدى المناورات العسكرية. جعلني اسم دالغا (موجة) أبتسم عندما سمعته أول مرة، ولكنه فيما بعد صار يلامسني في العمق. كانت واحدة من هؤلاء الناس الأشقياء الذين هم مصدر للحب في الحياة رغم كل شيء. وما من شك في أن هذه الفتاة الطويلة الجريئة كانت قد أُرسلت إلى هذا العالم لتلعب الكرة الطائرة. وقد سألتني، ليسامحني الله، بينما كنت مغادراً للخدمة العسكرية: "بيدو، كم يجب أن يكون عمر الرجال حتى تستطيع طالبات الثانوية أن يقعن في حبهم؟"

كانت الصالة الواسعة في الطابق الأرضي كأنها ستوديو بسيط، على الرغم من الملصقات الموجودة على الجدران التي كانت مكتوبة بالخط العربي. كان معلمي يعمل بمنتهى الوقار وهو يستمع إلى موسيقا مجرّدة لا يصحبها الغناء. وكان يركّز على أداء عمله كأنه يُجري عملية حياة أو موت لهذه الكتب النادرة، متحدثاً إليها، حتى

مكتبة الرمحي أحمد

إنه كان يغازلها من وقت لآخر. كان يعطي للأعمال التي يقرّر حفظها رقماً في ملف خاص ومن ثم يقوم بالترميم والتصوير والتنسيق. وحين كان زبائنه يؤخذون من الإعجاب بعمله كان يشعر بالسعادة، ولكن الإطراءات كانت تغضبه. كان يتقاضى عن كل ساعة يقضيها في الترميم ٥٠ دولاراً، يُضاف إليها خمسين بالمئة من كلفة المواد التي يستخدمها. ولأن الزبائن الذين يأتون من أوروبا وأميركا كانوا يعرفون أنه ليس هناك مجال للمساومة، فقد كانوا يتوخون الحذر عند مجادلته. أنا لا ألومه لأنه لم يعلّمني مهنته. فبالنسبة لشخص يتمرّن لدى بائع كتب مستعملة فإن "صيانة الكتب" لا تقود دوماً إلى تجارة الكتب، وقد كان هو سعيداً بالترحيب بأي عمل عاديّ أنجح في القيام به. احترمت كبرياء معلمي وموهبته العبقريّة وفصاحته، وكنت سعيداً أنه لم يجد عيباً في عشقي للقصص البوليسية.

كان يقول: "بعد الكتاب المقدس والقرآن، الكتب الأكثر ذكاءً والأكثر جدارةً بالاهتمام هي الروايات البوليسية. الصفة المميزة للكتب المقدّسة هي مناعتها ضد التحريف. لذا فالعديد من الأنماط الأدبية تدين بأسلوبها لهذه الكتب"

حين تقاضيت راتبي الأول اشتريت، مباشرةً، قرآناً وإنجيلاً وتوراة. وبمقارنة القرآن مع الكتابين الآخرين، وهو الذي كُتب بعدهما، وجدته الأكثر رحمةً وتسامحاً. بكل الاحترام، ألزمت نفسي بقراءته سطراً سطراً. شعرت أنه عندما كانت عيناي تقرآن موسيقا آياته، كانت الطمأنينة والسلام تعانقان روحي. وكل قراءة كانت تعني اكتشافاً لقوةٍ روحيّةٍ جديدة. لم يغيّر استيعابه من موقفي،

مكتبة الرمحي أحمد

ولكن ربما ازدادت ثقتي بنفسي. كان مكتوباً عليّ أن أقبل نفسي كما أنا، ولكنّي لم أستطع التخلص من وحدتي. وجدت مكاناً لديني الخاص بعيداً عن المثقّفين وتجّار الدين، وكنت مشدوداً إليه بروابط من الحب واحترام الذات.

في الغرفة المظلمة التي بجانب الصالة كانت هناك مكتبة تحتوي ٢٠٠٠ مخطوط نادر وقديم. كنت أحب أن أتنفّس رائحة المخطوطات، التي لا يقل عمرها عن ٢٥٠ سنة. وكنت أقرأ بشكل مستمر في غرفة نومي ذات الأرضية المشمّع الواقعة بين الحمّام الأناضولي والمكتبة. وفي الأمسيات التي كان معلمي يصرخ فيها على ابنته أو كنته، كنت أحاول تجنّب الانجرار إلى ماضيّ العفن بقراءة أوليا جلبي[١]، كاتب الرحلات العثماني.

متأثراً به، وبفضل تعليمي وحجمي وثقتي الزائدة بالنفس، قررت الالتحاق بالخدمة العسكرية ككوماندوس. وقد أكملت خدمتي – ولله الحمد – بنجاح في جبال هكّاري وأنهيتها برتبة رقيب. ليس عليّ الخوض في التفاصيل العسكريّة، فالكوماندوس يجب ألاّ يتباهى لأن ما يقوم به هو فقط تأدية واجبه! مع اقتراب نهاية خدمتي العسكرية تلقّيت رسالتين حزينتين. لقد توقّف باقي قوطاي عن ممارسة عمله في ترميم الكتب بسبب حالة الفتق المهملة التي كان يعاني منها والتي جعلته غير قادرٍ على استخدام يده اليمنى. وماريكا، التي أحببتها أكثر من أبي، ماتت.

١ أوليا جلبي: رحالة تركي عثماني سافر في أقاليم الإمبراطورية العثمانية في القرن السابع عشر.

مكتبة الرمحي أحمد

تمكنت فور عودتي إلى اسطنبول من الحصول على عملٍ يوميّ في شركة تأمين، بمساعدة رسالة توصية حمّلني إيّاها كوماندوس رفيقٌ لي، ليرحمه الله. كانت الشركة قد حوّلت مبنىً بسيطاً مؤلفاً من أربع طبقات بدائيّة في منطقة أكساراي المتواضعة إلى مهجع للعاملين غير المتزوجين. ولكني، بعد كلّ تلك الأيام المليئة بالأحداث التي عشتها في هكّاري، كنت أشعر بالملل من الجلوس والاستمرار في مراقبة باب مكتب العمل.

اشتريت علبة من راحة الحلقوم المعطرة وذهبت لأقبّل يد باقي قوطاي، لكني انتبهت إلى أن زيارتي له أزعجته. كان يحتسي الكونياك ويعيد قراءة التاريخ السريّ للمغول. أذكره وهو يقول: "نحن نعيش براحة أكثر الآن لأنّي أبيع كتبي بشكل تدريجيّ. ولكنّ ما يجعلني حزيناً هو أن جميع الأعمال الهامّة القديمة تؤخذ للحفظ في مكتبات أجنبيّة" كان جميع أفراد العائلة بخير، وكانت دالغا في المدرسة. أوحت نظرة باقي إليّ بأنّني يجب أن أذهب وألاّ أفكّر بزيارته مرّةً ثانية. خاطبني باسمي، للمرّة الأولى، بينما هو يودّعني، قائلاً: "إيه يا بدرخان، يبدو أن خدمتك ككوماندوس جعلتك تصبح صالحاً"

***

توجّهتُ إلى تارلا باشي للمرة الأخيرة للتعرّف إلى مكان قبر ماريكا. وبعد أن مشيت عدة خطوات في الشارع الرئيسيّ في ذلك الصباح

مكتبة الرمحي أحمد

التشريني وجدت نفسي أسافر عائداً في الزمن. بدا الأمر كما لو أن مسرح الشارع المعقّد كالمتاهة، والذي تركته ورائي قبل حوالي ٤٠٠٠ يوم، ينتظر هذه اللحظة لينطلق من جديد: الغسيل المتدلي الذي يحجب السماء؛ الأولاد شبه العراة الذين يلعبون كرة القدم بالزجاجات البلاستيكيّة الفارغة؛ الشيوخ الكسالى الذين يتجولون في المكان وهم يرتدون نفس السترات الصوفيّة في جميع الفصول؛ الشباب الضجرون الذين يتدافعون إلى المقاهي يلعبون طاولة الزهر لقضاء الوقت؛ محلاّت الحلاقة، الخبراء في تساقط الشعر؛ مخزن الفواكه المجففة الذي فيه، كنشاط جانبي، جهاز فاكس؛ والباعة الجوّالون الذين يبيعون الثياب القديمة والعصافير؛ القصور اليونانية القديمة مع أكوام النفايات في الشارع، على الرغم من وجود عبارات: "كل من يرمي القمامة هنا حمار"؛ الملصقات الباقية من الانتخابات الماضية للمرشّحين المحليّين، التي عُلّقت جنباً إلى جنب مع إعلانات لمزاولي مهنة ختان الذكور المعلّقة بواسطة الدبابيس على الأبواب الخشبية التي زال لونها بفعل الزمن؛ الملاحظات البليغة المكتوبة بالطباشير للعمال الذين يأتون لقراءة عدّادات المياه والكهرباء؛ عبارات المديح شبه الأمية لفريق ديار بكر لكرة القدم المكتوبة على الجدران التي قاومت مرة أخرى أمر الهدم الأخير؛ الفتيات الشابات اللاتي يتنهّدن بضجر بينما هن يكنسن الشوارع الضيقة المتفرعة عن الشارع الرئيسي – لم تكن كل هذه المشاهد هي ما أردت رؤيته.

غمرت آفة العفن تلك الشوارع، رغم طبيعتها ووجود الإنسان

مكتبة الرمحي أحمد

الحضري فيها، إلا أنّها فشلت رغم ذلك في إفساد الأبنية القديمة المنتشرة ضمنها. ملأت أنفي رائحة القذارة وأنا أعبر شارع بكال باشا. صعدت درج البناء الذي كُتب فوق مدخله "١٨٩٤"، وأنا أشعر بكامل الشارع يرتجف. وجدت سميحة، صديقة أمي وماريكا، تجلس هناك تحيك بغضب.

تجمّد الدم في عروقي عندما سمعت ما أخبرتني إياه.

اقتحم زازو، الذي هو رئيس عصابة لتجارة المخدرات، منزل ماريكا، حيث خنقها ومن ثم اغتصبها. ومن الواضح أنه لا يزال حراً طليقاً ولم يقم أحدٌ بالتبليغ عنه امتثالاً لمبدأ شرف اللصوص. كنت أعتقد أن قرارات الحياة والموت التي تُتّخذ في ومضة عين توجد فقط في الروايات البوليسيّة. ولكن في اللحظة التي استعدت فيها أنفاسي، قررت أني سأنتقم لموت ماريكا واثقاً من أن الناس الذين لم يُبلغوا عن هذا الحشرة بالتأكيد لن يُبلغوا عنّي.

تقدّمت بطلب إجازة لخمسة أيام وكنت سعيداً عندما تمّت الموافقة عليه مثل مخادع صغير مُنح الوقت ليكمل حيلته الأولى. علمت أن زازو واثنين من رفاقه قد سيطروا على مبنى كان سكّانه قد تركوه فارغاً بسبب نزاع على الميراث. وبينما كان الطابق الأرضي من المبنى ذو الواجهة المزخرفة المطلة على شارع تقسيم يُستخدم لتخزين غنائم السرقات، شغل شريكاه في الجريمة الطابق الأوسط، في حين سكن زازو الطابق العلوي. كان هذا الرئيس الخبير الذي يبيع المخدرات للمدارس الثانوية متورّطاً أيضاً في السرقة، وكان لوطيّاً دنيئاً.

مكتبة الرمحي أحمد

كان أفراد العصابة يجتمعون في مقهى دالاس في شارع طوران، حيث يتنافس باعة الأشرطة المسجّلة على التجارة من خلال مكبّرات الصوت، وكانوا يتركون مفتاح منزلهم في صندوق بلا قفل عند المدخل الرئيسي ليستخدمه الأصدقاء، ولكنهم يزيلونه في الليل. وفي إحدى الأمسيات، عندما كانت العصابة تنوي الاجتماع للمقامرة، استعرت المفتاح البديل لأصنع نسخةً منه، وطلبت من طفل صغير في الشارع، كان يتلعثم في الكلام مفتخراً بأنه يرتدي قميصاً لنادي فردر بريمن، أن يقوم بعملٍ صالح في يومه بأن يعيد المفتاح إلى مكانه.

وبقيت بعيداً خلال الثمانية والأربعين ساعة التالية.

نويت، بإذنٍ من الله، أن أهاجم مقرّ العصابة منتصف ليل السبت. وتمكّنت من مفاجأتهم ثملين بعد حفلة شراب.

قبل أن أرتدي قناعي الثلجي، مسمّياً بالله، ودّعت مسدسي والتر بي – ٨٨ وطلبت منه أن يسامحني. ومع صوت نهيز الفئران عبرت المدخل، وصعدت للطابق الأوسط، اقتربت من الباب المفتوح الذي كان يصدر عنه صوت أنينٍ أجش. كان تابعا زازو الأمينان مستلقيين نصف واعيين يتابعان فيلماً إباحيّاً في غرفة المعيشة. انقلبت معدتي فجأةً، وأرسلت رصاصتين في رأسَي هذين الشابين الضالّين.

صعدت الدرج، بحذر، عاقداً العزم. كنت أحمل في يدي اليسرى مسدساً من نوع والتر، وأسطوانته تغلي بغضب متزايد، وفي يدي اليمنى كنت أحمل مشعلاً. استنشقت رائحة إكليل الجبل التي كانت تعبق من مخزن مسدسي. ولأنهم كانوا يعيشون معاً حياةً جماعيّةً منذ وقتٍ طويل، فقد كان الباب في الطابق العلويّ مفتوحاً أيضاً! ومع

مكتبة الرمحي أحمد

ارتفاع صوت التأوّه من الغرفة المضاءة بشكل خافت بدأت يداي بالارتجاف. استرقت النظر نحو الداخل بهدوء، حيث كان يستلقي صبيٌّ صغيرٌ ضعيفٌ أجعد الشعر على سريرٍ في وسط الغرفة، كان واضحاً أنه قد تعرّض للضرب وعلى الأرجح كان مخدّراً بواسطة مخفّف الطلاء. بدا جسمه العاري مثل كومة عظام. لم يكن زازو قد خلع سرواله القذر بعد، وكان يبدو مثل نسر يتشمّم ضحيته، ليسامحني الله!

وجّهت المسدس نحو السرير، من بعد ثلاثة أمتار، وصرخت: كفى! أيها الوغد المتوحّش!

استدار زازو المذهول ببطء. كانت هناك ندبة سكّين على الجانب الأيمن من وجهه الشابِّ الوسيم. قال وهو يحدّق فيَّ بعينيه الخضراوين: "من أنت؟ وماذا تريد بحقّ الجحيم؟" كان يجهد ليسيطر على الموقف.

"أنا ملاك موتك، وإنّي مرسلك إلى الجحيم..."

حين وصل بيده اليسرى إلى السكّين الموجودة تحت الوسادة، أطلقت الرصاصة الأولى وسط جبينه، ومن ثمّ في فمه، وفتحتي أذنيه! ومن ثمّ قام خادمكم المتواضع بقطع رأسه، وبواسطة سكين هذا المجرم الكريه الحمراء التي تفتح بالنقر عليها قطعتُ له عضوه وخصيتيه، وحشوت خصيتيه في فمه والعضو الآخر في الفتحة المناسبة لجعله عبرةً لمن يعتبر، ثم نزلت إلى الشارع الهادئ وأنا أشعر بالارتياح، وباللهجة التركية الجنوبية الشرقية طلبت الشرطة من كشك الهاتف في شارع تارلا باشي، وأنا أفكّر أنني على الأقل

مكتبة الرمحي أحمد

قد منحت الفتى الصغير المسكين فرصةً ثانية.

خرجت خلسةً بعد ذلك إلى جسر أونكاباني الواقع خلف فندق بيرا بالاس. كان هناك بعض الناس الذين قد ألقوا بصنارات صيد السمك في مياه القرن الذهبي[1]، وجلسوا ينتظرون بتكاسل. شعرت بالقلق كما لو أنّي نزلت في المحطة الخطأ وسط هذا الحشد من الصيادين. على بعد عشرين خطوة من آخر صيّادٍ هاوٍ، كانت عيناه مثبتّتين على المياه المظلمة، سمّيت باسم الله ورميتُ السكين والمسدس في قرارة القرن الذهبي.

ومضت المياه وتحوّلت إلى سلسلة غير متناهية من الحلقات في المكان الذي لامس فيه والتر حسن السلوك السطح.

كنت أفكر في أنّني قد حرّرت روح ماريكا من المعاناة، وكيف أن جسدها الضعيف ذا السنوات الثمانين قد لمسه رجل لأول مرّة بعد موتها. (أفتخر بالقول بأني لم ألمس أبداً جسد امرأة ولم أستمنِ أبداً إلاّ أحياناً في الحلم. أنا أحمي احترامي الذاتي من نشوة الجماع.)

استقللتُ سيارة أجرة بالقرب من كنيسة بانتاكراتور البيزنطيّة، الباقي العنيد على قيد الحياة، وأنا أدخّن سيجارة وأتعرّق، وتوجّهت إلى أكساري. كان الراديو يصدح بأغنية فلكلورية عن قاتلٍ ذي شاربين: "إذا اجتمعتَ أنت والموت/ سيقتلني الشوق" لا بدَّ أنها وقاحة، ولكني – وليسامحني الله – أذكر أنني ضحكت في سرّي!

---

١ القرن الذهبي: عبارة عن شبه جزيرة في إسطنبول الأوروبية يقع فيها قصر الباب العالي ومسجد السلطان أحمد.

مكتبة الرمحي أحمد

– أ –

مع انتهاء كورس المسجد الثلاثة آلاف من تلاوة أذان الظهيرة، قادني حافزٌ غامضٌ إلى غرفة أبي، التي نادراً ما دخلتها في الماضي. الآن، بعد موته، كنت حرّاً في الذهاب والعودة كيفما أشاء. بينما استمرّت تراودني الفكرة غير المريحة في أنني قد أزعج أمي التي دفنت خسارة زوجها عميقاً في قلبها، حتى موتها.

كانت إفاكت تقول عن غرفة أبي: "الرئيس فقط لديه غرفة أكبر من هذه". في الزاوية الوحيدة التي لم تكن مشغولة بالكتب كان هناك تلفاز ضخم مقابل الكرسي المصنوع من الجلد ذي اللون العنّابي. هنا كان أبي يشغل نفسه بالحديث بالأرقام وحلّ المعادلات، حتى وهو يشاهد الأفلام الوثائقية أو أفلام الكرتون. في الجانب الأخر من مكتبه، المحاط بخزانة تحوي ٢٠٠٠٠ كتاب، كان هناك حوضُ سمكٍ مخروطيّ الشكل. كنت أعلم أن هذه البيئة الزجاجيّة، مع أسماكها الاثنتي عشرة اللعوب والملونة، ستتم إزالتها بعد موت أبي.

كان أبي ابناً لشرطيٍّ تعود جذوره إلى كيركلاريلي[1]، وفي ذات

١ كيركلاركيلي: محافظة في شمال غرب إسطنبول الأوروبية.

مكتبة الرمحي أحمد

الشهر الذي رُقّي فيه لرتبة قائد في الدرك، قُتل في الجبهة الجنوبية الشرقية على يد مهرّب. تزوّجت أم أبي الأرملة من ابن عمّها، وتُرك أبي في كنف عمّته التي كانت مدرّسة للّغة التركية، لم تتزوّج أبداً بعد أن غرق خطيبها في شاطئ فلوريا. (حسب ما تقوله إفاكت، فقد أساءت أمي على الدوام معاملة عمّة أبي التي ماتت من الحزن).

تخرج من ثانوية "دار الرحمة" بأعلى الدرجات (اختير بامتحان للأيتام)، وقد فاز بمنحة ليدرس الرياضيات في بيركلي، وبقي هناك حتى أصبح بروفيسوراً. ولم يرجع أبداً إلى أميركا بعد أن استدعته عمته ليتزوج في اسطنبول.

لا تفترضوا أنّي كنت دائماً تحت سيطرة أمّي. لقد كنت طفلاً نشيطاً بشكل مفرط وكان أبي يلاطفني متحبّباً ويدعوني "السنجاب"، وكنت أبتهج إذا اهتمّ بي، كما لو أنه قد تمّ مدحي في المدرسة. لا أستطيع أن أحدّد ما إذا كان مسموحاً لي أن أشاركه رحلاته إلى الأحياء الفقيرة المجاورة غير المخطّطة أو إلى الآثار العثمانية والبيزنطية المنسية كنوع من المكافأة. ترددت أن أسأل عن السبب في حبّه، وكنت أشعر بالإحراج وأنا أراه يداعب الأحواض العثمانية الحجرية القديمة ويهمس لها. أذكر كيف كنا نقفز على الأرصفة الضيقة عندما يأتي الربيع إلى تشامليجا، ونسير عبر الشارع الذي يمرّ من قصرنا إلى ساحة السوق، حتى نصل أخيراً إلى القصر الأخير في شارع المداغ. وإذا سار في المقدمة ويداه خلف ظهره، كنت أركض خلفه وأنا خائف.

لقد قبلت على الدوام الطبيعة الهادئة لمنحدرات تشامليجا، التي

مكتبة الرمحي أحمد

نُسيت في نفق الزمن خلال الأربعين سنة الماضية. تظهر المقاومة البصرية للزمن في بعض المساكن، وفي حدائقها، واضحةً وراء الجدران القديمة المتعبة والقصور المهجورة حيث لا تزال بقايا المداخن أو العتبات موجودة. تستمر الحياة كما العادة في هذه القصور، خلف الستائر المزركشة المغلقة، وفي الحدائق الخالية من أصوات الأطفال. أشاهد دراما السكان المحليين في ملابسهم الباهتة، يظهرون فجأةً في الطريق الرئيسي المهجور من الشوارع الجانبية التي ليس لها أسماء.

حين نصل إلى السوق المؤلَّف من مخزن صغير من طابقين عند تقاطع الطريق.

السوق الذي كان أبي يقول عنه: "ليس هناك سوقٌ أصغرُ منه حتى في البلدات النائية في الأناضول"

أحب مخزن القرطاسية الضيّق جدّاً، مقابل مركز تشامليجا الرياضيّ الرئيسيّ، والذي كان يُستخدم كمنفذ لبيع اللوتو وتوزيع الصحف، ولبيع الأغطية البلاستيكيّة والمنظفات. كان صاحب المخزن المؤدّب يراقب أبي بخوف وهو يدرس التوزيع الرقميّ لقسائم اليانصيب. توجّه أبي، في زيارتنا الأخيرة، إلى لوحة الضريبة المعلّقة على النافذة وقهقه ضاحكاً: "هل تعلم أنّ هذا المتجر يدفع ضريبة أكثر من جدك يا هنجاب؟"

كنا نمرّ أثناء عودتنا لزيارة فيشي، الخطّاط المخضرم ذو الذراع الصناعية، في متجره المهجور في شارع كيسكيلي، إذا كان قد عاد من الجامع. عرف أبي هذا الرجل ذا اللحية البيضاء من غيرسون،

مكتبة الرمحي أحمد

في منطقة البحر الأسود، لكنّه كان يدعوه بالرفيق المتمدّن. وإذا كان فيشي في مزاج سيئ، كان أبي يجلس ليلعب معه الطاولة، فقط ليسلّيه، وكان يهزمه بلعبة واحدة فقط، ٤-٥.

كانت هناك أيضاً جلسات لعبة طاولة صاخبة مع الباحث المحبّ للكتب، كمال، رفيقه وبيت سرّه منذ أيّام المدرسة الثانوية، الذي هو الآن متقاعد كمدير موظفين لشركة أدوية أجنبية، ولكنه لم يتخلّ عن منزله الخشبي في منطقة أيوب المتواضعة. ورأيته بعيني يلعب الشطرنج مع الرجل الذي يتكلّم من بطنه، والذي لم يكشف أبداً في أي جامع عمل كمؤذن، ومع طاهي الكفتة الذي كانت لديه زوجتان.

كان مسموحاً للمحاسب سلجوق ألتون، ابن الحاكم المتقاعد الذي كان صديق طفولة أبي، أن يدخل ويخرج إلى غرفته في أي وقت يريد. وقد قبلت أمي هذا الرجل المزاجيّ شديد الولع باقتناء الكتب الذي كان بنفس عمرها. لم أكن سعيداً أبداً لرؤية هذا الرجل المقيت في منزلنا. كانت رواياته الثلاث قد نُشرت بعد موت أبي، وقد شعرت في أحد الأيام أنه كان يستثمر أحداث حياتنا الخاصّة، كاشفاً إيّاها في أحد كتبه.

كان أبي يعزف الناي سرّاً، وقد عزف عليه بشكل جيد، أحياناً مرتين في الأسبوع. كان يعانق أداته المطوّقة بالفضة، مائلاً برأسه بإجلال نحو اليسار. كنت أختبئ وراء الباب، أسمع النغمات الفاتنة التي كان ينفخها، وأغمض عينَيّ بسعادة. خلال رحلاتي في نفق الزمن، رافقت الأصوات العميقة للأذان ورائحة خبز السمسم وقفاتي قرب القبور والسواقي وساحات الجوامع. كنت أخشى في الربيع أن

مكتبة الرمحي أحمد

يترك باب الشرفة الكسول مفتوحاً، كنت أخشى أن يغزو الأطفال السخيفون حديقتنا، إذا أغرتهم الموسيقا السحريّة، تماماً كما في حكاية عازف المزمار السحري من هاملن. أذكر محادثتنا الأخيرة، وكيف فكّرت أنّي سأصبح عازف غيتار عندما أكبر. قال: "كن ما تريد، يا سنجابي، إذا كنت تستطيع أن تجعل آلتك تتحدث كما يفعل مارك نوفلر[1]." ولكن عندما قصدت الوجود المهيب لأمّي لأسألها الإذن بذلك، قالت: "ستعلم ماذا ستصبح عندما تصل إلى الثانوية. لكني أستطيع أن أؤكد لك، يا أردا، أنّ فكرة أن تصبح موسيقيّاً مليئاً بالبراغيث غير موجودة في مخطّطاتي حالياً"

***

كان أبي، إضافةً إلى كونه قادراً على تذكر أرقام هويته، تقاعده، جواز سفره وبطاقة ائتمانه، مخزناً للثقافة العامة. وقد لاحظ في وقتٍ مبكرٍ رفضي العنيد لدخول حقل الرياضيات، وكان يعزو مخزونه الشخصي من المعرفة إلى "نظرية الرسم البياني". أدرك أنه لا يمكن اختصار "نظريّة الرسم البيانيّ" بـ"القدرة على تعريف مفاهيم الحياة اليومية التي ترتبط بالرياضيات باستخدام لغة الأرقام. (ربما يكون الأكثر إيضاحاً إعطاءك مثالاً مجنوناً عن كيفية أخذ فأر أو هرّ أو أفعى، كلّ المخلوقات، عبر نهر باستخدام زورقي تجذيف، وتحويل هذا بالرياضيات).

---

١ مارك نوفلر: مغني روك بريطاني.

مكتبة الرمحي أحمد

بفضل بحثه حول مؤشرات "المفهوم المقدّس" لحركة مجموعات الأسماك في حوض السمك أو حركة مجموعات الطيور المهاجرة، أو في ترتيب توزّع المخارج في الاستاد الرياضي، تخلّيت تماماً عن الرياضيات في وقت مبكر.

كتب أبي بعد التقاعد مقالاتٍ جريئة في الصحف والمجلات الرئيسية تناول فيها مواضيع جديّة مثل: سطحيّة المجتمع، التصميم السيّئ للتوسّع المدني، الاستثمار الديني، الصحة العامّة، والأزمات الثقافية والتعليمية. وقد ظهرت العديد من المقالات الجدلية في كتابه الذي وضعه من مجموعة كتابات مختارة له وحمل اسم **ليس على تركيا أن تفتخر بي**، وفيه بعض العناوين التي أعجبتني مثل: "ب. موندريان: قاتل الرسم الحديث"، "جون فولز: أعظم روائي على سطح الأرض"، "الفيلسوف الوحيد الذي سيؤخذ على محمل الجد هو الفيلسوف المتمرد لودوفيغ فيتغنشتاين"، كانت بعض العناوين التي أعجبتني.

وقد أكّد في مقالته المشهورة "إنسان مدينة الأكواخ: الثائر المخلوق من الفقر" على حقيقة أنّ الناس الذين يسيطرون على الأملاك العامة ويستخدمون الكهرباء والماء بطريقة غير قانونيّة هم أنفسهم الذين يسيطرون أيضاً على تشغيل الحكومة المحليّة. وحسب ما قاله، فإن الطبقة التي استمرت بالنمو في بيئة سطحيّة من الترهيب والطيش ستبدأ، خلال عشر سنوات، بإنتاج وزراء ورؤساء حكومات.

كان مشاركاً منتظماً في اللقاءات والبرامج التلفزيونية وقد هاجم

مكتبة الرمحي أحمد

على الدوام أولئك الصحفيين المتشددين الذين يكتبون زوايا ثابتة في الصحف وأعضاء البرلمان بشكل خاص.

سُمع اسم المنظمة الإرهابية "المكروه Makruh" لأوّل مرة عندما اغتالوا أبي بينما كنا ننتظره ليشاركنا حفلة عيد ميلادي الرابع عشر.

- ب -

قال أنس بن مالك أن سيدنا النبي كان إذا انطلق إلى الجهاد المقدّس قال:

"اللهمّ! أنت عضدي ونصيري، بك أحول وبك أصول وبك أقاتل."

(رواه الترمذيّ)

حتى عندما أكون في إجازة من عملي المذلّ فأنا أنظر بدهشة إلى ذوي الدخل المحدود ينطلقون في كل الاتجاهات.

تعرّفت إلى بابيورا، المضطرب عقلياً، عندما كنت في يوم إجازة من العمل. كنت أسير على طول شارع كاديرشيلار، متّجهاً إلى مطعم لحم أوزلم، في حال من الرضا الذي ليس له سبب. (بعد العشاء كنت أذهب لشراء كتابٍ حول الخضر الخالد من متجر كتب شاهفلار ومن ثم أذهب إلى السينما.) في كاديرشيلار، حيث أغلى قطعة ملابس تحمل بطاقة بقيمة ١٥ دولار، كان لا يزال على الفتيات المولدوفيات أن يستخدمن لغة الجسد ليساومن أصحاب المتاجر.

مكتبة الرمحي أحمد

من جديد أمسكت بهؤلاء الرجال المتعطّشين للجنس في المنطقة يجرّدن الفتيات من ملابسهن من خلال عيونهم. أعتقد أن السعادة التي أحصل عليها من قراءة أوليا جلبي يمكن أن تقارَن بالغريزة الجنسية الإنسانية الفطرية.

أفضل مطعم يقدم الحساء بالنسبة لي يقع قرب بوابة لطف الله في الجناح الأيسر من السوق الكبير. نُقش تاريخ العام الذي كانت الساحة فيه مقسّمة لأكثر من ٤٤٠٠ متجر فوق المدخل المقوّس. كنت منزعجاً من كوني غير قادر على طرح ١٤٦١ من ١٩٩١ لتحديد عمر السوق. أستطيع أن أرسل الرصاصة من ثقب الإبرة بينما أنا أتعامل في نفس الوقت مع زوج من الأشخاص الفظّين، ولكن عقلي لا يستوعب الرياضيات. بالنتيجة، نفرت من العمل في بيع الكتب المستعملة.

بينما كنت خارجاً من مطعم الحساء، أتصارع مع عود أسنان مكسور في فمي، خاطبني رجل ممتلئ بوجه يشبه وجه ديكٍ روميٍّ راضٍ عن نفسه.

"أتمنى أن تكون قد استمتعت بوجبتك، أيّها الكوماندوس بدرخان!" قالها الرجل ذو الخمسين عاماً، الذي يعاني من ألم في رقبته، بنغمة بيروقراطية، مستغلاً الفرصة ليدسّ بطاقة عمله المزيّفة تحت أنفي: "علي هادي بورا – مفتش متقاعد" كنت قد أعطيته ظهري عندما تابع قائلاً: "لا تقلق أيّها الكوماندوس. إذا أصغيت إليّ عشر دقائق فقط ستجد أنّ لديّ عرضاً رائعاً لك" ثم أمسك بذراعي ودفعني إلى أول مقهى فارغ صادفناه، وتكفّل بطلب كوبين من الزهورات.

مكتبة الرمحي أحمد

– لقد قمت بعمل جيّد في تارلا باشي. تهانينا! نحن نصلّي لأجلك كي لا يتم القبض عليك لأنك قمت بمعاقبة أولئك القتلة المجرمين. وحسب ما تقوله الصحف المحلية يبدو أنه من المقدّر لك أن يُغلَق ملفّ القضية: العصابات المنافسة صفّت حسابات قديمة. في إسطنبول بشكل خاص، بسبب انعدام الإحساس، والخوف، والفراغ القانونيّ والبيروقراطيّة، فإن العديد من المجرمين من أمثال زازو، الذين يؤذون النظام الاجتماعي، يعيقون قيام الدولة بالأعمال الجيدة.

لنكن صريحين. أنا عضو في منظمة تدعى "المكروه"، يحلم أفرادها بالتخلّص من الجراثيم أمثاله. "المكروه" يعني باللغة العربية "أذى" أو "ضرر" ونحن نساعد في تحقيق العدالة واسترجاع حقوق المتضررين لقاء أجر نتلقّاه منهم. نحن أقوياء بشكل لا يصدَّق، فمنظمتنا تضمّ أفراداً من النخبة. إذا انضممت إلينا ستكون قاتلنا المأجور وستحقّق الازدهار الروحيّ والماديّ. سيُطلب منك عادةً أن تقوم بعملٍ واحدٍ في السنة، وسيبدأ راتبك من ١٠٠,٠٠٠ دولار، مع دفعة أولى تشكّل نسبة ٢٠ بالمئة. إذا سار كل شيء على ما يرام فسوف تصبح مليونيراً في غضون عشر سنوات. دعني أضِف، قبل أن أنسى، أنّ "المكروه" لم تسفك أبداً أيّ دمٍ بريء من أجل المال.

إنك قويٌّ فعلاً، رام حقيقيّ، لا تكثر من الكلام، ولا تطارد النساء سعياً وراء الجنس، كما أنك مستقلٌّ بنفسك. أيّها الكوماندوس، لا بدّ أنك قد خُلقت لهذا العمل. سأُشبع لك حبّك للكتب بالتدريب الذاتي.

مكتبة الرمحي أحمد

(إذا انضممت إلينا سأكون أنا صلة الوصل بينك وبين المنظمة.) لن نستخدم حادثة تارلا باشي ضدك مرة ثانية أبداً. ولكن يمكننا، إذا رغبنا، أن نتخلص منك بسبب جرائم لم ترتكبها، عزيزي المحارب القديم في هكّاري.

إننا نقدّم لك عملاً سيحقّق لك دخلاً جيداً، وهو مثير ومفيد للمجتمع. هناك ٥٠٠٠ دولار في الظرف الذي أضعه في جيبك. اعتبرها هدية. ستكون في الأسبوع القادم يوم الخميس في إجازة. يمكننا أن نلتقي إذاً في نفس الوقت في هذا المقهى النتن. فكّر في هذا. إذا لم ترجع إلى هنا في غضون سبعة أيّام، فالمال الذي في جيبك حلالٌ لك كحليب أمّك.

أعلم أنك ذاهب لشراء كتابٍ من سوق الكتب المستعملة ومن ثم ستتّجه إلى سينما الشفق في جيمبرلي تاش. ولكن لا تنسَ، أيّها الكوماندوس، هناك متعٌ أكثر عمقاً في الحياة.

***

كنت مصرّاً على أمرين: يجب على بابيورا، هذا الكائن البشع الغريب، أن يقنعني أولاً بخطيئة الضحيّة، وعليه ألاّ يعود أبداً لمخاطبتي بـ"الكوماندوس" بأسلوبه الوقح.

كانت مهمّتي الأولى هي الاقتصاص من بروفيسور في الرياضيات، وهو شخصٌ مدّع تابع للغرب أهان ديننا في كتاباته وخطاباته، وخان زوجته، اليهوديّة المتأسلمة، التي تنفق من مالها على أسلوب حياته

مكتبة الرمحي أحمد

المترفة. (تضمّن الملّف الذي حضّرته المنظمة – كما لو أنّ ذلك كان ضرورياً – قدرته على مضاعفة أعداد مؤلّفة من خمسة أرقام في ذهنه بسرعة الحاسوب). بدا البروفيسور، في الصور التي التُقطت بشكل سريّ للملّف، متكبّراً وفظّاً في تعامله مع الآخرين. لو أنه كان قد طلب مني في أيّ وقتٍ أن أقوم بحلّ مسألة حسابيّة، كنت سأشعر بالخجل والإحراج. بدأ إصبعي المشتاق للزناد ينتفض.

قمت بإعداد كمينٍ له في شارع منعزل في أوسكودار، حيث اعتاد – سامحه الله – لقاء عشيقته. للمرة الأولى والأخيرة، دسّ بايبورا أنفه في هذا العمل بحجّة أنه يساعدني في تدريبي. مررت، بمنتهى الاحترام، قرب جدران مقبرة قره جه أحمد التي تبدو ممتدة دون نهاية حتى وصلت إلى شارع أشرف سعد. بدا أن البروفيسور عديم الأخلاق كان يسعى إلى غرامياته السريّة، عند الساعة الثالثة أيام الثلاثاء والسبت، حيث ينعطف قرب جامع رومي باشا إلى شارع جيشمي سيديت المجاور. قبل البدء بجولاتي الاستطلاعية في الحي الذي ما زال محافظاً على طابعه العثماني، بما فيها أسماء الشوارع، أخذت إجازة بلا أجر مدة عشرة أيّام، وخطوة بخطوة تبعت آثار هذا الرجل الستّيني الحقير. كان صائد النساء السافل هذا يتبختر في سيره. وكنت متأكداً من أنه بينما يغادر التكسي لن يتمكّن حتى من رفع رأسه ليلقي نظرةً على الجامع المقابل الذي يفوق عمره ٥٠٠ سنة. لم أستطع أن أتوقّف عن التساؤل عن عدد الأيام يحتاج تاجر من شارع جادرشيلر أن يوفّر أرباحه فيها ليتمكّن من شراء قبّعة لها واقيات للأذن كقبعته، وسترة كسترته الجلديّة، وحذاءً كحذائه.

مكتبة الرمحي أحمد

استمتعت بمشاهدة الضريح الهندسي الأثري لرومي محمد باشا، الصدر الأعظم بين عامي ١٤٦٦ و١٤٦٩، الموجود في باحة المسجد وتتبعته حجراً حجر. كانت مجموعات الأعشاب العابرة قد غزت منحدر قبور العائلة. ولكن بين جدران الجامع الغائرة وحجارة الزوايا في الشارع بدا موقع البناء المنحدر أكثر استواءً. كان الغطاء الحيوي الكثيف من الأعشاب الشبيهة بالخبّاز ينتشر لمسافة ١٥٠ متراً حول المزرعة الصغيرة. والمسافة بين جدار الجامع والبناء المهجور الموجود شرق الموقع، والذي حولته أمطار الخريف إلى مستنقع من الطين، كانت مفصولة بسورٍ من الأسلاك الشائكة. أنا مدينٌ لقطط الشارع الأبطال بفكرة التسلّق فوق السور الصدئ الذي يعلو بارتفاع مترين.

أخفيت قبعتي الرمادية ولحيتي المزيفة في زاوية إلى يمين السور، قبل أربعين دقيقة من العمليّة. كنت مركّزاً على قراءة كتاب **السريان في التاريخ** عندما وصل ضحيّتي مستقلاً سيارة أجرة. وحين انحنى ليخرج من السيارة القديمة، وهو يهمهم للسائق الفقير متفحصّاً نهايتَي الشارع المقفر قفزت ضمن الشجيرات. كانت المسافة بيننا حوالي ثلاثين متراً. سمّيت بالله وسحبت مسدّس والتر الثاني، بينما كان البروفيسور يرتدي قبعته، وأطلقت ست رصاصات في صدر وقلب الرجل الذي يستطيع أن يضاعف أعداد من خمسة أرقام في عقله. بالوثوب فوق السياج الشائك، وصلت أولاً إلى شارع بارلاك المجاور، ومن ثم جريت في طريق شمسي باشا. قفزت إلى سيارة أجرة قديمة مكتوب على زجاجها الخلفي: "أيّها الشاب الكبير، إن

مكتبة الرمحي أحمد

العمل حماقة" وكانت متجهة إلى جسر أونكاباني. وفي المكان الذي رميت فيه مسدّس والتر الأول، استودعت والتر الثاني في حماية القرن الذهبي المبارك. كان بايبورا قد حذّرني: "لا تقرأ الصحف مدّة أسبوعين" بينما أنا أفشل عقلياً في تحويل الـ ١٥٠,٠٠٠ دولار التي أكسبها مقابل هذه الرصاصات الستّ إلى ليرات تركية، وصلت إلى قناة فالنس التي أنشئت عام ٣٧٣ ميلادي. هل كان في ذلك وقاحة؟ ليسامحني الله، أذكر أني بدأت بالضحك...

مكتبة الرمحي أحمد

– أ –

اقترب الخريف بجوّه اللطيف. بينما كان أذان المساء يعلو من جامع لجامع نهضت من مكتبي وخرجت إلى الشرفة، التي لا أعرفُ نقطةً أكثر استراتيجيّةً منها لمشاهدة الأشجار الضخمة. وراء الحقل المزروع بأزهار التوليب البيضاء والحمراء، الذي يحيط بحوض السباحة، تبدأ أشجار الأرز والفستق والكستناء والدفلى. كانت أشجار البرسمون اليابانية المحميّة قرب الجدار هي النبات المفضّل لدى العائلة. وقد أثنى أبي على شجرة الفاكهة التي تشبه التفاح وتفقد أوراقها المتناسقة قبل حلول الشتاء. كان يقول حين تلمع ثمارها البرتقالية في الظلام فوق النبات العاري: "هذه لوحة ترسمها الطبيعة تفوق بجمالها ما رسمه رينيه ماغريت[1]"

مع تلاشي الأذان بدأت الريح تجوب هنا وهناك. لجأت للغرفة حيث يمكنني أن أرتاح وراء مكتب أبي. لاحظت للمرة الأولى قلم الرصاص الأرمني المصنوع من الفضة وسط المكتب الخشبي الضخم. وبجانبه كان هناك تمثال من البرونز لإيروس، بارتفاع شبر،

١ رينيه فرانسوا غزلان ماغريت: فنان سريالي بلجيكي.

مكتبة الرمحي أحمد

كانت أمي قد بحثت عنه وقدمته هديّة لأبي في عيد ميلاده الستين. لقد طلبت من سلجوق ألتون أن يشتريه من مزاد سوثبي[1] العلني. أدركت أني كنت قد فشلت سابقاً في ملاحظة الوجه الحزين للتمثال العاري. كانت الأيقونات الحقيقيّة مبعثرة على رفوف المكتبة: الأواني الفضيّة المصنوعة في إيران؛ اليخت الصغير في الزجاجة؛ حِليّ حوريّات الأساطير اليونانية نصف العارية؛ التماثيل الخزفية الغريبة؛ النحلة العملاقة المسجونة في بيضة كهرمانيّة؛ أحصنة البحر الثلاثة المحنّطة، والضوء الياقوتي الذي ينثر أشعته على رفّ القواميس. وكمن تغريه المتاحف للمرة الأولى تفحّصت تاريخ (١٩ حزيران/ يونيو ١٩٩٠) تاريخ سقوط جدار برلين، وكومة القطع الصغيرة، بما فيها العملات البيزنطيّة القديمة. على الرف الذي يحتوي أعمال أولوس جيليوس[2] كان هناك مكعّبٌ زجاجيٌّ منقوشٌ عليه أقوال مأثورة للودفيغ فيتغنشتاين، وفوق المجلدات العلميّة، على الرف الذي يحتوي عملاً هندسيّاً مكتوباً بخط اليد يعود للقرن الخامس عشر، كانت هناك سمكة قرش فتية، بطول ثلاثة أشبار ونصف، محشوّة بالقطن، تنتظر بصبر وفمها مفتوح.

قبل أن أفتح الزجاجة الأولى في خزانة الشراب الموجودة في الصالة قمت، وأنا أشعر بالذنب، بتفتيش سريع لأدراج المكتب. في أسفل الأدراج اليسرى كانت هناك نسخة منسيّة من كتاب **قصّة**

١ سوثبي: دار للمزاد العلني في نيويورك.

٢ أولوس جيليوس: كاتب لاتيني، أول من استخدم لفظة "الكلاسيكية" على أنه اصطلاح مضاد للكتابة الشعبية، في القرن الثاني الميلادي.

مكتبة الرمحي أحمد

ملك، وهي سيرة ذاتية كتبها الملك إدوارد الرابع بنفسه، وهو الذي تخلى عن العرش لكي يتزوّج من أرملة أميركيّة. داخل الغلاف الأمامي لفت نظري شريطٌ مسجّل لدفوراك[1] المؤلّف الموسيقيّ المفضّل لدى أبي. وقد وضع تحت "أغنيات علّمتني إياها أمي"، القسم الرابع من المؤلّف ٥٥ – الألحان الغجريّة – بالقلم الرصاص ثلاث علامات استفهام. (بافتراض أني لم أكن فضولياً لمعرفة سبب الانتفاخ في الكتاب؟) في الصورة الملونة التي بحجم بطاقة بريدية، والتي كانت قد سقطت على الأرض، كنا أنا ودالغا نبتسم لأمي التي التقطت الصورة ونحن نقف إلى جانب أبي في ظل شجرة في عيد ميلادي التاسع. كنت مصدوماً بمشاعر مؤلمة وتخلّصت بسرعة من تأثير الكحول الذي فشل في تخدير جسدي. تخيّلت إبر الصنوبر المتعبة تطير باتجاه السماء بشكل منتظم، وسافرت عائداً عشرين سنة إلى الوراء. ممسِّداً أجنحة إيروس، همست ببيت الشعر المعروف لبوفالينو[2]: "أيّ أيّام حزينة كانت الأسعد في حياتي"

***

اعتدنا أنا ودالغا أن نتصارع حتى بدأ ثدياها بالظهور. لم يكن هناك قيدٌ على أيّ شيء بيننا، فكنّا نتدافع ونمتطي الخيول. لكنها، لسوء الحظ، كانت أكبر مني بأربع سنوات. أدركت عندما كنت في العاشرة أننا كنّا

١ أنتونين ليوبولد دفوراك: مؤلف موسيقى كلاسيكية تشيكي.

٢ جيزوالدو بوفالينو: كاتب إيطالي.

مكتبة الرمحي أحمد

مختلفين جسدياً، وفي الحادية عشرة وقعت في الحبّ المستحيل. كنت أشعر بسعادة غامرة إذا رُنَّ جرس البيت القديم – رنتين قصيرتين وواحدة طويلة – في دعوة منها إلى حوض السباحة. وعندما كنّا نأخذ حمّاماً شمسيّاً معاً كنت أختلق عذراً لأذهب إلى غرفتي، حيث كنت أستمني بينما أنا أحدّق بواسطة المنظار إلى كلّ جزءٍ من ساقيها الممتلئتين الطويلتين ووركيها المستديرين القويين.

كانت أمها سيلا القليلة الكلام، والتي كانت أمي تدعوها بـ"الفرانكفونيّة نصف الموهوبة"، تقطن بجوارنا، وكانت صديقة أمي المقرّبة وشريكتها في لعبة البريدج. فقدت زوجها ضابط البحرية في حادث بينما كان يؤدي واجبه، وبقيت هي وابنتها في رعاية حميّها. وكانت إفاكت تسأل باستمرار فيما إذا كانت هذه الجميلة الجورجيّة الصغيرة مهتمة بمساعد المدير في المدرسة الثانوية التي كانت تدرّس فيها اللغة الفرنسيّة، رغم أنه كان متزوّجاً وأصغر منها بالعمر.

لم يكن أبي يحبّ جدّ دالغا الفظّ، الذي كان يشغل نفسه بترميم الكتب القديمة، وكان يقول عنه: "إنّ عرق هذا الخَرِف المصاب بجنون العظمة النتن مصنوع من الغراء وروحه من ورق السلوفان" وقد حافظت عمّتها هيل، ذات الذراع الواحدة، على هدوء أعصابها بتدخين سجائر بدون فلتر وقراءة الروايات الطويلة والبكاء. كانت المسافة بين بيتهم وقصرنا تستغرق خمس دقائق سيراً على الأقدام، وكانوا راضين أننا لم نكن نزور منزلهم، المسكون بالجن، غالباً.

"انتبهي يا دالغا، لا تتركي يد أردا." كان هذا الأمر هو المفضّل لديّ من بين أوامر أمي كلها. كنا نذهب معاً يداً بيد إلى فيلم أو مسرحيّة

مكتبة الرمحي أحمد

أو حفلة موسيقيّة تختارها. وبينما أصابع دالغا النحيلة الطويلة تلمس أصابعي كان قلبي يرتجف ويحلّق في سلسلة من الخيالات. على الرغم من أننا كنا متلازمين لست سنوات، فقد كنت أضيق ذرعاً بالناس الذين كانوا يظنون أنّنا أخ وأخت.

كانت تشدّ شعري كما تفعل الأخت الكبرى وتقول: "لا أستطيع أن أتخيّل أنّ هناك فتاة لن تقبل أن تتزوجك كُرمى لهاتين العينين الزرقاوين"، وأنا كنت أتفحّص وجهها الساحر بخوف. عندما كنت أتعلثم كانت تنظر إليّ مثل كليوباترا ببشرتها البيضاء كالثلج، وعينيها الداكنتين العميقتين، وأنفها المعقوف وشعرها الناعم، وتقول: "أيّها الأحمق!"

كنت أعلم أنني سأفتقدها عندما تذهب لتكمل دراستها في الثانوية الأميركية في أوسكودار. في عامها الثاني في المدرسة أصبحت قائداً لفريق الفتيات للكرة الطائرة، ولكن عندما انتقلت فجأة إلى فريق "فَنَر بخجة"، أصبحتُ مباشرةً مشجّعاً لهم. وقد ذهبت برفقة سائقنا خير الله إلى كلّ مباراة لعبها فريق "فَنَر بخجة" للنساء. وقد رافقنا أبي في بعض الأحيان. كان أبي يحبّ دالغا وكان يساعدها أحياناً في دروسها. كنت أصلّي طيلة المباراة بصمت، وإذا ارتكبت دالغا خطأً استراتيجيّاً كنت أوشك على البكاء. والضغط الذي أشعر به عندما كانت الكرة في يدها، وكل المشاهدين يحدّقون إلى ساقيها ووركيها، كان يستمر إلى بعد المباراة.

سألت أبي ذات مرة: "ألا تستطيع أمي أن تأمر بإرسال دالغا إلى المباريات في ثوب فضفاض؟" فضحك أبي من سؤالي هازئاً.

مكتبة الرمحي أحمد

كنت أصلّي دائماً أن تنقطع المياه في منزل دالغا، لأنها ستأتي عندها وتستحمّ في حمّامي الخاص. (كانت أمي قد ركّبت لوحين من الزجاج في الزاويتين العلويتين من باب الحمام، لأنها أرادت أن تبقي عينها عليّ حتى هناك.) حالما أسمع صوت الماء كنت أقف مرتجفاً فوق الكرسي وألصق عيني بالباب، مراقباً كل إنشٍ من جسدها العاري. وعندما أمسكت إفاكت بي، وكانت تعرف أنني على علم بعلاقتها السريّة مع خير الله، قالت ضاحكةً: "إذا وقعت وكسرتَ عظامك فلن تستطيع حتى أن تبكي"

في إحدى المرّات، بينما كنا نتابع فيلماً رومانسيّاً على جهاز الفيديو، قالت دالغا: "أنا لست مستعجلة للوقوع في الحب، ولكن إذا شعرت يوماً أنني قد التقيت رجلي المفضّل فستكون أول من يعلم"، هبط قلبي لسماع هذا التصريح ودخلت بعدها في حالة اكتئاب عميق. (إذا جاءت يوماً وهمست في أذني باسم أحد لاعبي الكرة الطائرة، ولم أمت نتيجةً لنوبةٍ قلبية، فربما أنتحر حينها.) لعلّ إيروس ملاك الحب يحمي دالغا من الرجل الكامل ويقدّمها لي كجائزة إذا أنا فعلت كل ما تطلبه أمي... أخبرتني إفاكت، شريكتي في الجريمة، بأنه "عندما تصل إلى الجامعة سيتقلّص فرق العمر بينكما". عندما وصل طولي إلى ١٢٢ سنتيمتراً تمكّنت أن أعترف بفخر أنني أحببتها منذ كنت في العاشرة...

كانت دالغا في السنة الأخيرة في الثانوية الأميركية، عندما غادرت تشاماليجا مع أمها دون أن تخبرا أحداً. قالت أمي: "لدى سيلا مشكلة كبيرة مع حميّها. ستأتيان لزيارتنا حالما تستقران". لكننا، وقبل أن

مكتبة الرمحي أحمد

يكون لدينا الوقت لنشتاق لدالغا، فقدنا أبي. ودون وداع، غادر جدُّ دالغا وعمّتها أيضاً وعرفت أنني سأسمع القليل من أمي إذا ما سألت عنها مرّةً ثانية.

لم أقع في الحب بعد دالغا أبداً. وكوني عشت في ظل أمي فذلك لم يكن ضرورياً، لأن أمي كانت تفكر في ما يخصّني بشكل أفضل مما أفعل أنا لنفسي.

***

مع همود الريح، خرجت للشرفة لأواجه أذان المساء. شاهدت صراع العتاب بين الريح وأشجار النخيل، وشاهدت كذلك السماء المحميّة بالنجوم وهي تقاومها. ركّزت على منظر المدينة في الجانب المقابل، وأنا أشعر بالضجر. حاولت أن أتقاسم حزني مع نقاط الضوء الآفلة التي تتسرّب من عشرة آلاف منزل. "أتساءل في أيّ منزل تمارس دالغا الحب مع رجل حياتها" كان عليّ أن أحرّر نفسي من حالة الشك. فجأةً خطرت لي فكرة، وقررتُ، بناءً على الفكرة الجذّابة، بألاّ أحاول أن أخمّن ما قد يحدث لاحقاً. رغم أن طولي كان عالقاً عند ١٧٥ سنتيمتراً، إلاّ أنني سأبحث عنها، وإذا اضطرّ الأمر سأبحث عنها سيراً عبر شوارع اسطنبول. بقيت في السرير اثنتين وسبعين ساعة في سباتٍ خاملٍ بفضل الحبوب المنوّمة التي تناولتها، حتى أني بدأت أسمع صوتَ دالغا المثير. كان الأمر سيّان لديّ سواء كانت تضحك أو تبكي.

مكتبة الرمحي أحمد

- ب -

عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنّ سيدنا النبي قال:

"إذا دخلت على مريض فمُرْهُ أن يدعو لك، فإنّ دعاءه كدعاء الملائكة."

(رواه ابن ماجه)

ليرحم الله ضحيّتي الأولى! قرّرت، بالمال الذي كسبته من هذه العمليّة، أن أنتقل إلى حي أسكودار الهادئ الذي عرفته جيّداً أثناء جولاتي الاستطلاعيّة. لا تزال الروح العثمانية الجليلة تخيّم على الشوارع التي تحمل أسماءً تثير الرهبة في النفوس. عاد إلي إحساس الاستمتاع بالحياة عندما رأيت السواقي الجافة لكن المنحوتة بأناقة، والقبور المزخرفة والجوامع الرائعة التي بُنيت للباشاوات. عندما التقيت سيّدةً كبيرةً في السنّ عند قمة التلة تهمهم بصلواتها، تمكّنتُ من تجاهل الأولاد الذين يصرخون في الحديقة التاريخيّة التي يقتصر دورها الآن على كونها مستودعاً للأخشاب. الفتيات

مكتبة الرمحي أحمد

الشابات الخجولات المحجّبات اللاتي تخرّجن من هذه الأبنية الخشبية يخفضن عيونهن في الحال إلى مستوى الشارع. كما أنه كان هناك باعة متدينون ما زالوا يثابرون على العمل بصبر في متاجر الطوابق السفليّة المنعزلة. كنت سعيداً أنه لا يمكن تحويل مساحة أخرى إلى مقهى مملّ حيث يقامر الكسالى أيضاً. والناس يسيرون في الشوارع الهادئة المليئة بالإعلانات التجارية ببطء ووقار، بينما شاهدت الموظفين المتقاعدين يغسلون سياراتهم القديمة بطقوسٍ مبالغ فيها في الشوارع الأوسع.

في اللغة التركيّة العثمانية، Tephir تعني "تبخير".عندما رأيت المنزل الخشبي بواجهته المنحوتة في شارع Tephirhane (خان التبخير)، المجاور لشارع أشرف سعد، تلوت صلاتي المفضّلة ثلاث مرات وأقسمت أن أتخلّى عن عملي المأساوي.

قال لي سمسار العقارات: "ستريك رزان إرجين شقّةً للإيجار: إنها حفيدة باشا عثمانيّ". ارتجفت ركبتاي. عرفت أنّ تلك السيدة المالكة، التي كان عمرها يفوق السبعين، ستلقي علي نظرةً سريعة. أذكر كيف صعدت إلى الطابق الرابع، مع احترام كبير للدرج المصقول القديم. قالت السيدة الملكيّة رزان أنّ الشقة المفروشة تعود إلى ابنها جورسل الذي يعاني مشكلةً نفسيّة تستدعي بقاءه في المستشفى طوال الوقت. وكانت ممتلكاته الشخصية محفوظة في غرفة مفروشة صغيرة. بالطبع كانت المكتبة، شبه الفارغة، المصنوعة من خشب الماهوغاني والموجودة في غرفة الجلوس، محطّ اهتمام خاصٌ لخادمكم المتواضع. وجدت نفسي تقريباً أدعو لبايبورا لأنه

مكتبة الرمحي أحمد

ساعدني على الحصول على مكان يخصّني وحدي للمرة الأولى في حياتي. عندما سمعت رزان، في تبرّجها المضحك، أنّ كان بإمكاني أن أدفع مقدّماً أجرة ستة أشهر، بدأت بمخاطبة خادمكم المتواضع بـ" عزيزي بدرخان". وعندما أدرك سمسار العقارات أني لا أريد إيصالاً مقابل عمولته قدّم لي معلوماتٍ إضافيّة عن عائلة إرجين.

"تعيش رزان في الطابق الذي تحتكَ مباشرةً مع ابنتها المطلّقة أمل. وهي تعمل أحياناً في أحد هذه القصور التي تمّ تحويلها إلى متاحف. عندما دخل زوج رزان الراحل عائلة أرجين مُنح اسم العائلة. وقد كان هذا المحامي، الذي مات يوم تأسسّ الحزب السياسيّ الحاكم، عضواً في البرلمان التركيّ لدورتين متعاقبتين، مرّةً مع اليسار ومرّةً مع اليمين.

استغلّت هذه العائلة الطفيلية العثمانيين عبر التاريخ، وهم الآن يستغلّون جمهوريتنا. لقد باعوا بيوتهم الصيفية في سالاكاك المهيبة قبل عشرين عاماً واستملكوا جوارنا بالقوة. لا أعتقد أنّ أيّاً من أملاكهم بقيت، باستثناء ورشة خَرِبة في منطقة السلطان همام التاريخيّة وهذا المبنى. كان جورسل، الفرد البارز في العائلة، يدرس الفلسفة في أميركا عندما جعلته أمه يعود إلى تركيا، فدخل في اكتئاب. الشاب المسكين، البسيط، يصغر أمل، التي هي في الخمسين من عمرها، بثلاث سنوات، وقد قضى السنتين الأخيرتين يتلقّى العلاج في مستشفى السلام. مع انتقال رزان من سالاكاك إلى هنا، جعلت كل دقيقة من حياة العائلة التي تستبدّ بها جحيماً.

يعيش أخوها رينان، الذي يبدو، خلال العشرين سنة الأخيرة، أنه

مكتبة الرمحي أحمد

بحدود الخمسين من العمر، في الطابق الثاني. وهو عازبٌ مزمن، أتى إلى العالم ليسخر منه. ذهب إلى الجامعة في باريس وعاد بعد خمس سنوات، وكان لا يزال طالباً في السنة الثانية. إنه لا يقوم بأي عمل تقريباً، وكأنّه قد خطّط بطريقة ما للتقاعد. وهو غاضبٌ على الدوام من شقيقته الكبرى. يتخيّل نفسه مهرّجاً موهوباً وساحراً. لقد حوّل الطابق الأرضي إلى استوديو لإصلاح الآلات الوترية، لكنّه أصبح مقرّاً للمقامرين.

يبدو أنك شابٌّ مناسب. إذا دفعت الأجرة بشكلٍ منتظم وتجنّبت عائلة إرجين فستكون على ما يرام.* إنّهم غريبو الأطوار، ولكن بأسلوب أرستقراطيّ".*

بدا أن سمسار العقارات القوّاد قد شعر بالانزعاج عندما رأى أنّي لم أكن منتبهاً لخطبته المسهبة الطويلة، ولكنه بالتأكيد جعلني مرتاحاً لجيراني، الذين آمل أنهم لن يزعجوا خصوصيتي.

***

أعترف أنني عندما انتسبت إلى دورة اللغة في القنصلية البريطانية في شارع الاستقلال، كان ذلك فعليّاً فقط كي أتمكّن من قراءة كتّاب التشويق العظماء مثل رايموند تشاندلر[1] وداشيل هاميت[2] وباتريسيا

١ رايموند تشاندلر: أديب أميركي، كتب القصص البوليسية، كما كتب العديد من السيناريوهات في هوليوود.

٢ صموئيل داشييل هاميت: أديب أميركي ألّف قصص الجريمة والروايات البوليسية كما كتب نصوصاً سينيمائية.

مكتبة الرمحي أحمد

هايسميث بلغتهم الأصلية. ولكني لم أستطع أن أحبّ ضجيج شارع الاستقلال أو الحشد المتنوع الموجود في الدورة، الذين انتسبوا إليها إما بهدف الحصول على ترقية في العمل أو للبحث عن رفيق. وقد ضحكوا من لفظي لكلمة "كافيتيريا". (لكن اسمحوا لخادمكم المتواضع أن يخبركم أنّه حصل على أعلى العلامات في الامتحانات الكتابيّة.)

بتوجيه من معلّمي الخاص، الذي كان هو نفسه مدمناً على كتب التشويق، نذرت نفسي لكي أصبح ملمّاً بأعمال العديد من الكتّاب المشهورين، بمن فيهم: جورج سيمنون[1] وإريك أمبلر[2] وغراهام غرين[3] وكورنيل وولريتش[4].

كنت أذهب للعمل في مخزن الكتب المستعملة المعروف بـ"زرادشت" ثلاث مرات في الأسبوع. كان سامي صقال أستاذاً مساعداً في الأدب طُرد من الجامعة بسبب آرائه المنحازة لليسار، وهو بائع كتب واسع الاطّلاع ومؤلف وناشر ومترجم، وقد قال لي: "متى رغبت، هناك عمل لك هنا في هذا المتجر الصغير الفقير"

١ جورج جوزيف كريستيان سيمنون: كاتب بلجيكي المولد، فرنسي اللسان والقلم، يعد أحد أغزر الكتّاب إنتاجاً فقد كتب ٤٥٠ رواية ومئة ألف قصة قصيرة وسيرة ذاتية، وهو مبتكر شخصية جول ميجريه.

٢ إريك كليفورد أمبلر: مؤلف بريطاني كتب قصص التجسس، كتب تحت اسم مستعار هو إيليوت ريد بالمشاركة مع تشارلز رودا.

٣ غراهام غرين (١٩٠٤-١٩٩١): كاتب إنكليزي، أشهر أعماله **قطار اسطنبول وصخرة برايتون**.

٤ كورنيل وولريتش: كاتب أميركي كتب القصص البوليسية.

مكتبة الرمحي أحمد

كنت أقبل بالحد الأدنى من الأجر لذا فأنا لم أكن أضايقه. كان معلّمي معروفاً بـ"نيتشه" بسبب تعابير وجهه العنيفة، وأنا متأكد من أنه كان يشعر بالسعادة تماماً عندما كنت أقف لأحيّيه بينما هو يدخل المتجر. اعتدت سريعاً على أعمال الكتب المستعملة الصغيرة ومجالاتها الضيقة. عندما يدخل سامي في جدل سخيف مع المسافرين الانتهازيين الذين يأتون يوم السبت، كان يبدو رجلاً إنسانيّاً من حيث المبدأ. وقد كنت فخوراً بحقيقة أنّ متجرنا كان من المتاجر النادرة في السوق التي لا تلجأ إلى بيع الكتب المدرسية المستعملة عندما يكون العمل بطيئاً. كنت أدير العمل بمفردي تقريباً بسبب مرض معلمي ومشاكله العائليّة، وقد أكملت مكتبتي الخاصة بشراء الكتب بسعر أعلى من سعر السوق، ولكنّي تخلّيت عن هذا الأمر قبل ثلاث سنوات لأتمكّن من الحفاظ على هذا العمل الذي لا يدرّ عليّ ربحاً، ولكني أراه مثاليّاً بالنسبة لي. أنا فقط لم أستطع التعامل مع الجانب المادي للأشياء.

تآمرت مشكلات معلّمي الإيديولوجيّة والماليّة، وزوجته البسيطة السطحيّة وابنه التافه، مع تدخينه وتناوله للشراب، تآمرت كل هذه العوامل عليه وتسبّبت بإصابته بالسرطان. بعد موته قيل لابنه الجاحد، قوزي، أنّ عليه أن يبيع ٧٠٠٠ كتاب من الكتب الموجودة في "زاراتوسترا" بالكيلو، كي يتمكّن من دفع ديونه للمرابين.

يقدّم أحمد حمدي طانبينار[١]، في رائعته خمس مدن، اسطنبول في القرون القديمة على أنها "مدينة أروع الأعمال المعمارية، مدينة

١ أحمد حمدي طانبينار: روائي وقاص وشاعر تركي معاصر.

مكتبة الرمحي أحمد

الزوايا الصغيرة والمناظر المدهشة. لا بدَّ أن تجد في هذه المشاهد قلب اسطنبول حاضراً". اعتدت أن أذهب أيّام الأحد لزيارة الآثار التي ما زالت موجودة في تلك "الزوايا الصغيرة والمناظر المدهشة" والتي حالفها الحظ لتبقى في ضواحي اسطنبول، وبينما كنت أتتبّع آثارها حجراً حجراً كنت أتلو الصلوات وأتمنّى لها الصبر على الإنسانية التي كانت بلا فائدة مثل زرق العصافير.

***

عرفت أن رزان ستزورني خلال شهر لترى أنني لم أحوّل المنزل إلى مستودع للقمامة، وأنها جُنّت عندما سمعت أنني أتبع دورة لتعلّم اللغة الإنكليزية أثناء عملي في متجر الكتب المستعملة. ولكن عدم سؤالها أبداً عن قصة والدَيّ الثريّين اللذين فقدتهما في حادث سير كان إشارةً واضحة إلى تربيتها الحسنة.

سألتني وقلبي مرتاحٌ لها: "عزيزي، من أين أتتك فكرة ارتداء بلوزة بنيّة مع سروال الجينز الأزرق؟" اعتدنا أنا وهي القيام بزيارات شهرية إلى المسارح المحليّة المليئة بالإنسانيّة الداكنة، ومرتين إلى سوق ميجروس. وكانت هي من يحدّد أن الوقت قد حان لشراء ملابسَ جديدة، ولم تكن تتردّد في أن تختارها لي. كانت توقظني من النوم أو تقاطعني وأنا أتناول الطعام بصوتها، الذي يخفي في طياته نبرة الأمر والطلب المؤدّب معاً، وترسلني لأجلب لها حلوى البودنغ العثمانيّة أو الشراب المفضّل لديها. (لم أستطع أبداً أن أرفض أو أن

مكتبة الرمحي أحمد

أطلب منها أن تدفع ثمن طلباتها). كان يتم استدعائي من الأسفل مباشرةً حين تتشاجر مع ابنتها، وكنت أصعد إلى الطابق العلوي في البيت التاريخي مهمهماً صلاةً شكليّة، لكنّي لم أتجرّأ أن أطأ بقدمي السجادة الحريريّة المفروشة في الصالة. كانت هناك خمس لوحات عثمانيّة رائعة على الجدران تحمل توقيع رسامنا المشهور الخواجة علي رضا[1]، وقد تمزّق قلبي عندما تحدثتْ عنها وأنا أحدّق فيها باحترام.

"صغيري، ليس لديّ ما أبيعه سوى روحي."

تمنّيت، وأنا أشاهد ألبوم الصور الباهتة، أن أسمع المزيد حول حياتها كاملةً، ولكن بدلاً من ذلك كان ما أسمعه مجرّد تعليقات حول الأمور التي أساءت فهمها على الدوام. كانت تخبرني عن أحلامها، بينما كنا نشرب القهوة السوداء وندخن السجائر، وتثرثر عن شركائها في لعبة البريدج. وكانت تصرّ أنها لا تشعر بالحزن، باستثناء حزنها على ابنها المتعلّم الذي هجرته في زاوية مستشفى مظلم، ولخسارتها كبرياءها الأمومي.

كان لا بدّ لي أن أرتّب علاقتي مع أمل ورينان، اللذين اخترت تجاهلهما. في إحدى الليالي، بعد رحلة إلى ضفاف بحيرة أبانت مع رباعي الأم للعب البريدج، طرقت أمل الشملي بابي، والكأس في يدها، وهي تصيح: "أتيت لأرى ما إذا كان 'جهازك' ينسجم مع طولك" عندما تجاهلت تحذيري وحاولت الدخول صفعتُها

١ الخواجة علي رضا (١٨٥٨-١٩٣٩): رسام تركي ولد في إسكودار، واشتهر بولعه برسم المناظر الطبيعية لاسطنبول وإسكودار.

مكتبة الرمحي أحمد

مرتين. أعتقد أنها ركضت إلى المنزل وهي تبكي، وقد عادت إلى وعيها تقريباً. عرفت أنها لم تكن قادرة على النظر في عينَيّ عندما كنا نلتقي فيما بعد. بالنسبة لي فإن أطراف أصابع يدي اليمنى تخدّرت من إحراجها.

لم يتوقّف رينان أبداً عن إزعاجي. عندما لم يكن يقوم بانفعالات حيوانية، كان يتلفّظ وراء ظهري بكلمات كرديّة تبدو عدائية. في صباح أحد أيام السبت، بينما كنت ذاهباً إلى "زاراتوسترا" توجّهت إلى الباب الخارجي حيث كان يتبادل مع اثنين آخرين من رفاقه الكسالى الأحاديث حول السباقات. ردّ على تحيتي السريعة بأن عرّف عن خادمكم المتواضع بأنّه إرهابي. فاضطرمتُ غضباً، وبسملت، وبدأت أعصر أنفه الكبير مستخدماً سبّابتي وإصبعي الوسطى. وكنت أعلم أنه سيتصرف كشخصية كرتونية ويبدأ بإصدار صوتٍ كصوت الدجاجة.

– ماذا تظن نفسك فاعلاً، أيّها المزارع الجاهل ابن الجبال؟

كنت أعصر أنفه بقوّةٍ أكبر بعد كل جملة، حتى قال:

– ألا تعلم أنّي أعمل مع الشرطة السريّة؟ أنت لا تعرف كم عدد الجنرالات الذين أعرفهم! هل أنت منحرف أم ماذا؟ انظر، أنا أتوسّل إليك...

كان يتعرّق بكثافة وكان أنفه الأحمر يسيل بغزارة، حين طرحته على الأرض أخيراً وهو يرتجف يائساً ويتوسل إليّ: "لا تؤذني، سآكل غائطك"، لكنّ غضبي لم يهدأ، ووجهت ضربتين عثمانيتين ثقيلتين لكلٍّ من رفيقيه الشابين اللذين وقفا مخدّرين يراقبان بحذر الرجل

مكتبة الرمحي أحمد

العجوز المسكين الذي يعيشان بمنزله وماله بحريّة. انطلقت بعد ذلك إلى جادة شمسي باشا الهادئة، وأنا أشعر بالرضا.

***

بالتأكيد كنت لا أزال تحت سلطة بايبورا، الذي يتّصل بي مرة كل شهر مع سلسلة من الأسئلة مثل: هل تذهب إلى حلبة الرماية للتمرين بانتظام؟ هل تُبقي أكثر من ٢٠٠٠٠ دولار في حسابك المصرفيّ؟

جمعتنا الصدفة في أحد الأيّام، خلال عيد الأضحى المبارك، في مطعم كَنات. عرفت أنه كان سيكلّفني القيامَ بمهمّة ثانية. وحين مدّ يده تحت الطاولة ودسّ في يدي ملفّاً بلاستيكيّاً يحمل اسماً أجنبيّاً مطبوعاً شعرتُ بقلبي يهبط إلى قدميّ. إذا كانت المنظمة قد اختارت عمداً الصورة التي بحجم البطاقة البريديّة والموضوعة على الصفحة الأولى كي تزعجني، فقد وُفّقوا في ذلك. شعرت بالاشمئزاز من صاحب الصورة الكريه، وهو رجلٌ في الثلاثينات له شاربٌ رفيعٌ مدبّب يبتسم بخبثٍ لضحيّته. لماذا يصرّ الشباب الأناضوليون على عادة إطلاق الشاربين؟ إذا كان رمزاً للرجولة، فلماذا يمنعونه في الجيش والشرطة؟ دائماً حين تحدث أزمة كارثيّة في بلدنا تجد أنّ هناك شخصاً ما له شاربان قبيحان متورّطٌ في الأمر.

حامد أوزاي، هو صهر الحاج مؤمن كومرت، صاحب مصنع خيوط القطن. يعلم الله كم من ملايين الدولارات قد ابتزّ من كومرت ليدفعها له (لأن إدمانه على لعب القمار، والعلاقات الجنسية جعلاه

مكتبة الرمحي أحمد

يقع تحت رحمة عصابة أحد مُحصِّلي الديون). حين لم يكن يستطيع أن يحصل على ما يريد، كان يقسم بأنه سيقدّم الأدلة التي يملكها على الصفقات المشبوهة التي يقومون بها إلى وزارة الماليّة. يقولون إنه كان يبدأ قبل أذان الظهيرة بالتخلّص من همومه بشرب العرق الذي يخفيه في غرفته، مرتكباً الإثم عمداً خلال فترة الصيام في رمضان...

أعتقد أن بايبورا تعمّد أن يكون لهذه الجملة الأخيرة تأثيرها القوي عليّ.

مكتبة الرمحي أحمد

سألته: بالتأكيد لا يناسب حاجّنا المبارك ألاّ يقدّم إيصالات؟

– آه يا محاربي الساذج! هذه ميزة الصناعة التي يعمل بها حاجّنا المبارك. إذا باع منافسوك السندات، ولم تستطع أنت ذلك، فستغرق في الحال. المشكلة الأساسيّة هنا هي فشل الحكومة في إيجاد سياسة مرنة للتبادلات الضريبيّة. أنا لا أعرف أيَّ نوعٍ من الكتب تقرأ ولكنّي أعرف أن ثلاثين بالمئة من دخلنا القومي غيرُ موثّق.

لنكن واقعيين، بغضّ النظر عن مجموعة حيله المستمرة، لا يمكن للمرء أن يجد خطأً في حديث بايبورا حول هذه النقطة. وعندما تفحّصت الملف المنظّم بالتعاون مع الحاج تبيّن لي أنّ كان عليّ أن أمسك بالحشرة حامد متلبّساً بجرمه ومعاقبته. طاردت الصهر المبذِّر عشرة أيّام. وكان القوّاد الذي يقدّم خدماته للمنازل يحضر له فتاةً شابة أو مخنّثاً إلى الشقّة التي يملكها في أتاشهير المعزولة مرّتين في الأسبوع، وكان يعود بعد ثلاث ساعات في سيارة ليأخذ المخلوقات المسكينة المتعبة. وبينما كنت أستكشف الحي الحديث عديم الحيوية أنهيتُ كتاب صاحب السعادة ابن بطوطة سياحت نامه

مكتبة الرمحي أحمد

(كتاب الرحلات[1]). (سافر ابن بطوطة بين عامي ١٣٢٥ و١٣٥٤ عبر العديد من الدول الإسلامية، لكنه كان أكثر تأثراً بالبلدان التي كانت خاضعة للحكم العثماني، وفضّل ألنايا[2] على كل المدن). بينما كنت مأخوذاً بقراءة الصفحة الأخيرة من تحفته الرائعة، رأيت مخنّثاً ضخماً يخرج من الشقة ويرمي بنفسه داخل الحافلة المنتظرة.

عندما خفّت زحمة المساء، اقتحمتُ البيت بمساعدة المفتاح الخاص الذي لاءم الباب الرئيسي للمبنى. لم يكن هناك مصعد، لذا صعدت الدرج إلى الطابق التاسع، وأنا أشعر بالقرف من السلالم التي تفوح منها رائحة السمك واللحم. لم يكن هناك صوت في الداخل، وبينما كنت أضع مفتاح الشقة في الباب فوجئتُ بأن تكون الشتائم الوقحة التي سمعتها آتيةً من الشقة المجاورة صادرة عن امرأة. كان الأثاث في الشقة يجعلها تبدو باردة جداً كغرفة في فندق، وكانت جدران حجرة الجلوس مليئة بصور المخنّثين بشكل شائن. شعرت للحظة، وليسامحني الله، أن صور بعض الذكور في مكياجهم كانت جذّابة أكثر من صور عارضات الأزياء. كان الصهر المبذّر نائماً في مخدعه وهو لا يرتدي شيئاً سوى سرواله الداخلي.

لم يكن يبدو بريئاً حتى أثناء نومه. أطلقت رصاصةً واحدة في قلبه ووضعت والتر الثالث في يده اليمنى، فالأمر يجب أن يبدو انتحاراً، وفقاً لتعليمات بايبورا. ولو لم يكن الأمر كذلك لكان خادمكم المتواضع حقيقةً قد أيقظ الضحية وأعطاه فرصةً لسحب مسدسه.

---

١ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

٢ ألنايا: مدينة ساحلية في إقليم أنطاليا على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

مكتبة الرمحي أحمد

على الخزانة المبتذلة كان هناك كتابٌ بعنوان *Türkiye Benimle Gurur Duymasin* (**ليس على تركيا أن تفخر بي**). "الآن تركيا لن تخجل بك حتى" قلت ذلك وندمت مباشرةً على هذه الملاحظة الغبية.

***

أنجزت "مهامي" السبع عشرة بنجاح، بعونٍ من الله. لم أقم أبداً بعملية بسهولة عملية الصهر الجاحد. لقد بكى بعض الضحايا أمامي وقدّموا لي الرشاوى، فيما داس البعض على قدمي أو عضّوا يدي، وصرخ بعضهم في وجهي وسحبوا مسدساً. أفرغت مخزن مسدسي في معدة آخر شخص قتلته. يكاد تقريباً يُغمى عليّ عندما أذكر رائحة أمعائه الكريهة التي اندفعت خارجاً.

كنت أعتبر كل مهمة أقوم بها واجباً مقدّساً، وكنت راضياً أن أعيش حياةً سريّة من التخطيط والتجسّس والمطاردة ونصب الكمائن. لم أكن أهتم لطريقة حياة أو خطاب الضحايا المحددين قبل موتهم. هل وجدت لحظة التقاء الرصاصة بالهدف، أو اللحظة التي أشتمّ فيها رائحة مخزن السلاح المثيرة، كما تُحفِّزها القراءة؟

***

ظنّ صديق سامي صقال، كامل نجاد إلكير، رحمه الله، أنّني قد أموت جوعاً عندما تمّ إغلاق "زاراتوسترا"، ولذلك فقد أمّن لي عملاً بدوامٍ

مكتبة الرمحي أحمد

جزئيّ مع وكالة كانت تنشر المجلات للشركات الخاصة. عندما سمعت أنني سأعمل محرّراً مساعداً ومصحّح طباعة، شعرت بالفخر تماماً كذاك اليوم الذي رُقّيت فيه إلى رتبة رقيب.

انتظرت بصبر حتى أُنهي المرحلة الأخيرة من دورة اللغة الإنكليزية التي كنت منتسباً إليها قبل أن أبدأ بتفحّص مكتبة سَلفي. كان هناك بعض الوثائق الهامّة على الرفّ العلوي بين كتب الفلسفة وعلم النفس، وقد أسقطت إحدى هذه الوثائق أرضاً – كانت مفكرة خاصة لجورسل أرجينين. كان هذا المجلّد ذو الغلاف الفينيسي يحكي كيف أنهى دراسته المدرسية في ثانوية القديس جوزيف، وكيف ذهب إلى أميركا، ويشرح معاناته خلال فترة الجامعة وفي الفترة التي تلتها. قرأت غضبه الشعري وتحرّره من الأوهام، تصلّبه وأحلامه المحطّمة بوجود عالم شريف. وقد أثار فضولي هذا الرجل الذي لم يرغب في إيجاد أيّ سبَب ليبرّر إيذاءه لنفسه، وبشكلٍ خاص أن يكون السبب أمّه.

هذه مقتطفات من الفترة التي انتهت بترحيله إلى المستشفى، ليُعالَج من مرضه:

> أردت أن أعمل في مهنة أكاديميّة في مجال الأدب المعاصر. أردت أن أترجم، أن أكتشف الشعراء والكتّاب غير المعروفين، أن أكتب المقالات والدراسات النقديّة. لكن عندما فشلت أمي في أن تجعل زوجها العديم الجدوى وزيراً، أرادت التأكّد من أنّني سأصبح فيلسوفاً. وكان أمرها حاسماً. سافرت إلى

مكتبة الرمحي أحمد

أميركا لأدرس الفلسفة وكان عليّ أن أعود إلى تركيا عندما أحصل على شهادة الدكتوراه.

فيلسوفنا العصري حتى اليوم كان الفيلسوف المتمرّد فيتغنشتاين. دعونا نرَ إذا كان سيظهر نجمٌ آخر مشعٌّ مثله، يوازن على نحوٍ ممتاز بين العبقرية والجنون...

اتفقنا، أنا وأمّي، أخيراً، أن أرجع إلى اسطنبول عندما أصبح أستاذاً مساعداً، وأن تسمح هي لي بأن أتزوج بيتسي...

لم تكن بيتسي، الأستاذة المساعدة في علم النفس الاجتماعي، مهتمّة أبداً لا بإسطنبول، ولا بإسكودار، ولا بأمي، ولا بالمبلغ الإضافي الذي قد تكسبه من قيامها بأعمال بدوام جزئي، ولا حتى ببلادة المثقفين...

قالت بيتسي بعد خطبتنا: "سأذهب معك إلى آخر الأرض"، ولكنها كانت تحتقر المواطن الاسطنبولي الذي يسكن الضواحي، الذي لا يمكنه حتى أن يحمل سلة تسوّق في السوبرماركت. وحسب رأي أمي، فقد كانت بيتسي سعيدة بتجاهل ميزات المدينة وكانت تتغازل مع المصرفي المتزوج الذي التقته أثناء جولات الجري التي كانت تخرج إليها في حديقة يلدز. عندما وجدت أن اقتراحها للعودة إلى كاليفورنيا

مكتبة الرمحي أحمد

قوبل بالرفض، أصبح الانفصال حتمياً...

كانت أختي الكبرى تغار من اهتمام أمّي بي خلال الطفولة، وفيما بعد، في مراهقتها، كانت تغار من نجاحي الدراسي. وقد ظهرت مشاعرها المكبوتة، التي تطورت خلال خمس وعشرين سنة، تحت تأثير الكحول. لو أنني أحصل على راتبٍ أعلى لكنت انتقلت بعيداً عن الخراب العتيق الذي يملأ هذه المدينة...

عشيّة العودة إلى اسطنبول حضّرتُ نفسي للأسوأ، ولكن كان عليّ أن أشعر بالخجل من مقدرات الخيال، التي استهانت بحجم "الأسوأ": لقد حوّل التضخّم المفرط البلد الذي يحكمه القادة السطحيون إلى قبيلةً من البدو. من رماد القسطنطينية، المدينة العظيمة التي أشعلت شعلة الحضارة في عصر النهضة الأوروبية، ظهرت قرية حديثة تسكنها أشباح الماضي، سيطر فيها الفلاحون أصحاب الشوارب على الحكم. الجماهير الجاهلة بالأدب أو الفن (ليست هناك كلمة مرادفة لكلمة "محافظين" باللغة التركية، للأسف الشديد!) كانوا غير مهتمين بالفساد المتفشّي. كانت الحياة الثقافية مخنوقة من قبل بكتلة من عديمي الإحساس. كان زملائي ضجرين ومساكين. ولأن شهادتي كانت من بيركلي فقد كانوا يعتقدون أنني مجنون لأني لا

مكتبة الرمحي أحمد

أذهب للعيش في الخارج (أو أنني أواجه عقاباً أستحقّه في غمرة الشواش الكامل الذي يعيشه الكون؟)...

كانت الهيئات التعليميّة منقسمة بشكل أساسي إلى طائفتين، يمين ويسار: وبالتأكيد فقد حان الوقت ليتفقوا على انتقادي. تأخّرت ترقيتي، وتمّ إخضاع المقال الذي كتبته لمجلة الجامعة للمراقبة بطريقة غير مسؤولة. كان العمداء المتملقون الذين يجهلون التحدث بأيّة لغة أخرى يُرسَلون إلى الخارج لعقد ندوات وحلقات دراسيّة. وكان الطلاب يتوجّهون عَرَضاً إلى قاعات الصف، وبدلاً من أن يعجبهم المدرّس الأكثر جديّةً وثقافة، كانوا راضين بالمدرّسين غير المسؤولين الذين يسمحون للجميع بالنجاح...!

هل كانت هذه محاولة كي أقيم علاقة جيدة مع شقيقتي الكبرى؟ احتسينا الشرابَ معاً. وبعد أن نتحدّث عن أمنا الباحثة عن المتعة، تأتي اللحظة التي يغدو فيها كل ما تقوله غامضاً تماماً بالنسبة إليّ. عندما أبدأ خطبتي العادية المملة: "الأتراك سطحيون، تركيا تصبح ضحلة..."، فإنها تغفو. وأغفو أنا أيضاً بينما أهمس في أذنيها...

صباح أمس تسرّب ضوء مشعّ من المرآة وتركّز في نقطة، استقرّت في عقلي. الألم الخفيف الذي أشعر به في رأسي يتحوّل إلى حالة من الخدر الجسدي

مكتبة الرمحي أحمد

والروحي التي سأجعلها صديقتي بالتأكيد...

أربعون سنة مرّت وأنا أخطّط، رغم كل شيء، كي لا "أعاني في صمت". أناضل بشدّة وبشكلٍ مستمر مع أمي وطلابي وهيئة التعليم الخسيسة من العمداء. أنا واثقٌ من أنّ الأهمّ هو خلق السلام مع وحدتي. هل أتخلّص من ألمي قبل أن يتفاقم المأزق؟ كنت في البدء أقاوم الفوضى ومن ثم اكتشفت لماذا لم أستطع الهرب منها. وقعت في الاكتئاب، في عين العاصفة التي وصل إليها نيتشه وفلاسفة آخرون. وأنا أعذّب نفسي مترقّباً نهاية القصة والفصل الأخير في المسرحيّة. بانتظار أن أشفى، أن أجد ملجئي في أقوال إلياس كانيتي المأثورة.

***

كان يوم سبت آخر ضاعت منه روح العطلة. انطلقنا معاً، رزان وأنا، باتّجاه شيشلي المركزيّة. كنت أشعر بالفضول حيال الابن الذي يقال إنه "مكتئب". دخلت مستشفى السلام الذي يشبه الدير وأنا أصلي، لا أعلم لماذا. قادتنا الممرضة، التي تبدو مثل مريضة مصابة بمرض مزمن، إلى غرفة خاصة للزيارة وحذّرتنا مقدّماً: "رزان، يمكنكم أن تبقوا لساعة واحدة، ولكن لا تستفزّوا السيد"

لم أكد أجلس على الكرسي القديم عندما صرَّ الباب ودخل جورسل إرجينين، بسترته الرياضية الفضفاضة المنقوش عليها

مكتبة الرمحي أحمد

بحروف كبيرة شعار "بيركلي" شعرت بالقشعريرة وأنا ألاحظ الشبه بينه وبين ضحيّتي الأولى. جال جورسل إرجينين ببصره في الغرفة، كالنمر الذي تحرّر توّاً من قفصه، رآني، وابتسم مكشّراً وهو يسمع رزان تلقي عليه سلسلة من التعليقات التافهة. اقترب يجرّ خفّيه بينما كانت تخبره أنني المستأجر الثريّ الذي يعمل في مجلة ويتعامل أيضاً في الكتب المستعملة. كان يرفض بإصرار أن ينظر ناحية أمّه، ظلّ يراقبني بارتياب، مثل طفلٍ مدلّل يرى دبّ الباندا للمرة الأولى. (بدأت أندم على قيامي بهذه الزيارة.) حين قال بوضوح وبصوتٍ ذي نبرةٍ عالية:

– لقد قرأت مفكرتي، لذلك اعتقدت أنك تودّ أن تعرف كيف يبدو هذا الرجل الغريب الأطوار، صديقي المعذّب.

– ليس الأمر كذلك على الإطلاق، سيّدي... كنت قد بدأت أتعرّق.

– رغم أنك تنتفض مثل ليني في رواية فئران ورجال[1]، فإنّ لديك نظرة جلاد.

قال ذلك، واستمرّ يحدّق في وجهي كما لو أنه يتفحّص الخطوط المرسومة في فنجان قهوة.

هل نصبتُ مشنقتي؟ شعرت كما لو أنّ عرّافاً يُعدّد أسماء ضحاياي بالترتيب.

ثم قال بوقار كما لو أنّه قاضٍ يشرح قرار البراءة الذي أصدره:

---

١ رواية فئران ورجال: رواية للكاتب الأميركي الحائز على جائزة نوبل للأداب جون شتاينبك، نشرت عام ١٩٣٧.

مكتبة الرمحي أحمد

– الجلاد ليس أكثر من متطوّعٍ يُساء فهمه مثل الفيلسوف أو الشاعر.

جلس أمامي، يتأرجح ذهاباً وإياباً. وكان سعيداً بشكلٍ واضح، يتصرّف كما لو أنّ أمّه لم تكن موجودة. تمكّن من قراءة خادمكم المتواضع كأنّه طبيبٌ نفسيّ داهية. استمع إلى وجهة نظري بأن المتشدّدين وأشباه المثقّفين كانوا يهينون ديننا، واستمع كذلك إلى موقفي من ارتداء العمامة والملابس المفضوحة، وقال بعد ذلك: "أنت إسلاميٌّ جديدٌ تقيّ"، شعرت عندها بالسعادة كما في اليوم الذي رُقّيت فيه إلى رتبة رقيب.

مال على أذني اليسرى بطريقة تآمرية وسألني:

– هل تريد أن تسمع جواباً لأيّ سؤال يخطر في بالك في هذه اللحظة؟

وقد وقعت في فخّه.

– كان لديّ على الدوام الفضول لمعرفة عدد اللغات المختلفة التي يتكلّمها البشر على كوكبنا.

– هناك ٦٠٠٠ لغة تقريباً. وبعد ١٠٠ سنة ستصبح ٣٠٠٠، هذا إذا لم تجفّ آبار النفط قبل ذلك. في نهاية المطاف سوف نتكلم ٥٠٠ لغة. الآن لدي سؤال بخيارين لك، صديقي المعذّب: هل تفضّل أن تمسك بزوجتك في السرير مع ابن عمك أو أن تمسكها مع زوجة ابن عمك؟

كنت بدأت أصلي لله "ربّي أعطني القوة!" وبدأ السيّد جورسل يرتعش ويهلوس. استدعت أمه الممرّضة المكلّفة برعايته، فأمسكت

مكتبة الرمحي أحمد

بذراعه وقادته بعيداً باحترام، وهي تسأله: سيّدي العزيز، هل لي أن أطرح عليك لغزاً لن تستطيع حله، أو أحجيةً لن تتمكن من الإجابة عنها؟

***

في السبت التالي برّرت رزان عدم قيامها بالزيارة حين قالت: "أشعر بقليلٍ من وجع الرأس"، وانسلّت خارجةً لتلعب البريدج، لذا أخذتُ ثياب ابنها الداخلية النظيفة وبذلته الرياضية البديلة وذهبت لزيارته.

شعر السيد جورسل أنّ هذا التصرّف قد يكون بدايةً لصداقةٍ طويلة فسألني:

– أتساءل ما إذا كنت ستجعلني أفضل أو أنّني سأقودك إلى الجنون؟

فتحت له قلبي، أخبرته عن كلّ شيءٍ باستثناء ضحاياي وارتباطي بمنظمة "مكره" كنت آمل أن ينعش ذلك روحه المعنويّة. أصغى إليّ لكنه لم يبدِ أيّ تعليق، وقد أصغيت إلى حكاياته القصيرة الحزينة التي حذفها من مفكرته. حطّم قلبي هذه المرة حين سمعت كيف أنّ أمّه في المقام الأوّل، ومن ثمّ العالم كله، قد أضاعوا حياة هذا الشخص الموهوب الهشّ. شعرت بالخجل من الأمور التي كنت أشتكي منها بمرارة أمامه. كنت خجلاً كذلك من النظام السطحي الذي فشل في إدراك إبداعه.

عندما غادرت قبّلت يده باحترام. فاجأته بتصرفي هذا واصطبغ وجهه خجلاً بلونٍ أحمرَ مشعّ كمن أربكه التصفيق والإطراء بعد

مكتبة الرمحي أحمد

خطبةٍ فصيحة ألقاها على مسامع الجمهور. دسّ قصاصة ورقٍ في جيبي، طالباً مني أن أحضر له قائمة كتبٍ من مكتبته في المرّة القادمة، وكطلبٍ جانبي طلب كعكاً محلّى من مخزن كوناك للمعجنات.

بدأ جورسل يخاطبني بـ"النمر"، وقد قلّلت أمّه زياراتها الرسميّة إلى زيارة في الشهر. لاحظت أنه كان محتاراً فيما إذا كان عليه أن يرحّب بصداقتنا المتزايدة أم يندم عليها. وجدت رزان ميتة في سريرها في صباح ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر، نفس اليوم الذي مات فيه أتاتورك، عدوّها السرّيّ، قبل سبعةٍ وستين عاماً، وصعقني أنها دفنت في بقعة مقابلة لضريح ضحيتي الأولى؛ الرجل المفعم بالذنوب. كان عليّ أن أُعلم السيّد أنّه فقد أمه. بحقّ الله أيّ واجب مزعج كان هذا. وحين علم حاول ألاّ يضحك.

قبل مضي أربعين يوماً من الحداد على موت رزان، تصالحت ابنتها أمل مع زوجها الضعيف وقد سكنوا مع ابنهم المصاب بالتوحّد، الذي لم أعرف بوجوده قبلاً، في الطابق الذي تحت شقّتي. بدأ رينان، الكسول الأبدي، يأتي لرؤية ابن أخته. ودون شك فإن أمل قد توقفت عن الشراب. لم توبّخ ليمي كثيراً كما توقّعت، وكانت تذهب للعمل كل يوم، ولكن فقط عند الظهيرة. تقاعد ليمي الريفي كموظّف في المكتبة العمومية (لم أره أبداً يحمل كتاباً) وبدا أنه يكرّس وقته لابنهم القليل الكلام. كان الفتى اليافع الغريب الأطوار، الذي لا يبدو عليه أنه في السابعة عشرة، يشبّهني بالرجل القوي سيلفستر ستالون. بحقّ السماء! بينما كان يغفو مغمضاً عينيه الفولاذيتين، اللتين تشبهان عيني خاله كثيراً، في قيلولة بعد الظهر، كان والده يخرج إلى الشرفة مع

مكتبة الرمحي أحمد

زجاجة العرق والعود. استمتعت بالاستماع إليه يهمهم تلك الأغنيات ذات الألحان الحزينة. وكانت هناك أغنية حزينة غير مألوفة يحفظها كجزء من ذخيرته الفنية لم أسمعها من قبل، تبدأ بـ"دوزنت عودي، اشتعل قلبي"، وبعد رشفة من العرق كان يغنّي بعمق ويهمس بكلمات ماجنة. كنت سعيداً لأنّه كان رجلاً بلا شاربين.

***

سمعنا بوفاة صاحب المبنى المميز في شارع أشرف سعد.

وبينما كانت أرملة المرحوم تهمّ بالزواج من شريكه الشاب، وقبل أن يضعوا علامة "للإيجار"، انتقلت إليه. وقد نقلت كتب السيد جورسل إلى منزلي الجديد.

استأجر شقّتي القديمة زوجٌ كنديّ كانا يعملان مدرّسين في إحدى الثانويّات الفرنسيّة قبل التقاعد. أخبرت أمل أنّني سأتحمّل تكاليف رعاية السيد جورسل، وأنّ بإمكانها أن تنفق إيجار الشقّة على مدرسة ابنها.

عانقتني بابتهاج وطلبت إليّ أن آخذ كلّ كتب أخيها من المكتبة إلى منزلي الجديد. عرفت أن جورسل لن يتأثّر بالانتقال إلى غرفةٍ أكثر رفاهيّةً في المستشفى.

نقلت كتبه بعناية كبيرة إلى الصناديق. وقد وجدت إلى جانب السيرة الذاتية **حياة الحريم** مفكّرة للمسكينة سيم يتكين، المستأجرة السابقة، السيدة التي لم يذكرها أحد لأنّها انتحرت.

مكتبة الرمحي أحمد

أنهت سيم يتكين حياتها كمحررة مساعدة مسؤولة عن المقالات الخاصة في مجلة أسبوعية، وانتحرت وهي في الثلاثين من عمرها. قرأت مرّاتٍ ومرّات هذه الملاحظات الشخصيّة الشجاعة لهذه الكاتبة الغريبة، التي أصيبت بالاكتئاب لأنّها لم تتمكن من كتابة الشعر لحبيبها. لقد قرأت وتنقّلت بين أعمال مجموعة من الشاعرات المشهورات –والمنتحرات. لم أخبر السيد إلى أيّ درجةٍ تأثّرت بالسطور التي تبارزت فيها مع الموت في كل فرصة. اخترت خلاصات من الصفحات الأولى للمفكرة، بدت كأنّها قد أحيطت بدوائر، كلمةً كلمة، في وقت أقرب إلى موتها، وصغتها في قصة قصيرة أرسلتها للمنافسة في مناظرة أدبية شهريّة، تحت اسم مستعار، سيما يتكين، بعنوان "أريد أن أكتب عندما أقرأ / أنا أقرأ عندما أعجز عن الكتابة". وكنت واثقاً أنّنا سنفوز. وبينما كنت أستكشف المنطقة المحيطة ببرج العذراء[1]، خُيّل إلي أني سمعت صرختها المجلجلة ممزوجةً بالصلوات تأتي من الخلف ويبتلعها البحر. ولم يفاجئني أن أسمع من الشاب، الذي يعمل في متجر بركات، أن "السيدة السمينة التي ترتدي النظارة وتقرأ كتاباً حتى وهي تشتري الجبن" قد رمت نفسها في البحر أمام برج العذراء. بعد موت أمّه تحرّر السيد جورسل من أيّ إحساسٍ بالذنب باستثناء ارتكابه لجرائم الفكر. كنت أعدّ الأيّام حتى يأتي يوم السبت، حيث يمكنني أن أبقى معه ثلاث ساعاتٍ إذا رغبت. كنت أحمّمه بسعادة. ولكن انتقادات رزان كانت تجعلني

١ برج العذراء: من أبرز المعالم الأثرية في اسطنبول، يعود إلى العهد الإغريقي، استخدم كمنارة لعدة قرون.

مكتبة الرمحي أحمد

أرتبك عندما كنت أختار له ثيابه.

متحرّراً من قيوده، كان مثل خطيبٍ مثقّف وموسوعة حيّة من العلوم الاجتماعيّة. وكنت أصغي إليه بصبرٍ واحترام. تزايدت ثقتي بنفسي في كل مرة اختلفنا فيها كما لو أنني كنت أحصل على شهادة جديدة. حقيقةً كان يبدو سليماً نفسيّاً مثل خادمكم المتواضع. لقد أدركت تدريجيّاً أنه كان أقلّ قلقاً من أيّ قاطنٍ آخر في هذه المدينة، بمن فيهم طبيبه، وراودني اعتقاد بأن جورسلٍ أرجينين، الفيلسوف الأستاذ قد شاهد المدينة بكاملها تتحول إلى مأوى للمجانين فلجأ إلى الاختفاء في المستشفى من أجل سلامة روحه.

مكتبة الرمحي أحمد

– أ –

لم أكن أرغب في البحث عن دالغا في الشوارع، لذا فقد تمكنت بمساعدة سلجوق ألتون من الحصول على أرقام هواتف اثنين من صديقاتها، عادل وسراب. لم أكن مرتاحاً للرد البارد الذي أتى من هاتين الفتاتين، لاعبتي الكرة الطائرة السابقتين، اللتين أذكرهما تصرخان وتقفزان لأعلى لتضربا الكرة بقوّة. أخبرتني كلتا الفتاتان كيف أن دالغا قد غادرت إلى إنكلترا. ومن ثم عادت وتوقفت عن رؤية صديقاتها. وأنّ أمّها تزوّجت وانتقلت إلى تولوز، وجدّها، على الأغلب، قد مات.

شعرت بخيبة الأمل لفشلي في الحصول على ما أريد، ولكنّي كنت سعيداً أنّني حاولت، فانسحبت إلى المنزل. كنت أقرأ متنقّلاً بين جميع الكتب الشعرية الموجودة في المكتبة وفي نفس الوقت أترجم كتب يوجين مونتل[1] في المساء. (كان أبي يرى أن الشعر هو أرقى أشكال الأدب. يجب أن يتم اختبار متعة التفسير، فلكل

١ يوجين مونتل: شاعر وكاتب ومترجم إيطالي. نال جائزة نوبل للأداب عام ١٩٧٥.

مكتبة الرمحي أحمد

شطرٍ إحساسه من حيث الميزان والشكل.) ذهبت إلى السرير مع أذان الفجر ووجدت أنه حتى بمساعدة الحبوب المنومة من الصعب أن أغفو. بمجرد أن كانت عيناي تغمضان كنت أجفل من صوت قطرات الماء التي تسقط بنفس اللحظة من كل الصنابير في المنزل. ومن ثم أسمع صوت زوجٍ من الأقدام يهبط الدرج ويجول في الغرف، بخطوات متثاقلة، حتى يصل في النهاية إلى غرفة نومي. هل كان هذا شبح أمي؟ إذا صادف أن كنت أقرأ كوجوك إسكندر فكنت أخفي الكتاب في درج الخزانة حتى لا تغضب...

وُجد جدّي، الذي كان من محبّي أتاتورك، ميتاً في سريره في صباح ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر. وحيث أن مؤسّس الجمهوريّة التركيّة كان قد مات في ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر، فقد همس خالي الساذج سلفادور في أذني: "أتمنّى لو أنّه مات في الأمس".

***

جعلت زهرة الربيع الأولى التي تبشّر بقدوم السنة الجديدة رأسي يدور، ولم أستطع أن أتذكّر لماذا كان عليّ أن آتي إلى سوق ليفنت البعيد. ناديت السائق الكسول دائماً وأبداً، خير الله، وذهبت للمنزل. عندما تناولت حبّة المنوّم، ناولتني إفاكت ظرفاً. كان الظّرف الأزرق مرسلاً من لندن ومرسلته كانت دالغا بايلاي.

عزيزي أردا،

سمعت أنك تبحث عني، وقد منحني ذلك الشجاعة

مكتبة الرمحي أحمد

لأكتب لك. يجب أن أراك. أنا لست مستعدّة للعودة إلى اسطنبول (وربّما لن أعود أبداً!).

إذا كنت مستعدّاً لسماع أسوأ سيناريو ممكن وتعتقد أنك قادر على النظر في وجهي بعد ذلك، تعال أرجوك...

د.

كنت أتوقّع أن أشعر بالحرية بعد موت أمّي ولكن يبدو أنني قد أصبحت أسيراً لغيابها المشؤوم. وبينما كنت أدوّن عنوان دالغا ورقم هاتفها، تساءلت في نفسي: "هل هناك أي أخبار من الممكن أن تزيد هذا الملل الذي أشعر به؟" كنت أتوقّع أن تكون هذه الأخبار الكارثيّة التي لا يمكن احتمالها حلاً للصراع الذي أعيشه في هذا الفراغ.

اختبأت في المطار عندما رأيت إحدى صديقات أمّي المغرورات، لأنّي كنت سأكون مضطرّاً لتحمّل ما يكفي من التأنيب كوني ما زلت دون زواج. كانت طائرة لندن مليئة بالإنكليز العائدين إلى بلدهم لقضاء عطلة الميلاد. ولتجنّب المحادثات غير الضروريّة، لجأت لقراءة **الباشا غولدبرغ**، للكاتب أرج أيدن، الذي مضى عليه في نيويورك سبع وأربعون سنة دون جواز سفر. بينما كانت الطائرة تقلع، ألقيت نظرة على المدينة القديمة المحبوبة اسطنبول من الأعلى. بعيداً عن البوسفور ومضيق القرن الذهبي، لم يكن لما رأيته حتى سحر قرية بدوية. اندهشت لتذكر أنّ، وفقاً لبحث أنجزه المجلس البلدي، تسعاً وستين بالمئة من السكان هنا يعيشون تحت خط الفقر. فضّلت التركيز على المضيفات السطحيّات يمشين ذهاباً وإياباً، كما لو أنّ

مكتبة الرمحي أحمد

الطائرة ستهبط إلى الأرض بدونهن.

قابلت دالغا في بهو فندق الميرديان العائلي في البيكعادللي. بدت أكثر إنهاكاً مما توقّعت لكنها ما زالت جذّابة وأنيقة. كان غريباً أن أراها لا تزال تمشي مثل الفتاة المتشبّهة بالصبيان، مستعدّة للوثب عالياً وضرب كرة طائرة إذا لاحت لها في الأفق. نظراً لما كتبته في رسالتها، فقد كنت متحضّراً لعناقٍ شبه رسميّ، رغم أنني أحببت أن أشعر برائحة جسدها من جديد.

اقترحت أن نصعد إلى غرفتي. رمت معطفها الجلدي على السرير وتناولت زجاجة ويسكي من البار الصغير. جلسنا قبالة بعضنا، مندهشين ومرتاحين. جعلتني أتكلّم لكنّي أشكّ أنّها كانت تسمع أيّ شيء. كنت بدأت أشعر بالاضطراب لرؤية ارتباكها المتزايد. لدى محاولتها الرابعة لإشعال سيجارة تناولتها من علبة سجائر دانهيل المجعدة، بدأت حديثها:

"سأدخل مباشرةً في الموضوع وليس عليك أن تطرح أيّ أسئلة. لديّ سكين في حقيبتي، في حال شعرت بالقرف منّي وقرّرت الاعتداء عليّ.

أردا، منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري، وحتّى وفاته، كنت عشيقة أبيك. كانت لأبيك نظرة شون كونري تجعل قلب كل امرأة يخفق أسرع، وكان صوته جذّاباً بشكل خاص. أمّي، وحتى عمّتي المصابة بالاكتئاب، أُعجبتا به. وكفتاة لعوب بطريقة ما قرّرت أن أغويه بالدخول إلى غرفته بحجّة الدرس. في غرفته كنّا نكتفي بالمداعبة ولكنّنا مارسنا الحب في بيوت أصدقائه العازبين. كان سعيداً بإعجابي به،

مكتبة الرمحي أحمد

وكنت سعيدة أنه جعلني أشعر بأهميتي لأنه كان يشاركني في مشكلاته. كنت أشعر في كل مرة نلتقي فيها أنّني أكبرُ سنة.

كان يشتكي من أن شخصيّة أمك قد تغيّرت بعد ولادتك. كان يقول: "إنّها كانت تظهر لي الاحترام أمام الناس كزميل لها أو كشيخ، لكنّها ترهقني بمشكلاتها وبممارسة الحب. كانت، إذا رأتني متهيباً ومستعدّاً للهرب من خبثها، تتحول فجأةً إلى ملاك كي تمنعني من الخروج. لم يجعلني أيٌّ من إنجازاتي العلميّة سعيداً بقدر ما أسعدني أنّني أصبحت أباً. ولكن إذا حملت طفلي الصغير بين ذراعيّ، فإنّها تصبح شريرة كالزواحف. بينما أردا يكبر، كانت غيرتها تزداد، وبدأت تسيئ معاملة الطفل الصغير كلما اقتربتُ منه. أصبحت معتاداً على فكرة أن أحبّ ابني من بعيد وأنا يملؤني الحزن، آملاً أن هذه المسافة قد تحميه، لكنّي لم أستطع الانسحاب كليّاً" كان يرى أنك كنت أذكى منه وأنك، بسبب الخلل الموجود في العائلة، اخترت إخفاء عبقريّتك بأن نضجت بسرعة لتهرب من طفولة ظالمة فُرضت عليك. أعتقد أن كلينا كان يعلم أنه عاجلاً أم آجلاً ستمسك أمّك بنا. وقد علمت بعلاقتنا في الصيف الذي كنت فيه في السنة الأخيرة في الثانوية. كل ما كان عليها فعله هو استفزاز جدّي الغاضب أصلاً. وعندما سمع بالمصيبة الأخيرة أعطانا مبلغاً من المال وطردنا خارجاً وهو يقول: "لا أريد رؤية وجهيكما ثانيةً أبداً، أيتها العاهرتان الوضيعتان". لجأنا إلى منزل ابن عمّ أمي، الذي يعيش وحيداً في شقة صغيرة في بلدة إرنكوي الهادئة. وبينما كنت أحاول التعامل مع هذه المستجدات وجدت أنّ من الغريب أن أمّي كانت تعارضني، مع أنها

مكتبة الرمحي أحمد

هي نفسها كانت عشيقة لشابٍّ زميلٍ لها متزوج.

بدأت أمّي بالانطلاق مباشرةً تقريباً بعد تحررها من المنزل الذي قيّدها. وفي حفلة رأس السنة الجديدة مع أصدقائها في الكليّة التقت بحبيبٍ قديمٍ لها، وتحوّل قدرها إلى الأفضل. تزوّجا بسرعة. وزوجها الجديد يسكن في باريس. وقد ورث عن زوجته الأولى، التي كانت كبيرة في السن، مطعماً لذوّاقي الأطعمة وشركة نبيذ. في اليوم الذي حصلت فيها على نتائج منتصف العام، غادرت أمي إلى تولوز. حصلت على قبول من قسم علم النفس في جامعة الملك، وقد تعهّد زوج أمي بدعمي ماليّاً.

اتّصل أبوك بي في الأسبوع التالي ليتمنّى لي عيد ميلاد سعيداً، وحين سمعت صوته شعرت أن قلبي سيتوقّف. أخبرني أنّي كنت دائماً في عقله، لكنّه لم يتّصل، متخيّلاً أني قد أكون مشغولة بالتحضير لامتحان دخول الجامعة. حالما صار مؤكّداً أنني سأغادر إلى لندن لأبدأ حياتي في الجامعة، بدأنا نلتقي مجدّداً. كنت أنتظره في منزل مهجور في الشارع التالي عندما أُطلق عليه الرصاص أمام جدار الجامع. غادرت إلى لندن بعد خمسة أيام، وبعد استيعاب الصدمة الأولى حاولت أن أفهم ما حدث ممّا قالته أمك للشرطة، وهو كليّاً غير صحيح. لم يذكر أبوك أمامي أيّ كلمةٍ عن تلقّيه أيّ تهديد، وهو لم يكن يخفي عني أيّ شيءٍ أبداً. ماذا عن هذه المجموعة الذي يفترض أنها اغتالته؟ لم يذكر أن هذه المجموعة تورّطت في أيّ عمليّة قبل ذلك. بالنسبة لأبيك، الذي كان يرى أنه ليس هناك مشكلة في العالم لا يمكنه حلّها باستثناء (النساء)، كان خطوه في مكانٍ آخر أثار

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

شكوك أمك. كان يقول دائماً: "إذا لم تقتلني هذه المرأة بنظراتها الخبيثة، فإنها ستجد شخصاً آخر يفعل ذلك". في آخر مرتين التقينا فيهما كان لدى والدك إحساس بأننا ملاحقان.

لا يمكنك أن تنكر أنّ أمّك كانت امرأةً قاسيةً وانتقاميّة. أعتقد أنها، عندما أضاع مُرسل فرصته الأخيرة، قتلته.

أعرف أنّك مصدوم، لكنّي اعتقدت أنّي لا أملك الحقّ لأخفي عنك ما أعرفه."

شعرت دالغا بالراحة لتخلّصها من العبء الذي حملته طويلاً. تناولت زجاجة أخرى من البار وقامت بمحاولتين لإشعال سيجارتها، وهي تحاول معرفة حجم رد فعلي. صُدمت بمعرفة علاقة الحب المحرّمة بين أبي وحبّ طفولتي، لكني كنت مرتاعاً أكثر من احتمال أن تكون أمّي وراء قتل أبي. (هل سأدفن تحت موجة أخرى من الاكتئاب؟) بدأت دالغا بعد ذلك خطابها الوداعي:

"لقد استغرق الأمر مني سنتين حتى شفيت من سلسلة حالات الاكتئاب التي أصابتني والتي بدأت بإحساسي بالذنب. دخلت في علاج مكثّف وتأخّر تخرّجي عاماً كاملاً. ساعدني البروفيسور توم بايلي، نائب رئيس القسم، خلال أزمتي، وعندما أنهى أخيراً زواجه من زوجته الأميركية تزوجنا بعد تخرّجي مباشرةً. زوجي أكبر مني بـ ١٨ عاماً، وهو يذكّرني قليلاً بأبيك. لي ابن اسمه أدريان عمره الآن خمس سنوات. (لم أستطع أن أجد بالإنكليزية اسماً أقرب منه إلى أردا.) كم أنا مولعةٌ بك يا أردا. في أحلامي، أطير معك ومع مرسل ونهبط على جزيرة حيث نعيش بسعادة إلى الأبد. كنت أعرف أنك

مكتبة الرمحي أحمد

كنت تكنّ مشاعر مختلطة نحوي، وأنّك كنت تسترق النظر إليّ وأنا أستحمّ بعد حمام الشمس، ولتعذيبك أكثر كنت أتقصّد إثارتك.

أردت أن أراك بعد موت أمّك لكني لم أشعر أبداً بالقوة الكافية لذلك. سراب فقط هي من تعرف عنواني وما حدث معي. وقد حذرتها من أن تفشي سرّيّ لأحد، لذا فقد تخلّصت منك عندما اتّصلت بها. لكنّي بدأت أؤمن بالقدر، ربما لأواسي نفسي بعد كل ما جرى. أنا واثقة بأنك لو لم تتصل ما كنّا لنلتقي اليوم، أو ربما كنّا التقينا في وقتٍ أقلّ أهميّة.

بفتح قلبي لك جعلتُ قلبك مظلماً. ما رأيك أن تنضم إلينا غداً لنحتفل سويّةً بليلة الميلاد، حيث يمكننا أن نتقاسم بعض القصص المبهجة على سبيل التغيير؟ سيكون بإمكانك أن تلتقي زوجي وإثيل، ابنة زوجي، وابني الذي يظنّ أنك خاله. إذا رأيت أنّه لا ينبغي لنا أن نلتقي مرّةً ثانيةً أبداً فسأتفهم قرارك، لكن يجب أن تعلم أنّني متمسكة بصداقتك يا أردا..."

بعد أن غادرت دالغا الغرفة، بقيت جالساً دون حراك. كنت أتساءل وأنا مغمض العينين ماذا يفعل قاتل والدي في تلك اللحظة. بدلاً من آتي على زجاجات الشراب الموجودة في البار الصغير، قمت (مثل أم، مثل ابن) بتناول قرصٍ ونصف من الفاليوم وهربت إلى السرير.

***

عرفت أني سأستيقظ مكتئباً بعد فترة نوم استمرت ثلاث ساعات فقط.

مكتبة الرمحي أحمد

لنفترض أن دالغا سألتني: "لماذا حاولت أن تتصل بي بعد كل هذه السنوات؟" وبينما أنا أفكر في الجواب شعرت أن عضوي ينتصب. (عندما اعتادت أمي أن تقول: "أرسل سلفادور هذه"، وهي تضع المجلات التي تحوي صوراً إباحيّة في أكياسها البلاستيكيّة، كنت ألاحظ كيف كانت تبدو وكأنها تضّحي بنفسها لأجل الآخرين. في كل مرة أتينا فيها إلى لندن كنا نبقى في هذا الفندق، في البيكعادللي، الذي هو مجاور تقريباً لفندق سوهو سيّئ السمعة. كانت تدفعني فور وصولنا إلى أقرب نادٍ للتعري، لأعود بعد ساعتين.)

تناولت المكسّرات التي كانت موجودة في البار بدلاً من تناول العشاء. نزلت إلى مخزن كتب واترستون المقابل للفندق وبقيت في قسمَي الشعر والكتب الغريبة حتى أغلق. بطريقة ما قادتني قدماي إلى سوهو، تماماً بنفس السرعة والعصبيّة كما فعلتا قبل سبع سنوات، ووجدت "نادي الداون داون" بسهولة كما لو أني كنت هنا قبل سبعة أيام فقط. كانت رائحة البول تغمر الممر. وفي غرفةٍ تفوح منها رائحة القيء كان هناك أكثر من عشرين شاباً عرباً ويابانيين ورجالاً إنكليزيين أكبر سناً. كنت خائفاً أن أجلس في الصف الأمامي جداً قرب المسرح الأسطواني حيث كانت هناك خمس جميلاتٍ عابساتٍ ينتظرن دورهن في الرقص. كان الشباب ينهضون من مقاعدهم ويدسّون خمس جنيهات في أربطة سيقان الفتيات ويحصلون لقاءها على القبل.

خلال الاستراحة حمل بعض المقامرين الجريئين الشراب للفتيات الأكثر شعبيّة، تيفاني، بالوما، أماندا، فينوس وباندورا. ذكرتني

مكتبة الرمحي أحمد

تيفاني، ذات الساقين الطويلتين وبشعر عانتها الأشقر، بإلهة السينما نيكول كيدمان. بينما هي تتعرّى على أنغام أغنية تينا تيرنر وكريس ريا، كانت الـ ٢٠ جنيهاً التي أحملها في يدي قد تشبّعت بالعرق. نهضت لأغادر وأنا ألعن نفسي لأني لا أمتلك الجرأة كي أتقدّم بضع خطوات وألمسها. عرفت أنّ الحارس المتبجح على الباب سيعاملني كمنحرف جنسياً لأنّي غادرت الملهى الرخيص باكراً.

غفوت وأنا أقرأ رواية **قلب أي إنسان** لويليام بويد[1]، وهي قصة حياة كُتبت على شكل يوميات. مع اقتراب الصباح أيقظتني صيحات السكارى في الشارع. وجلست أفكّر في المشكلة التي تبعث على القشعريرة: كيف يستطيع لإنسان إطلاق الرصاص على إنسانٍ آخر؟

***

أدهشني إحساسي بلهفتي الشديدة للقاء عائلة بايلي. كان قلقي يزداد كلما اقتربت من العنوان في جادة سلون، مع صفوف أبنيتها القرميديّة. عند باب المبنى الكبير ذي الطابقين، الذي كان يتم أمامه شحن سيارات الروفر، تلمّست بعصبية الهدية التي كنت أحملها والتي كانت عبارة عن زجاجة فاخرة من الشمبانيا ومنحوتة من الفضة. سحبت أصابعي بسرعة عن الجهاز الطنان عندما سمعت الحوار الودي الذي كان يدور بين دالغا وابنها نصف الإنكليزي

١ ويليام بويد: كاتب بريطاني، من مواليد عام ١٩٥٢، يكتب الرواية والنصوص السينمائية.

مكتبة الرمحي أحمد

نصف التركي. أغلقت عينيّ بقوة وبدأت أشعر بالألم في مقدمة رأسي وقلبي يرتجف لصوت ضحكات أدريان. ربّما خوفاً من أقع ثانيةً في حب دالغا، أو خوفاً من التعرّف بزوجها، تركت رزمة الأشياء عند الباب وبدأت أركض في الشارع.

عندما وصلت إلى شارع الملك لاحظت لوحة على الجدار كُتب عليها: "جورج سيفرس (١٩٠١-١٩٧١)، الحائز على جائزة نوبل، شاعر يوناني وسفير، عاش هنا". شعرت بالسعادة كما لو أنّي صادفت مواطناً زميلاً، لكني ارتبكت عندما تذكّرت السياسي الشوفيني من أورلا، مسقط رأس الشاعر في تركيا، الذي جرّب تغيير اسم شارع سيفرس. ليرقد أبي في سلام، كان دائماً يقول: "لو أن أقطاي رفعت كان شاعراً يونانياً لربح جائزة نوبل منذ وقتٍ طويل"

ليبارك الله البشر الذين يبقون داخل منازلهم للاحتفال بالميلاد! استمتعت بالسير عبر الشوارع المقفرة حتى وصلت إلى محطة أنفاق سلون. لم يكن في انتظار القطار سواي وشخصٌ آخر. وأنا عادةً أبادر بالتعرّف إلى هذا الشخص الآخر في وضعٍ كهذا، وقد شجّعني على ذلك الوجه الحزين للفتى الشاب الذي يحمل أكورديوناً عتيقاً، فسألته: "هل أنت رومانيّ؟" ردّ عليّ: "هل أنت روسيّ؟" بعد أن تعارفنا أعطيت بافل، الذي كان من براغ، ٢٠ جنيهاً ورقيّة وقلت له: "اعزف لي مقطوعتك المفضلة."

تردّد قليلاً في الاختيار، ثم بدأ يغنّي بصوت عالٍ "أغنيات علّمتني إياها أمي" لدفوراك. امتلأ قلبي بالحزن عندما أدركت عمق الحب والشوق في هذه الأبيات الحزينة، التي لم أفهم كلماتها، ولأول مرّة

مكتبة الرمحي أحمد

أشعر، وأنا أسمع هذه الأغنية، أن عليّ أن أغمض عينيّ. ربما لأني لم أكن أعرف كيف أضحك، وكنت أعرف أنّني لن أبكي. وصل القطار اللعين قبل أن تنتهي الأغنية وصعدنا، بافل وأنا، في نفس العربة. أعطيته عشرين جنيهاً أخرى وطلبت إليه أن يستمر في عزف نفس المقطوعة حتى نصل إلى سيرك البيكعادللي. من خلال هذا اللحن القديم الذي مدّته فقط ثلاث دقائق، أدركت ما كان ضائعاً في حياتي كلها.

بقلبٍ متّقد، نزلت عند سيرك البيكعادللي. لم أفاجأ عندما زلّت قدمي وتزحلقت وسقطت عند قاعدة الأدراج اللامنتهية. بينما كنت أسقط أرضاً كنت محرجاً لسماع الصرخات. وقعت على كفّ يدي اليسرى وركبتيّ وأغلقت عينيّ لتجنّب رؤية الحشد الذي أحاط بي، لكن ألمي اشتدّ عندما سمعت صوت امرأة تسأل بودّ: "هل أنت على ما يرام؟" ضغطت يدي وسحبت قدمي اليسرى إلى أن وصلت إلى مقعد عند نهاية المنصة، جلست وبدأت البكاء. رميت منديلي الورقي المشبع بالدموع ناحية الفئران التي تملأ المكان ضجّةً عند الممرات الفرعية قبل أن أتوجه إلى المخرج الرئيسي. اعتقدت أني كنت قادراً على السير بشكل أفضل رغم الألم في ركبتي، وكما نصحني خالي تماماً حافظتُ على أكتافي مشدودةً للخلف، ورأسي مرفوعاً للأعلى، ونظرت خمسين متراً للأمام. كانت الغشاوة الضبابية التي غطت عيني قد زالت تقريباً. وعندما بدأت الأشياء المحيطة تظهر بألوانها الحقيقية، شعرت كأنّ تكويني الجسدي قد تغيّر. توجّهت إلى غرفتي وأنا أشعر بالأمل، كنت كلما مشيت أكثر أشعر بالتحسّن.

مكتبة الرمحي أحمد

ضاعفت أعداداً من ستة أرقام في رأسي وتأكّدت من النتيجة بواسطة الآلة الحاسبة. (ولسوء الحظ لم أكن مخطئاً.) لجأت إلى قراءة قلب أي إنسان، ولكني فقدت اهتمامي بمتابعة الكتاب عندما التقى الراوي بأمير ويلز، الذي تخلى عن العرش من أجل المرأة التي أحبّها وتزوجّها في النهاية. ألم يكن كتاب أبي الذي وجدت بداخله مجموعة "أغنيات علّمتني إيّاها أمّي" سيرةً ذاتيّةً للملك المضطرب؟ شعرت بالارتباك عندما أدركت الارتباط الذي ليس له معنى وأسرعت خارجاً. على الأرجح ظننتم أنني سأذهب إلى الداون داون وألصق ٥ جنيهات ورقية على ساق تيفاني. ولكني، وبينما كنت عائداً إلى شارع نيوبوند المقفر، حيث اعتدت أن أموت من الملل عندما كنت أسير مع أمي، كنت ذاهباً لاتّخاذ قرارٍ بالغ الخطورة: كنت ذاهباً لإيجاد قاتل أبي!

مكتبة الرمحي أحمد

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾
(التوبة: ١٠٨)

"الرجل الذي كان طيباً جداً نسي اسمه."

"لا تخبرني من أنت. أريد أن أعبدك."

"نحن منافقون لأننا لا نستطيع أن ننسى الأشياء التي كسبناها."

"أليس التجدّد أكثر إيلاماً من الاختفاء؟"

"كلمات تستخدم مرة واحدة في الحياة. أية كلمات؟"

"الخلود نجمٌ مذنّب..."

"كلّ ذلك كتب بلا تاريخ قبل أن يجفّ الحبر."

حيّاني السيد جورسل في زيارتي رقم ثلاثمئة إليه بقوله: "اختر سبعة أقوال مأثورة لإلياس كانيتي، ترجمها إلى التركية وأعد صياغتها، وأحضرها معك في لقائنا القادم". (خادمكم المتواضع كافح حقيقةً بشكل كبير مع السطور السابقة.) ليرحمه الله، كان يريدني أن أبتدع قصصاً كوميديّة وملحميّة من مشاهد حالات كآبته. (كان ذلك هو ما جعل خادمكم المتواضع يدرك أن الكتابة أصعب من سحب الزناد.)

مكتبة الرمحي أحمد

لاحظت أنه كان يحاول أن يرشدني دون أن يقلّل من قيمة معرفتي. كان سيدي يعتقد أنه يجب أن يكون لكلّ لقاءٍ بيننا أثر عليّ، وإلا فإنني قد لا آتي. مع مضي الوقت انتعشت ميولي المندفعة وخلاياي السرية. إذا لمحت من زاوية عيني صورةً جنسية فإنني أحلم أني أهبط ضمن مدافن القذارة. في إحدى الأمسيات، وكنت متعباً من القراءة، وجدت نفسي في اللحظة الأخيرة غير قادرٍ على الانصراف من الباب الأمامي لبيت دعارة، سبحان الله!

هل أحترم البحر لأنني لا أجيد السباحة؟ كان اشتياقي للقاء السيد يزداد بقوة بينما أنا أسير على الرصيف البحري عند المعبر بين إسكودار وبيشكتاش إذا كان الطقس لا يوحي بسقوط المطر أو الثلج. ما زالت البطاقات البريدية العثمانية تحمل صور العبّارات القديمة التي نقلت بمهابة قبور أجدادنا القدماء، ورحلات الدقائق الخمس عشرة التي بدأت وانتهت مع إشراقة عبور الأطلسي. في زيارتي الأخيرة إلى السيد جورسل، وبينما كنت أركّز على قراءة مقال صحفي لطه كيفانتش، لفت نظري كتابٌ كبيرٌ كان متروكاً على المقعد إلى يميني. كان عنوان الكتاب هو **ملك الشعب**، وكان يتحدث عن رغبة الملك إدوارد الرابع بالتخلي عن العرش كي يتمكن من الزواج من الأرملة الأميركية التي أحبّها.

السؤال الذي حيّرني وأردت أن أوجّهه إلى سيدي هو: "بما أنّه كان ملكاً وأراد أن يتزوّج أرملة، لماذا لم يثق بدعم الشعب؟"

حسب الاسم الذي كان على الغلاف فإن الكتاب يعود إلى سلجوق ألتون، الكاتب الذي نصح طه كيفانتش بقراءة رواياته. يقال

مكتبة الرمحي أحمد

إن الرجل، الذي أقسمت أني لن أقرأ أعماله أبداً، يعمل في إدارة أحد المصارف الخاصّة.

***

كان بلاغ بايبورا القملة كما يلي: "محاربي الرئيسي، سنلتقي في حديقة الاتحاد النسائي التركي عند الساعة الثانية غداً لنحقق العدالة ونقبض ١٠٠,٠٠٠ دولار مع دعاء وصلوات سيدة معذّبة ولكن ثرية"

أقسم خادمكم المتواضع بعد هذه الحادثة الأخيرة أنه سوف يتخلّص من هذا التافه بايبورا. (كنت أصرّ على أسناني كلّ مرّةٍ أسمع فيها صوته.) بما أنّه لم يكن هناك سبيل للحديث عن "الاستقالة" في مجال عملنا، كان عليّ أن أصل إلى الرئيس المبجّل حامل لقب "الجلاّد"، إذا كان موجوداً فعلاً، حتّى أتحرّر. لقد استخدموني مطيّةً دون شكّ! لم تأت الأخبار يوماً على ذكر جرائمَ كالتي أرتكبها. بدلاً من كون هذه المنظّمة عصابة، ربّما كان هناك محتالان يخدعان فعلاً خادمكم المتواضع. إلى جانب ذلك، لقد فقدت حماستي للعمل، لكنني لم أفقد انضباطي مع ذلك. بعد كل حادث كان سيّدي يحيّيني قائلاً: "ها أنت تبدو مراوغاً من جديد، مثل شخصٍ قد انتهى للتو من خيانة زوجته"

اختار بايبورا الوقت الذي تقل فيه الحركة في الحدائق المحليّة الظليلة لنلتقي ونتفاوض. في الحديقة الصغيرة لحي أجي بادم الهادئ

مكتبة الرمحي أحمد

كان هناك تمثال لطفلين صغيرين وأمهما الحزينة المحرومة من الحب. كنت أبحث عن توقيع صاحب العمل عندما ظهر الحشرة فجأةً متهكماً: "لا يفاجئني أنّك تتأمّل في تمثالٍ فيه أفخاذ وأثداء مخفيّة"، ثم سلّمني ملفّاً وهو يسلّمني أجري ولكن لم تكن لدي رغبة لمعرفة ما فيه.

***

بالمناسبة، لم أطلع هذه المرة على معلومات الملف وأنا أتلو الصلاة. حالما رأيت صورة ضحيّتي التالية، سونير إلكين، شعرت بالغضب. كان لهذا الصعلوك الهالك، الذي بدا أنّه في الأربعينات من عمره، هيئة متغطرسة، وكأنّه بذاته تمثالٌ لذاته. أسأل الله أن تكون هذه المرّة هي المرّة الأخيرة التي ترتكب فيها يدي اليسرى المعصية.

توقّعت أن يكون هذا الطفيليّ متزوّجاً من سيّدة أعمال غنيّة أكبر منه بالعمر، لكنّي لم أتوقّع أن يكون قد أغوى ابنتَي زوجته، الكبرى من زوجها الأول، ومتزوّجة، والأخرى من زوجها الثاني، وهي طالبة في المدرسة. كان المنحلّ رئيس مجلس الإدارة في شركة تصدير تملكها زوجته. وعلى الرغم من كلّ التحذيرات، لم يستطع أن يقاوم سحب أموالٍ ضخمة من أرصدة الشركة، ما سبّب خسارة الأموال في سوق الأوراق الماليّة، والمقامرة. وقد استخدم أسرار التجارة للابتزاز، وقد طلب، مقابل موافقته على الطلاق، الحصول على نصف أصول الشركة الأساسيّة. وقد جاء التحريّ الذي استخدمته

مكتبة الرمحي أحمد

الزوجة لمتابعة الزوج بأنباء أنّ هذا الماجن يقضي أوقاته مع زوج من العاهرات الأوكرانيّات على ظهر يخت يرسو في خليج جوسيكً في البحر المتوسط.

كنت واثقاً أنّ "أسرار التجارة" تضمّنت تزوير الوثائق، والوثائق غير المسجّلة، والتهرّب من الضرائب. (من جديد كنت ممتنّاً لله لأنّني لا أتعامل مع عالم الأعمال النتن.)

ركبت الطائرة إلى دالامان وحجزت في دار سيرين للضيافة، كان جرس صالة المدخل فيه يصدح بأصوات بكاء حزينة. سلّموني أغراضي في الصباح التالي، وعليها ختم "مادة سياحيّة خاصّة" كانت الأجزاء المفككة للبندقيّة القناصّة (SV٩٩) مخبّأة بين سجّادة الصلاة والجعب المزخرفة، وبينما كنت أصلّي لله وأنا أعيد تجميع القطع، كنت أشعر بالسعادة كما لو أنّي ألتقي أحد أصدقائي القدامى في الجيش.

جعلت من جزيرة جوسيك المعزولة، التي تبعد عشرين دقيقة بواسطة الحافلة، قاعدةً لتحركاتي. بدت البلدة كأنّها تعيش قيلولة ربيعيّة عشيّة انطلاق الفصل السياحيّ فيها. أدهشني أن الطريق الرئيسيّ الصغير فيها لم يملأه الشغب. كان اليخت العملاق راسياً بين جزيرة جوسيك وشريط الساحل الذي تعود ملكيته إلى مديريّة الحراج. تابعت المراقبة لمّدة اثنتين وسبعين ساعة، ومن بستان أشجار الصنوبر التي وصلت بارتفاعها للسماء تابعت عيناي إنشاً بإنش الرجل الممثّل للخطيئة بذاتها. في كل مرة قامت فيها يدي بتحريك اتجاه المنظار الثقيل كنت أرى مقدمة القارب تهتز. لن أدخل في تفاصيل

مكتبة الرمحي أحمد

السلوك الداعر للشرير سونير والعاهرات الشهوانيّات على الحافّة العليا للمركب (لا أخفي أنني شعرت ببعض التعاطف مع إحداهن، وهي التي لم تكن ترتدي نظارة شمسيّة، لأنها كانت تستغلّ كلّ فرصة تتاح لها لتقرأ كتاباً).

كان سونير الفاحش يصوّر بالفيديو مشاهد الحب الصريحة بين الفتاتين المغلوبتين على أمرهما، بينما أنا أمسك س في ٩٩ مع كاتم الصوت.

غطّت عيني اليسرى عدسة القناصة، حيث توحدّت البندقية وخادمكم المتواضع والأرض معاً في كتلة واحدة. حدّدت الهدف وأنا أصلي في سرّيّ، وبينما بدت ذراعيَ تزدادان طولاً وتصلان إلى داخل اليخت، أفرغت المخزن في رأس وصدر الصعلوك الذي لا يستحق الاحترام. رمت العاهرتان نفسيهما في البحر وهما تصرخان، وركضت أنا بشكل "زيكزاك" إلى الشاطئ، حيث تخلّصت من السلاح وقفزت إلى الأجمة بينما الأجزاء تغرق في البحر المظلم. وأنا أركض نحو ساحة البلدة، تذكّرت أنّ صهر صاحب إحدى وسائل الإعلام قد قُتل في نفس المكان العام الفائت. (تساءلت إذا كان القاتل، زميلي، قد اختبأ بنفس الطريقة.)

***

كنت واثقاً أن بايبورا المتبجّح سيسلمني الدفعة الأخيرة وهو يقول: "هل خطر لك يوماً مع كم ألف فتاة يمكنك أن تمارس الجنس بهذا

مكتبة الرمحي أحمد

المال؟" (حقيقةً إنَّ خادمكم المتواضع يرسل ثلث مكاسبه إلى مجتمع حماية الأعمال التاريخيّة في أوسكودار.)

بدأت، للمرة الأولى في حياتي، رحلةً طويلةً جداً. زرت المدن المفضّلة لدى السيد أحمد حمدي طانبينار (أنقرة، بوراس، قونية وأرضروم)، وبناءً على اقتراح ابن بطوطة أضفت إليها مدينة ألنايا التاريخية. وعندما رجعت كنت أشعر كما لو أنّي قمت بالحج إلى مكّة قبل أن أموت.

***

كان بايبورا ينتظر منّي أن أغادر أولاً عندما تنتهي لقاءاتنا في الحدائق المنعزلة، لذا كان من المستحيل بالنسبة لي أن ألحق به. لكنني في لقائنا الأخير أحضرت السائق، هوزاتلي فيلي، ليساعدني، كنت قد أنقذته سابقاً من ثلاثة متشدّدين دينياً هاجموه لأنّه قام بتدخين السجائر في رمضان. تبع فيلي، الأحول المختبئ في الظل، بايبورا إلى مقرّ قيادته في حي فيستكاجاشي في أوسكودار. من أماكن اللقاء التي اختارها بايبورا خمّنت أنه كان يعيش في الجانب الأناضولي. قرّرت أن أنشئ قاعدة في شارع مونجمباشي، الذي ليس فيه تراث عثماني ولحسن الحظ لا يتردّد عليه الناس الأغنياء الذين يتأنقون في ملابسهم كأفراد الطبقة الراقية أو اللصوص. مع أنّ لدينا العديد من الشوارع الرائعة التي تحمل أسماءً منسيّة، كنت أتألم لرؤية الشوارع المجاورة التي تحمل أسماء "يابما بيبيك" (بيبي دول) أو "شو

مكتبة الرمحي أحمد

ديبوزا" (مخزن مياه).

عرفت أنني لن أحبّ منزل بايبورا. بدت الواجهة كما لو أنها لم تُطلى منذ أن بُني، وفي الفناء الضيق كانت هناك شجرة أرز وسيّارة قديمة عبرتا الزمن معاً في انسجام؛ حالما عرفت اسمه الحقيقي لم أعتقد أنني قد أحتاج إلى البحث في حياته عن قرب. بينما كان فيلي ينتظر في سيارته المبهرجة عند نقطة المراقبة في أعلى التلة المجاورة لنيمات دوغهاوس، كنت أتذكّر أن أمّي لم تكن تقلي عجينة اللحم أبداً إلى درجة الاستواء الصحيحة. أمرت فيلي أن يغادر سيارته وكلّمت بايبورا على هاتفي الجوال.

أجابني قائلاً : ما الأمر يا زعيم؟ هل كنا نحتفل معاً في أحلامك أم ماذا؟

– اتّصل بي شابٌّ اسمه توفان على هذا الهاتف وسألني إن كنت أودّ الانضمام إلى عصابة جديدةً يؤسّسونها. سوف يدفعون ٥٠٠,٠٠٠ دولار كنفقات، وثلاثين بالمئة زيادة على الأجر. ربّما عليك أن تلتفّ على هذا؟

– آمل أنك تستطيع أن تسمع نفسك. وبِمَ أجبته يا بدرخان؟

– لم يكن عليّ أن أجيب بشيء. قال أنه سيتّصل بعد ثماني وأربعين ساعة ليحصل على الجواب. على أيّة حال كان يتحدّث كما لو أن عصابتكم قد انحلّت تماماً.

– وأين أنت الآن يا صديقي الشجاع؟

– في البيت.

– انتبه، ابقَ مكانك. سنلتقي في غضون ثلاث ساعات على الأقل.

مكتبة الرمحي أحمد

علمتُ أنّه سوف ينقل رسالتي المزعجة إلى الجلاّد وأنّها ستنفجر أمامه مثل قنبلة يدويّة. كان هدفي هو جعل بابيورا يشكّ في معلمه. عبرنا إلى الجانب الأوروبي، خلف سيارة الأودي الرمادية التي يتعامل معها بابيورا بشكل سيّئ مثل بغلٍ عجوزٍ مسكين. بعد أن صعدنا الضواحي وصلنا إلى تلال أرنافوتكوي. ركن بابيورا سيارته في شارع بيزاغول، الذي يتجه منحدراً نحو البوسفور، تحت راية مرفوعة، "الجسر المعلق الثالث: يا للهول، لا، كلا، لا..." ضحكت من طريقته المضحكة في القفز وظننت أنه قد يقع في أيّة لحظة. أرسلت فيلي وتبعت بابيورا وحدي.

شعرت كما لو أنّي في البيت في الشارع الهادئ، الساحر كما هي أماكن التسوق في الأفلام التركية القديمة العائدة للستينيات، الذي يذكّر بزمنٍ مضى عندما كانت الحياة بسيطة ومتأنيّة. بين لافتات التسوّق المتنافسة، كانت مطاعم الكباب هي الطاغية بشكل واضح. ولكن مع الاقتراب من الشاطئ كانت السمة الأناضولية للسوق تتراجع، وقد أغضبتني رؤية رجلٍ من البحر الأسود يتبختر قاصداً الفرن.

استدار بابيورا يميناً إلى شارع دوباراجي المقفر، الذي كان أجمل من حلم. فالزقاق الضيق كان يقود إلى أعلى التل وكان مزيناً بمنازل خشبية طويلة محافظة على هيئتها بشكلٍ جيّد، تطلّ شرفاتها على الشارع. ارتجفت وأنا أشعر بصعوبة وحدتي في هذا المكان، انتهى الطريق الصاعد عند واجهة ضيّقة لقصرٍ صغيرٍ مطليّة باللون الفيروزي. تلفّت بابيورا حوله قبل أن يضغط جرس الباب. دخل،

مكتبة الرمحي أحمد

دافعاً جانباً المرأة القوية التي فتحت الباب. (في ذهني أربعة احتمالات لشخص الجلاّد.) تفحصت والتر الخامس المخبّأ في سترتي ذات القلنسوة، ومنحت نفسي عشر دقائق لأخطّط للهجوم على القصر. انفتح الباب الأمامي، وخرجت الخادمة في معطفها العنّابي مسرعةً باتجاه الشارع الجانبيّ. هل كان الجلاد يفضّل لقاء مساعده وحيداً؟ اقتربت وجلست بهدوء منتظراً أن يفتح الباب وأتمكن من الوثوب إلى الداخل. بعد قليل، عندما اعتديت على القفل القديم المتعب بواسطة قطعة حادة، كما كان بايبورا ليفعل، وجدت نفسي في صالة واسعة. ووصلني صوت بايبورا الغاضب متسرّباً عبر شقٍّ في الباب الذي كان نصفه من الزجاج فأصغيت السمع بينما أنا أقترب.

"مدّع أم لا، كنت أخبرك على الدوام خلال السنوات الخمس الأخيرة أنّ عليك أن تتخلّص من هذا الأبله. فقط أعطني أمراً وأنا سأتخلص من هذا الشاذ السوداوي..." لم أستطع أن أصبر حتى ينهي جملته، اقتحمت الغرفة وأطلقت أربع رصاصات في رقبة هذا التابع الخسيس ورأسه القبيح، الذي لم أعرف اسمه الحقيقي خلال اثنتي عشرة سنة. ذهلت عندما رأيت الرجل المرتجف وراء المكتب العتيق والذي كان باقي قوطاي معلّمي القديم، الكولونيل المتقاعد مرمّم الكتب. بدأ يجهش بالبكاء. وكنت مرتبكاً فجلست في المقعد الذي كان بايبورا قد تركه خاوياً للتو منتظراً ما سيحدث.

كان إصبعي لا يزال على الزناد بينما أخذ يجفّف دموعه بكمّ سترته الأنيقة وبدأ يتنفس من أنفه.

تمالك نفسه وقال: "ليس الخوف هو ما جعلني أبكي يا بدرخان،

مكتبة الرمحي أحمد

إنّه الخجل. حتى إذا لم يكن لديك فضول لتعرف كيف انتهى الأمر بي هكذا، فأنا سأخبرك بأيّة حال. ومن ثم ستضع أنت نهايةً لألمي برصاصة واحدة، هل اتفقنا بني؟

"مع أنّهم يدعونني "الكولونيل"، إلا أنني في الحقيقة كنت رائداً في الجيش عندما طُردت منه. ماتت زوجتي بنزيف دماغي بينما كنّا في مناورة في البحر. أخبروني أنّها كانت لديها فرصة للحياة لو أنني كنت بجانبها، وعندما أصيبت ابنتي المعاقة، التي كانت متعلقة جداً بأمها، باكتئابٍ عميقٍ، بدأت أفقد عقلي تدريجيّاً.

سُرّحت من الجيش بسبب افتقادي للأهليّة. لم تطل مدة إحساسي بحريّة الاستمتاع بالكتب النادرة والموسيقا الصوفيّة حتّى وصلتني أخبار موت ابني ضابط البحرية في البحر. لقد كنت على الدوام معارضاً لمهنته هذه. صار عليّ حينها أن أكون قويّاً وأحارب لأجل حفيدتي، لقد شهدت بنفسك كيف أنّي لم أكن أستسلم حتى عندما توقفت يدي اليمنى عن العمل. لكن عندما سمعت أن دالغا، التي ربّيتها بعناية عندما كانت طفلة صغيرة، أصبحت عشيقة لأستاذٍ بعمر أبيها، استسلمت. طردتها مع أمها اللعوب ولجأت إلى الكحول. كانت زوجة البروفيسور عديم الأخلاق جارةً مقرّبةً لي. جاءت إلى منزلي بعد ثلاثة أشهر وهي تنتحب بمرارة. قالت إن دالغا قد عادت للعلاقة مع زوجها، وأنّنا يجب أن نجد طريقة لإنقاذ ابنها وحفيدتي على الأقلّ.

كانت تشعر بالغضب الممزوج بالكره وعندما قالت إنها مستعدة لدفع مليون دولار لتخلّص نفسها من مرسل للأبد، طلبت منها ثمانٍ

مكتبة الرمحي أحمد

وأربعين ساعة لأفكّر في ذلك.

الناس المولعون بالكتب والأمور الدنيوية لا يجدون أبداً أيّة مشكلة في خلق المبرّرات. ربّما كان اقتراح آدا إرجينكون هو فرصتي الأولى والأخيرة للتخلّص من سلسلة الحظوظ السيئة التي كانت تقضي علي. خطرت أنت وأمين، الذي تعرفه باسم بايبورا، في بالي. كنت دائماً أشعر أن شخصيّتك الانطوائيّة تخفي فيها قاتلاً طبيعياً بالفطرة وقد تكون هذه الصفة وراثيّة. كان أمين ابن عمّ زوجتي، رحمها الله، شرطيّاً لكنه أصيب بطلقٍ ناريٍّ خلال إحدى العمليّات ولم يعد يستطيع القيام بواجبات الشرطيّ البسيطة. كان شخصاً طموحاً وغير جدير بالثقة، وفيما كان ينتظر التقاعد كان يقوّي علاقاته مع مجتمع الجريمة والقوى الأمنية. أثناء بحثنا عنك سمعنا عن هجوم تارلا باشي وفُتحت شهيتنا. اشتريت هذا القصر من المالْ الذي حصلت عليه من جريمة قتل البرفيسور وقام أمين بفرشه بشكل مناسب. انتحرت هيل عندما علمت بالعمل القذر الذي تورّطتُ به، لكننا لم نرجع إلى صوابنا. بفضل أمك التي أنجبتك استطعت تحقيق بعض الأشياء التي لم أكن قادراً عليها بسبب افتقاري للمال. كان أمين، في السنوات الخمس الأخيرة، يحذّرني من أنّ علينا أن ننهي عملنا هذا، ولكن لو أني وافقت لكان عليّ أن أوقّع شهادة وفاتك أيضاً. صدّقني، لم أستطع أن أفعل هذا بك. وإلى جانب ذلك، فأنا لديّ فضولٌ لمعرفة أين سينتهي هذا كله.

وأنت كنت أذكى مما اعتقدنا يا بدرخان. لقد عشت حياةً من التقلّبات وبتُّ أشعر بالإرهاق. اليوم هو عيد ميلادي السابع

مكتبة الرمحي أحمد

والسبعين، وأيّاً كان عدد الرصاصات التي ستتركها كهديّة لي بني، أنا مستعدٌّ لها..."

حين أنهى كلامه قلت: "اسمعني يا سيدي. رغم أني كنت مدركاً، لسنوات، أنني كنت أتعامل مع واحد أو اثنين من الناس الأذكياء، فأنا لم أقم أبداً بأي رد فعل. لقد أخرجنا مسرحيّة من ثلاثة عشر فصلاً وأنا واثق بأنني قمت بالعمل الأكثر متعة. الشهر الماضي، عندما وصلت إلى عيد ميلادي السابع والثلاثين وفشلت في الاحتفال به، أقسمت أنني سأصل إليك في الفصل الأخير. على الرغم من الأربعين عاماً التي تفصل بيننا فأنا لا أشعر بأنّي أقل تعباً أو أقلّ ذنباً منك. يوجد في هذا المسدس الذي أضعه أمامك رصاصات كافية لكلينا. وأنا أعطيك الفرصة لتُخلّص هذا الكوكب من واحد أو اثنين من الطفيليّات القذرة..."

رفع المسدس بيده اليسرى وتحدث لنفسه برهةً من الزمن. هل حاول أن يضحك؟ عرفت عندما استدار وتوجّه نحو الباب أن معلمي اختار أن يحتفل بغيد ميلاده مع رصاصةٍ واحدة.

بدا كأنه كانت هناك حالة من الظلام الحالك في شارع دوباراجي. استدرت نحو شارع بيزاغول حيث كان هناك بائع سمك عجوزاً يعدّ منصّته.

"لقد اهتممت بالطفيليات، حان الوقت الآن لتصفية حسابك يا بدرخان"، قلت لنفسي وأنا أتّجه نزولاً نحو الشاطئ. كانت لديّ الشجاعة لأدرك أن هناك إعصاراً آخر من الإثارة يقود طريقي. غمرتني السعادة لفكرة أني أخوض مبارزةً مع نفسي.

مكتبة الرمحي أحمد

كنت سعيداً عندما تذكّرت لقائي بالسيد جورسل في الصباح التالي. كان أول ما عليّ فعله هو أن أسأله ما إذا كانت كلمة "سوداويّ" تعتبر إساءة أم لا. شعرت فجأةً كما لو أني لم أنم منذ اثنتي عشرة سنة. وجدت سيارة أجرة، معلّقاً على زجاجها الأمامي سبحات ضخمة تحمي من عين الشيطان، وعلى غطاء القماش الحامي لمقعد السائق مكتوبة الكلمات التالية: "أيها الشباب التركيّ! إن كنت من مشجعي فنر بخجة فافتخر، وإن لم تكن فاستسلم"

ليسامحني الله! لم يتمكن خادمكم الوضيع من منع نفسه عن الضحك.

للحصول على كتبنا قبل الجميع
بروابط تحميل مباشرة
تابعونا
على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد
facebook.com/ktabpdf
على تيليجرام
telegram @ktabpdf

– أ –

كان أبي يغتاظ من نُدُل المطاعم غير المؤهّلين الذين يتصرفون بكبرياء مصطنعة كما لو أن الزبائن قد يموتون جوعاً بدونهم، ومن أمناء المكتبات الذين لا يستطيعون القراءة لكنهم يبذلون ما بوسعهم لإرباك عشاق الكتب، ومن مقدّمي برامج مسابقات المعلومات العامّة الثرثارين الذين ينتفخون غروراً معتقدين أنهم آخر المثقّفين الباقين على سطح الأرض. بالنسبة لي، في هذه اللحظة، لا أستطيع تحمّل هؤلاء المضيفات ذوات المظهر المصطنع اللاتي يتزحلقن في الممر صعوداً وهبوطاً مثل النادلات المتكبّرات.

كانت مضيفة قسم "رجال الأعمال" تقدّم تحذيرات أمان الطيران بالطريقة العادية الكريهة نفسها. شاهدت الإيماءات التي كررتها ربّما آلاف المرات، إنه درسٌ هامٌّ لتفهم "كيف يمكن لشخص أن يكون مصرّاً جدّاً على أن يكون ناشزاً؟" شعرت بالارتياح للسيدة البدينة متوسطة العمر التي كانت في المقعد بجانبي، رغم أنّها كانت تمضغ اللبان. كانت ملفوفة مثل نابض مستعدّة للقفز من مقعدها في أي لحظة. كانت تتمتع بجاذبيّة تقع بين الجمال والقبح. بدت ببشرتها

مكتبة الرمحي أحمد

الداكنة وحاجبيها الكثيفين وكأنها ابنةٌ لرئيس قبيلة من تركيا الشرقيّة. لم أستطع أن أسألها إذا كان الرجل الكهل، الذي يغفو على المقعد إلى يمينها، زوجها أم لا، لكني استنتجت أنها كانت أميرة منحدرة من أسرة السلطان العثماني الخامس والثلاثين محمد رشاد. (كانت الساعة الإمبراطوريّة التي حملها جدّها الأكبر جزءاً من مجموعة عائلتنا.)

كنت قلقاً من إخبار خالي بما سمعته من دالغا. لقد اشتقت للرائحة الشبيهة باليود التي تفوح من شقّته المغلقة الضيقة في ماتشكا الفاخرة. فُوجئت برؤية صوراً لعراة إريك جيل[1] الخمس والعشرين على الطاولة المغطاة بالفورميكا في حجرة المعيشة المتكلفة خاصته. يجب أن يرضي الخال سلفادور حاجته للاستمناء كل أسبوع بمساعدة هذه الصور الجنسيّة التي كان عمرها يزيد على ستين سنة. أصغيت بصبر لملاحظاته حول ينابيع كنغال[2] قبل أن أتمكّن من التحدّث إليه. وصف لي كيف أن الأكزيما التي كانت تغطي كامل جسمه زالت في المياه الحارة بمساعدة مجموعات من الأسماك المجنونة التي لا يتجاوز طول أكبرها ١٠ سم.

هزّ رأسه مشمئزاً عندما سمع عن قصة الحب بين دالغا وأبي، حامداً الله أنه بقي عازباً. أما حول إمكانيّة أن تكون أمي قد استأجرت قاتلاً لتقتل أبي فقد قال: "هذا ليس مستحيلاً. ربّما كان هذا هو

١ إريك جيل (١٨٨٢–١٩٤٠): نحّات ونقّاش ومصمّم بريطاني شهير.

٢ ينابيع كنغال: ينابيع للمياه الحارة في تركيا، يُقال إن لها أثر في علاج الأمراض وخاصة مرض الصدفية.

مكتبة الرمحي أحمد

السبب في أن الإحساس بالذنب قد افترس آدا بعد وفاة صهري، بدلاً من الحزن. آردا، لو أنّ أمك ذهبت مباشرةً إلى الطبيب عندما شعرت بالألم في صدرها لما ماتت بالسرطان. لقد كانت تعاقب نفسها عقاباً قاتلاً بإخفاء مرضها ولم تكن تريدك أن تفهم أنّ هذا ما كانت تفعله"

عند حافة ألم الرأس، أغلقت عيني وضغطت جبيني المتعرّق بين يديّ. (هل يمكن لأيّ شيء أسمعه عن أمي أن يفاجئني؟) كان علي أن أبدأ بالبحث عن قاتل أبي مباشرة. لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت أشعر بإحساس سيّئ لأنّي أخفي هدفي عن خالي. ومع أنني أذكر أنه للمرة الأولى في حياتي كان عندي سبب لأشعر باحترامي لذاتي، إلا أني كنت خجلاً من أن قدري كان يقودني نحو فعلٍ انتقاميّ.

حين نهضت لأغادر بدأ خالي، السعيد كطفل في طريقه إلى مدينة الملاهي، يخبرني عن نيته القيام برحلة إلى المتاحف البعيدة التي تحوي رسومات إيل غريكو[1].

***

كانت أمي تبرّر عدم القدرة على التخلص من زياراته بأنه كان يحضر الكتب المثيرة للجدل. قمت بزيارتي الأولى والأخيرة إلى مكتب سلجوق ألتون البليد. عرفت أني عندما سأطلب منه المساعدة في الحصول على معلومات مفصّلة عن ملف قضيّة أبي فإنه سينظر إليّ تلك النظرة السريعة ويجعلني أشعر أنني صغير. رتّب لي موعداً في

١ إيل جريكو: رسّام إسباني من فترة عصر النهضة.

مكتبة الرمحي أحمد

اليوم التالي مع مديرة مجلة مصورة للثقافة والفنون، والتي إما أنّها تتملق الحزب الموجود في السلطة، عند الضرورة، أو تبتزه إذا لم يكن ذلك ضرورياً. ربّما تكون السيدة، التي تحمل اسماً غير تقليدي (إيز بوزوق) ذكرني باسم دالغا، قادرة على المساعدة بتعريفي إلى المراسل القانوني لصحيفة **التكتل**. وبينما كان يحدّثها عبر الهاتف قلّبت بين يديّ مجلة أدبيّة تحمل اسم **سيريندبيتي** من مجموعة المواد المطبوعة الموجودة على الطاولة المجاورة. (وبينما أنا أقرأ قواعد الانضمام إلى المسابقة الشعريّة التي تجريها المجلة، خطرت في بالي فكرة رائعة.)

في غضون خمسٍ وأربعين دقيقة، بدءاً من أذان المساء، قمت باختيار أبيات مفردة مرتّبة زمنيّاً من كتب أقطاي رفعت الخمسة عشر في الشعر المكتوب بين عامي ١٩٤٦ و١٩٨٧، وابتكرت القصيدة التالية، ولكن قمت أنا بوضع العنوان:

مسروق

في اضطراب حياتك
في خيالاتي الليلية وأفكاري اليومية
لا تسل أبداً ما هو هذا الأزرق
هناك رائحة بحر مالح في الهواء
مثل البيوت مثل الغرف البعيدة
الأبواب الوحيدة تبقى مسكينة
نختبئ في الظلال الأعمق،
عند النافذة، رأيت الوحدة في الأعماق
قماش أبيض على المنضدة، دلو نحاس، من ثمّ

مكتبة الرمحي أحمد

وجهك
الآن لا ماء متلألئ، لا ليل أخضر
كان القمر في سباق، حشرات الزيز تزقزق
البيوت فارغة، الضوء مطفأ، الشوارع فارغة
ليس قاسياً، ليس مؤذياً
يصبح البحر فجأةً قريباً
عندما أغلق عيني.

قرأت "مسروق" مرّتين وقرّرت أن أجرّب يدي في نسخة حرة من الهايكو أيضاً. من عناوين القصائد في كتب الشاعر الثلاثة الأخيرة، خاصةً **حديث مع الشمس، عارٍ ومهمل، والصيف العظيم**، وخلال عشر دقائق، كنت قد جمعت التالي:

ثلاث ثلاثيّات

I
شموعٌ وليل
سنّ إلى جانب السرير
ذهبت للنوم

II
خبر وصول القصيدة
رسائلٌ قديمة

مكتبة الرمحي أحمد

III

حديقةٌ وبحر
مستنقعٌ وسماء
أوراقٌ من جديد.

(أرسلت ما جمعته إلى منافسة سيريندیبتي. اعتقدت أن اسم رفعت أقطاي والعنوان الجذاب الذي التقطته من دليل الهاتف شارع أشرف سعد، أوسكودار، سيجلبان لي الحظ. عندما نُشرت النتائج بعد خمسة أسابيع فُوجئت لرؤية أني كنت الفائز الأول في كلتا المسابقتين الشعريتين. القصة القصيرة التي فازت بالجائزة التي قرأتها كانت قطعة شعرية بعنوان "أريد أن أكتب عندما أقرأ، أنا أقرأ عندما أعجز عن الكتابة" كنت واثقاً أن اسم سيما إتكين ذاك، الموجود في نهاية القصة، كان الاسم الأدبي للمرأة التي انتحرت لأنها لم تستطع أن تعيش مع ما كتبته. صُدمت عندما رأيت أنّ العنوان المعطى كان شقة مهجورة تقع حيث عاشت عائلة دالغا. ربما كان القدر يخبرني أنني قد أجد الكاتبة بدلاً من القاتل المأجور.)

***

نظر الحارس الفظّ في ميدان الشهبندر الصاخب إليّ نظرة العارف

مكتبة الرمحي أحمد

بالأشياء ووجّهني إلى الطابق السابع. حيث كان هناك وراء الباب المتأرجح مساحة بحجم بركة سباحة أولمبية مع دزينات من الشباب، معظمهم فتيات، يجرون في كل مكان بهلع. وكانت المساحة الأوسع المفصولة بواسطة الزجاج تعود إلى إيز بوزوق. عندما رأيتها تتكئ إلى الطاولة البيضويّة وتتحدث عبر الهاتف، تمهّلت في سيري، وتفحّصت بنظرة سريعة الوجه الداكن الطويل والعيون الكبيرة جداً للمرأة الشابة قصيرة الشعر ذات الجبين البارز. أدركت أنها رأتني وأنها كانت تلوّح لي لأدخل وهي تحمل مسطرة في يدها. بينما هي تنهض دون أن تقطع حديثها، اعتقدت أن سروالها المخملي الأزرق وكنزتها الحمراء بلون الدم كانا يناسبان جسمها الصغير. قدّمت لي تحية عسكرية وهي تضع المسطرة ثم تصافحنا وأشارت بيدها إلى الكرسي الأقرب إلى المكتب. همهمت شفتاها بعبارة "عذراً". كشفت النغمة المثيرة لصوتها عن أسلوبٍ حادّ ذكيّ، واعتقدت أن هذه الفتاة هي من النوع الذي كان أبي ليريده لي. حين لاحظت أنها بدأت تتفحّصني، ركّزتُ على اللوح الموجود وراءها والذي عُلّق عليه ملصق لمصارع سومو. حاولت جاهداً ألاّ أصغي إلى نهاية حديثها بإشغال نفسي بالشعارات الموجودة على الملصق الموجود فوق مكتبها: "أيّها المواطن، لا تتجاهل هؤلاء الذين يبصقون على الأرض – الذين يتجاهلون القانون – الذين يفسدون سلامنا وهدوءنا – الذين يظهرون شتى أنواع الازدراء. نحو مجتمع يحارب الازدراء"

(هنّأت عيناي الفتاة بوزوق لأنّها وبّخت الشخص، الذي فهمت

مكتبة الرمحي أحمد

أنه رسام، وبدا أنه غير راضٍ عن سحب الشريط لافتتاح معرض في صالة عامة، وكان يضغط عليها لترتّب له مقابلة في واحدة من مجلاتها.) سألتني وهي منتبهة إلى أنني لم أكن أدخّن: "هل ترغب بكوب من الشاي الأحمر كجائزة؟" وكنت مستعدّاً لتلقي سؤالها: "هل يزعجك أن أسأل لماذا انتظرت اثنتي عشرة سنة قبل أن تفتش في ملف اغتيال أبيك؟"

– إذا استطعت، أريد أن أكتب، أو أن أطلب من أحدهم أن يكتب، سيرة أبي الذاتيّة. عندما كانت أمي حيّة لم يكن لديّ ما يكفي من الشجاعة لإلقاء نظرة طويلة على الجزء السري من القضيّة. فقدت أمّي مؤخراً وأردت أن أتكلم مع الشرطة قبل أن يخفّ حماسي للمشروع.

– أنا آسفة جداً لما جرى لأبيك، يبدو أنه كان إنساناً مذهلاً. لم يكن مجرد باحث عظيم فحسب، وإنما مقالاته خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته حول تقدمنا وظروفنا الاقتصادية الاجتماعية صوّرت حال البلد بأفضل شكل. سمعت أن بعض البرامج التلفزيونية التي ظهر فيها أصبحت تُستخدم الآن كمادة تدريسيّة في كليات الجامعة في مجال الاتصالات. لقد كان متنبئاً بالتأكيد...

بعد مزيج المشاعر المتناقضة من الفخر والإذلال، كنت مقتنعاً أنه لو شاء القدر وجمع هذه الفتاة بأبي لكانت أغرمت به من النظرة الأولى. تبادلنا موجزات عن حياتينا ونحن ننهي تناول الشراب الخالي من الطعم. (لقد أُعجبت بحقيقة أنني لا أريد أن أصبح مادة لعدسات المصورين.)

دسّت قطعة من الورق في يدي كما لو أنها كانت تعطيني بقشيشاً،

مكتبة الرمحي أحمد

وفهمت هذا على أنه كان إشارة إلى أنّ لقاءنا الأول قد شارف على النهاية. قطعة الورق الأصفر التي بحجم بطاقة زيارة كانت تحمل عنوان نادي رماية في ألتونزيد، وهو يعود إلى المفوض الرئيسي المتقاعد في الشرطة، عادل كاسناك... شعرت بالقلق عندما سمعت أنه يتوقّع رؤيتي في مكتبه بعد صلاة الجمعة للحديث في مؤامرة اغتيال مرسل أرجينكون. *مكتبة الرمحي أحمد*

رافقتني إيز بوزوق إلى الباب الرئيسي. وبينما كنا واقفين قرب اللوحة التي تحمل اسم المجلة، قالت بلهجة استنكارية:

– لسوء الحظ نحن لا نصدر أي مجلة تناسب قدراتك.

فسألتها:

– هل لديكم منشورات أخرى، غير المجلات الهجائيّة؟

لاحظت ونحن نغادر مكتبها أنها كانت ترتدي صندلاً سخيفاً يحمل شعار فنر بخجة (كانت أمي سترتاع لرؤيته) ومن ثم قررت أني، بأي طريقة استطعت، سأكسب هذه الفتاة المبتهجة التي شعرت أنني كنت صديقاً لها منذ عشر سنوات.

– يمكننا أن نلتقي مرّة ثانية بعد أن تلتقي المفوض الرئيس. لا تتأخّر في الاتصال.

(في الواقع أردت أن أقول: هل يمكنني أن أدعوكِ إلى المنزل لمناقشة نتائج اللقاء الرسمي مع الشرطة وأطلعكِ على مكتبة أبي؟) لكن وبينما أنا أراقبها بحمق وهي تحكّ ركبتها بنعومة، سمعت نفسي أدمدم: شكراً لاهتمامك.

كنت أقرأ التعليمات ("استعد! حدّد الهدف! أطلق!") وأنا

مكتبة الرمحي أحمد

مندهش كما لو أني وصلت إلى سجن "أبو غريب" كان نادي الرماية المهدّم متضرّراً كمخفرٍ مهجورة. اقتربت بفضول من الغرفة التي كان يصدر من بابها نصف المفتوح صوت موسيقا. كان عادل كاسناك، الجالس خلف الطاولة القاسية الموجودة قرب الجدار، عبارة عن كتلة ضخمة لرجل يُذكّر بأنتوني كوين، وكان جسده قد خرج من الكرسي وبدا أنه يستريح على المنضدة. دعاني إليه ويده اليسرى تلوّح بسبحة الصلاة الكهرمانيّة. كانت الملصقات المبهرة مبعثرة على طاولة القهوة الزجاجية قرب الكرسي حيث جلست. وراء كاسناك كان هناك رسم لأتاتورك وهو يبتسم مرتدياً معطفاً من الفراء. (شعرت أني بدأت أتعرّق.) استجوبني حول حياتي بلغة تركية مفخمة، بينما كانت عيناه تتفحصانني وهو يبتسم. قدمت له شرحاً حول الأسباب التي دفعتني للتفتيش في ملف أبي. تباطأ عدّه للسبحة، تنهّد بانزعاج، استرخى جسده، وبدأ يلفظ كل كلمة على حدة كما يفعل العديد ممن هم في موقع المسؤوليّة.

"كانت قد مضت علي مدة قصيرة كنت فيها مراقباً مجنّداً في مكتب البحث الجنائي عندما قتل البروفسور مرسل. تابعت التقدّم في قضيّته حتى تقاعدت، حتى إنّي أذكر رقمها. تمّ التخطيط للمؤامرة من قبل أناسٍ محترفين. لقد استغلوا الوقت والمكان المناسبين. كان المكان معزولاً ولكنه كان بالقرب من شارع رئيسيّ، ولم يتركوا وراءهم ولا دليل واحد على فوارغ القذائف ليتم تتبّعها. والدك، الذي قُتل أمام جامع باشا محمد رومي، كان غالباً ما يسير مسرعاً عبر الشوارع المكتظة بالناس في الجوار. وجدنا أن قيام والدك الراحل

مكتبة الرمحي أحمد

بجولات عبر الشوارع الفرعية المظلمة في أوسكودار الهادئة أمر غريب. رفضت أمك بقوة إمكانية وجود علاقة عاطفيّة وادّعت أن والدك كان يبحث في دراساته حتى عن المواقع الغريبة. ليسامحني الله، ولكنها كانت امرأة عدائيّة جدّاً، لقد أكدّت بإصرار على أن زوجها كان يتعرّض للتهديد بالقتل من قبل عصابة من المتشددين الذين نفّذوا الأمر بالفعل. وحسب أقوالها، فإن والدك لم يأخذ الأمر على محمل الجد بشكلٍ يكفي ليبلغ الشرطة...

لم يُذكَر اسم العصابة المزعومة التي قامت بالعمل، والتي نسيت اسمها، مرة ثانية أبداً. لكن حدسي يخبرني أن الحادثة لم تكن من عمل عصابة.

أتساءل ما إذا كانت روح والدك تطاردك في نومك لأن موته لا يزال كزوجٍ من معادلاته غير المحلولة. لكني واثق من شيء واحد هو أنك شخصيّاً تريد أن تجد قاتله.

وإذا صادفت قاتله فأنا متأكد تماماً أنك لن تعرف ما عليك فعله. لا تعتبر ذلك إساءة، ولكنك تبدو قلقاً فيما أنت تجلس هناك وتسمعني. لا يبدو عليك أنك مثل شباب هذا البلد! أنت تبدو كشخص عاش في كبسولة الزمن حتى بلغ العشرين من عمره. أراهن أنك استخدمت سياسة الاستثناء ودفعت المال لتؤجّل الخدمة العسكريّة وأنت لم تتعامل أبداً حتى مع لعبة مسدس. هل اشتركت يوماً في قتال شوارع عندما كنتَ صغيراً؟ أو هل ركلت خصمك في لعبة كرة قدم يا إرجينكون الشهير؟

صدقني، بنيّ، ليس هناك دليلٌ واحد في ملف أبيك لتتبّعه. إنّها

مكتبة الرمحي أحمد

مجرّد فرضيّات أنا وضعتها، لكن اقبل مني نصيحة من شاب من البحر الأسود: كلما كبرت هذه المدينة، اسطنبول، كلما أصبح الريف الفقير أفقر. ولهذا السبب فإنك تجد دائماً الأشخاص الثلاثمئة الذين يشاركون في الاحتفالات الرسميّة والحفلات الموسيقيّة والمعارض الهامّة، تجدهم، هم أنفسهم، في أفضل المطاعم وأماكن التسلية. أتساءل فيما إذا كان عالم الجريمة في المدينة أعمق وأكثر فساداً مما نظن. إذا اجتمع خمسة أشخاص ليكتشفوا أنك تبحث عن قاتل أبيك، فإنهم سوف يتحمّسون لجعل الآخرين يعرفون، وبذلك فالرقم سيتضاعف خلال خمس دقائق. كن واثقاً أنّ الشخص الثاني سوف يضخّم القصّة وينقلها مباشرةً إلى عشرين شخصاً آخرين. إذا كان القاتل أو منظمته ما زالوا يعملون، فإنهم سيسمعون الأخبار أسرع من أيّ وكالة أنباء يمكن أن تبثّه. إذا فكّرت في الشائعة وما تفعله في سوق المصارف وعالم الإعلام، فستجد أن إمكانيّة فرضيتي تزداد. بنيّ، قد تعود إلى قصرك في مساء ما بمزاج جيّد، لتجد أن هناك وغداً ما يحمل كلاشينكوف ويقبع بانتظارك.

أوصيك بقوّة بأن تجعل المسدس صديقك. يقاتل المثقّف قتالاً ضعيفاً لكنّه رام ماهر. إذا كنت قد حصلت على أقلّ درجة من المعرفة العلميّة من أبيكَ فأنت خلال أربعة أشهر من التدريب في نادينا ستكون قادراً إلى الوصول إلى مستوى أحد أمهر رماتنا، وستجد أنك حصلت على الثّقة بالنفس وتعلّمت في النهاية كيف ترمي دون تفكير، مثل فيلسوف زنّي. أخيراً، بني، صداقة المسدسات أقلّ خطراً من صداقة النساء.

نحن نتقاضى ٢٤٠ دولار شهرياً لقاء ثلاثة دروس في الأسبوع.

مكتبة الرمحي أحمد

وإذا لم تطلب إيصالاً ستحصل على ١٠% تخفيض ولن يكون عليك أن تدفع ضريبة"

أخذت بطاقة الزيارة ذات الحواف المهترئة متسائلاً ما إذا كان قد استخدمها لتنظيف أسنانه، وتمتمت أنني سأتّصل به في أقرب فرصة. استقللت سيارة أجرة من أمام جامع ألتونزيد متّجهاً إلى البيت، حيث راجعت خريطة المدينة. إنها تتضمن ٤٨٠٠٠ شارع فرعي ورئيسي. ولم يفاجئني أن أجد أن شارع أشرف سعد، العنوان الذي صادف أني اخترته لأجل المسابقة من دليل الهاتف، كان الشارع المجاور للجامع حيث اغتيل أبي. هل كان هذا مصيبة أم هو اقترابٌ من النجاة مثل وباءٍ بطيء؟ صُدمت لكني لم أخف على الإطلاق. ولكي أشفي مما شعرت به، قرأت ت. س. إليوت وو. هـ. أودن.

***

عندما استيقظت دون اكتئاب شعرت بنوعٍ من الذنب. وحين تذكّرت أنّنا كنّا في صباح الخميس، فقد قلّمتُ أظافري. حسب ما تقول إفاكت، أن تقصّ أظافرك يوم الاثنين يعني أنك قد تعاني الآلام، وفي يوم الثلاثاء يعني أن طفلك سيموت، وفي يوم الأربعاء يعني أنك ستسمع أخباراً سيّئة قريباً، وأمّا أن تقص أظافرك في الليل فإنّ هذا يقصّر عمرك. أنا لا أؤمن بالخرافات، دقّ على الخشب، ولكن لنفترض أن إفاكت كانت على حقٍّ لمرّة واحدة؟

استمتعت بمفاجأة السائق القديم خير الله عندما دعوته إلى زيارة

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبنا الرئيسي. بغضّ النظر عن لقاءات مجلس الإدارة، التي كنت أحضرها أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، فأنا لم أكن مشتركاً في أعمال الإدارة بشكل يومي. اليوم كان لديّ لقاء شخصي مع مصرفيّين من هارفرد (كان الحديث يدور حول المنطق الرمزي للسوق العالمية الذي يدفع لوضع ثلاث راقصات باليه أوكرانيات على المسرح). أجريت بعدها مكالمة هاتفية مع إيز بوزوق. دقّ قلبي بسرعة عندما سمعت صوتها الشادي وهي تقول: "لقد أثرت غرائزي الصحفيّة. كنت سأكلّمك غداً بأيّة حال" استجمعت شجاعتي ودعوتها إلى إسكيلي، مطعم عائلتنا، لعشاء السبت، وبدأت أضحك عندما أجابت: "ستريني بعدها كتب أبيك بدلاً من مجموعة طوابعه؟" فكّرت في نفسي أنه إذا سمعتها دالغا فإنها ستعلّق قائلةً: "عزيزي أردا، هذه الفتاة بالتأكيد سوف تسلّمك نفسها في أوّل فرصة"

تجشّأ المفوّض الرئيس كاسناك بقوة حالما التقط الهاتف، ثم صمت لفترة ينتظرني أن أقول: "أستميحك عذراً" أخبرته أنني كنت أرغب في الانتساب إلى نادي الرماية في نهاية حزيران/ يونيو، و"نعم" أنا أريد إيصالاً، و"لا" لم أقم بأيّ بحث عن قاتل أبي.

(أنا نفسي لا أعلم ممَّ كنت أهرب، وأنا أخفي عن نفسي تماماً عمّا أبحث عنه.)

***

كنت أعلم كيف سيشعر الخدم في مطعم إسكيلي عندما يرونني هناك

مكتبة الرمحي أحمد

مع امرأة، لكني لم أتوقع منهم أن يكونوا مجاملين في تعاملهم لترك انطباع لدى صديقتي. بدأت أخبرها قصتي مستعيناً باحتساء النبيذ الأبيض، وفي داخلي فضول لمعرفة ما قد يكون موقفها تجاهي. رويت لها تفاصيل حياتي الروحية لكن الحالية فقط، ومن كل أحداثها التي بدا أنها تشبه قصّة بوليسية حذفتُ بشكل كامل المقطع المتعلّق بخسارتي حبّي الأوّل لصالح أبي. استرخيت بينما كنت أتكلّم، وقد أصغت إيز بعينين مفتوحتين.

أذكر كلماتها عندما انتهيت: "الحياة لا تميّز بين الحقيقة والخيال، الأطفال هم من يدفعون ثمن الصراع بين شخصين ذكيين".

بينما كنت أدفع الفاتورة انتبهت إلى جيل التي كانت على بعد ثلاث طاولات تتهامس مع صديقاتها المغرورات. (هل ترنّ أذناك يا عادل كاسناك، معلمي المستقبلي؟) لاحظت إيز أن تعابير وجهي قد تغيّرت.

– ما الأمر، هل ضاعفوا الفاتورة بدلاً من جمعها؟ قالت مازحةً.

– في هذه الحالة ستكون المشكلة في الرياضيات. لن تصدّقي هذا ولكن على بعد خطوات قليلة فقط تجلس خطيبتي السابقة...

– اممم، موقفٌ سينمائيّ... يمكنني أن أساعدك بطريقتين. يمكنني أن أصلّي لأجلك، أو أن أمسك يدك وبهذا لن تشعر بالإهانة عندما تعبر أمام طاولتها.

– في الواقع أنا بحاجة لكلا الأمرين.

قلت ذلك وأنا أمسك يدها اليسرى، متجهاً نحو الخارج وأنا أصلّي بصمت، موجّهاً انتباهي إلى الأسماك التي لا تزال مكشّرة في

مكتبة الرمحي أحمد

اللوحة الجداريّة بعد مرور خمسة عشر عاماً. بفضل برودة الربيع تمسّكت بإحكام أكبر بيد إيز ومشينا على طول شارع جينغلكوي مثل حبيبين محرَجين حتى وصلنا إلى خير الله النائم في سيارته القديمة.

أحضرت إفاكت القهوة في اللحظة غير المناسبة بخلاف عادتها مع الضيوف، وعندما أخذت إيز في جولة سريعة في القصر كانت عصبيّة مثل ضابط يصحب مرؤوسيه في جولة تفتيش في المهجع. كانت ملاحظة ضيفتنا الوحيدة هي: "هل سيكون من غير اللائق أن أقول أنّ المكان فيه مناخ منزل مسكون بالجن أو معرض لمجموعة أنيقة من المجسمات الفنيّة؟"

تراجعت بسرعة، حين كنّا في المكتبة، وسحبت يدي التي كانت تمتد نحو مجموعة ألحان أبي الموسيقية. (خوفاً من أنها قد تغرم بروحه وسحبت بدلاً منها القرص المضغوط لرينيه فليمنغ[1] حيث اكتشفت لأول مرة "أغنيات علّمتني إياها أمي".)

قرأتْ بصوتٍ عالٍ ملاحظة كان أبي قد كتبها في كتاب يحمل إسم Hittite glossary **المعجم الحثي**، وقالت:

– سأجنّ إذا لم أتمكّن من قراءة شيء ما من هذه المكتبة.

أخرجت مفكرة من حقيبة كتفها، المطرزة برسوم العصافير، واكتفيت أنا بمراقبة ضيفتي النشيطة بينما هي تسجّل قائمة بأسماء المخطوطات النادرة والكتب التي تعود إلى فترة أقدم من اختراع الطباعة. لم يكن في وجهها ذاك الجمال الذي يخلب الألباب لكنّ

١ رينيه فيلمنغ: مغنية أوبرا عالميّة.

مكتبة الرمحي أحمد

وجهها كان مضاءً بنورٍ داخليّ، وكان في شخصيّتها القوية وأسلوبها العابث ما يكفي لترمي بتعويذتها علي.

شعرت بالسعادة حين أخبرتني أنها ترغب بالعودة صباح الاثنين مع مصوّر لتقوم بجمع المادة الأدبية لمقالٍ تخطّط لكتابته.

قرّرت الانصراف في وقتٍ أبكر مما توقعت. وبينما كانت تغادر قالت:

– كان فعلاً مساءً مثيراً وأنا على الأقل لم أشعر بالحرج كوني وحيدةً مع رجل.

عندما دعاها خير الله لدخول سيارته الأجرة، انتبهت إلى أنّني، لكي لا أبدو متطفلاً، لم أسألها حتى عن مكان إقامتها.

بعد أن غادرت إيز، قالت إفاكت:

– أردا، لديّ إحساسٌ يقول إن هذه الفتاة اللطيفة ستحضر بعض اللون إلى هذا المكان.

قررت التهرّب من الإجابة تماماً، فقلت:

– ألا تعلمين أنْ ليس لي نصيب من السعادة في هذا العالم؟

ذهبت إلى السرير بصمت مع كتاب يحمل اسم **محادثات مع شجرة البشملة المتوسطيّة**[1]، الذي فيه افتخر حكمت بيراند أن حبه لهذه الشجرة النادرة لا يوصف:

> على قمة جبل تشال خلف ديكمن تنمو شجرة بشملة متوسطيّة. شجرة تُعلّق على أغصانها اليابسة تعويذات البسطاء مع رغباتهم مع قطع قماش التضرعات الخضراء

١ شجرة البشملة: نبات متوسطي يعرف محليّاً باسم "اكي دنيا"

مكتبة الرمحي أحمد

والحمراء الباهتة. إني أحبّ تلك الشجرة.

أربكتني رياح الصحراء التي هبّت عبر الكلمات. (وللزواج بايز فوق جبل تشال مع حكمت بيراند وشجرة البشملة كشهود، والقفز مستيقظاً مع أذان الظهيرة الذي ينتشر من جوامع المدينة.) لم أنهض حتى أنهيت الكتاب. كان لديّ فضول لمعرفة في أيّة سنة فقدنا هذا الكاتب الريفي. يجب أن أجد سلجوق ألتون من جديد. لقد قدّم الكتاب لأبي هديّة في ذات الشهر الذي قُتل فيه.

أجابني سلجوق ألتون بسخرية: "بما أنك تسألني بدلاً من أن تبحث عبر الإنترنت، فمن الواضح أنك تريد أن تعرف حول حكمت بيراند أكثر من تاريخ موته في ١٩٧٢. لقد كان صديقاً مقرباً من الناقد الشهير نور الله أتاش وكان أيضاً خال والد زوجتي."

أقسمت أنْ لا أكلّم هذا الرجل المغرور ثانية.

فتحت باب الشرفة القديم، وألقيت نظرة سريعة على الحديقة لأرى إن كانت جاهزة لجولة إيز التفتيشيّة في الصباح التالي، فربما خرجت إلى هنا، ولكني مرة أخرى نسيت أن أرحّب ببساط الربيع الأخضر. (للمرة الأولى في حياتي أشعر أنّ الحديقة الغريبة، التي كانت أمي ترويها حتى وقت هطول المطر، أصبحت محطّ ثقتي.) نزلت إلى الحديقة مع هبوب نسيم خفيف حمل رائحة شجر الزيتون البري المليئة بالأسرار إلى أنفي. وصلت الرائحة منتقلةً على الأشجار فرعاً فرعاً، كالأمواج المتكسّرة التي يقودها نسيم البحر البعيد إلى الشاطئ. كان أبي يرى أنّ شجرة بريسمون يابانية جبارة كافية وحدها لتخريب حديقة، وكان يرى أن مناخ هذه الحديقة المصانة جيداً

مكتبة الرمحي أحمد

مصطنع، لذا اعتدنا السير معاً إلى جادة ألمداغ لتنشّق الربيع.

اكتفيت بتناول كوبٍ من عصير الكريفون على مائدة الفطور، وخرجت إلى الشارع المجاور. عبرت الشارع الذي فيه بائع كعك مالح، وأنا أقول له: "إذا لم تسأل كم ليرة يساوي الدولار سأشتري منك كعكة"، وانعطفت نحو ألمداغ. (مع أول قضمة سقطت الكعكة أرضاً وتخيّلت أمي توبّخني على ذلك من السماء.) هل كان عليّ أن أسرع في سيري؟ كانت كل خطوة تعيدني للوراء اثنتي عشرة سنة، شهراً بشهر، زاويةً زاوية. كلما زادت زحمة السير كانت رائحة شجر الزيتون البري تغلب على الرائحة الغريبة جداً التي تفوح في الشارع. كان أبي يحب جراة الأعشاب والأزهار التي لا أسماء لها والتي تتكاثر بعناقها للجدار العتيق، وكان يرى أنها مثل: "دواء في نفق الزمن". دخلت إلى حديقة من الحطام، وهي ميراث لشخص مخادع هرب إلى بوينس آيرس. خلف الحديقة كان هناك جدار عليه كتابات تعود إلى الستينيات، كان أبي يقول عنه: "رغم أنه لا يبعث على الضحك، إلا أنني أشعر برغبة في ذلك عند رؤيته"

جلست في ظل شجرة خوخ قزمي قرب بئر جافة كانت ترعبني في طفولتي، ومع صوت أذان الظهيرة غفوت.

***

اعتقدت على الدوام أن حي كوزجونتشوك القديم، حيث احتمى اللاجئون العثمانيون الهاربون من البلقان، كان حيّاً هادئاً. ولو

مكتبة الرمحي أحمد

أن أبي سار على طول شارع إيكاداي الذي يقود إلى البحر لكان سيقول: "لهذا السوق مناخ قروي مع أكشاكه التي تشبه الصناديق والتي تتفرع عن محور مركزي". لم أجد صعوبة في إيجاد شارع بيركتلي الذي يقود إلى الشارع الرئيسي، وبينما أنا أمشي بين المنازل الخشبية الجذابة شعرت بالإثارة كما لو أني كنت تائهاً في مدينة صغيرة. كنت أحمل باقة أزهارٍ، لا أعرف ما نوعها، وعلبة صغيرة من حلوى عجينة اللوز ابتاعتها إفاكت خصيصاً لإيز. صعدت الأدراج إلى الطابق الثالث في المبنى المعروف باسم "انشراح"، وقد عرفت أنني كنت على وشك أن أتعرّف إلى معنى ذلك الاسم.

فتحت إيز الباب، وهي ترتدي قفازات المطبخ، وقالت: "أهلاً وسهلاً في مبنى الراحة الروحيّة". بدا من السجادة المزخرفة هندسيّاً، ومن الرسم الذي لا يحمل رموزاً مع الخريطة التي تحمل توقيع ورثة هومان[1] على الجدار، أن الطريقة التي يتقاسم بها الناس هذا المنزل تجعلهم يقفون إلى جانب بعضهم بعضاً في المواقف الصعبة. تعرّفت إلى زهال التي ترتدي نظارات جون لينون[2] وتعمل محررة في قسم "حياة المدينة" في مجلة منافسة، وتعلّق بفخر الخريطة النادرة التي تحوي مسقط رأسها تريبولي[3] على الجدار. بينما كانت مضيفتيّ تحضّران الفطائر المحلاة اللذيذة في المطبخ، حدّثني ظافر، صديق

---

١ يوهان هومان (١٦٦٤–١٧٢٤): جغرافي ألماني رسم خرائط للقارتين الأميركيتين.

٢ جون لينون: (١٩٤٠–١٩٨٠): مغنٍّ وشاعر وعازف غيتار لفرقة البيتلز، ولد في إنكلترا وعاش في أميركا.

٣ تريبولي: مدينة يونانية.

مكتبة الرمحي أحمد

زهال الأسمر ذو الشعره الدهني المتدلي على جانبي رأسه، والذي بدا صغيراً جداً بالنسبة لجسده ذي الشكل المربع، عن الشهادات التي يحملها في الاقتصاد وعلم الاجتماع والتي حصل عليها من جامعة صغيرة في فلوريدا. شعرت بالراحة لهذا الرفيق الذي كان يدرّس علم الاجتماع في الجامعة الحكوميّة ويدعم دخله من أجرة مخزنين ورثهما عن عمّته.

اعتدت أحياناً أن أحدّق مثل دبّ الباندا في حديقة الحيوان، بسبب صفاتي التي تشبه الفايكنغ. كنت مرتبكاً وأنا أرى الثلاثة يراقبونني مع كل قضمة أقضمها، وانتهى بي الأمر بأن أسكب كأس النبيذ أمامي. لاحظت أن إيز كانت سعيدة لأنها وجدت طريقة تواسيني بها. كان ظافر مشغولاً بالحديث عن صديقته التي تكرّس نفسها للمطالعة، لكنها لم تقرأ أي شيء بعد دستويفسكي، متلذذاً بإحراج زهال. (تذكرت تعاطف أبي مع رفض سلجوق ألتون، الكريه، أن يقرأ أي رواية قبل كافكا.) قبل أن يغادر السيد والسيدة "زاي" للقيام بزيارة عمّة ظافر المريضة، مالت زهال عليّ وهمست في أذني: "نحن ذاهبان فقط لتقديم الطاعة، صهري."

أستغرب أن تكون هذه الكلمات هي ما سبّب لي حالة الانتصاب.

عندما انتهت الأغنية الفلكلورية المزعجة التي كانت تملأ المكان، أحضرت إيز مسودة للمقال التي كانت قد أعدّتها حول أبي ومكتبته. وبعد أن أعدت قراءة المقطع الرابع، الذي كان يتحدث عن مقدرته على مضاعفة أرقام مؤلفة من خمسة أعداد في رأسه بسرعة الحاسوب، لم أستطع أن أمنع نفسي من مضاعفة رقمين مؤلفين من

مكتبة الرمحي أحمد

ستة أعداد في رأسي، ثلاث مرات بالتسلسل، واستخدمت آلة حاسبة من نوع سيتيزن عالية الدقة كحكم. كانت دهشتها أكبر مما توقّعت. مدفوعاً بهتافات دالغا التشجيعيّة آتية من أعالي الغيم، قبّلتُ شفتي إيز.

***

كتب أبي على الصفحة الأولى لسيرة ميلينا ميركوري[1] الذاتية: "احذر اليوم الذي يفشل فيه الحنين الموجود في جملة موسيقية وفي الحكمة القديمة وبيت الشعر الغنائي في إشعال بهجة الحياة" كنت قد شطبتِ الملاحظة عندما كنا نأخذ أمي إلى المستشفى وأضفت: "ليس هناك مشكلة إذا كانت أدا إرجينكون هي الإطفائي الرئيسي في حياتك!" كان عليّ أن أهيّئ نفسي لوابلٍ من التعليقات الحادة قبل أن تتصل إيز، التي لا يفوتها شيء. اعتدنا على اللقاء ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، أو أننا كنا نتحدّث هاتفيّاً مرتين في اليوم. لمست في سباقاتنا الطويلة عبر الشوارع الخلفية لأحياء بيوغلو وأسكودار، التي تعود للقرون الوسطى، كم كانت بصدق تحب هؤلاء الأطفال الذين لوّحتهم الشمس. أعتقد أنها كانت تشتري بطاقات اليانصيب فقط كي تقول للباعة الجوالين، الذين يحتلون عادةً الزوايا الظليلة أكثر في الحدائق العامة: "هل يمكنني أن أدفع عندما أربح؟" كنا نتناول الطعام في حافلات الطعام المتنقلة والمطاعم الموجودة في الطوابق

١ ميلينا ميركوري: ولدت في أثينا، اليونان، ١٩٢٠. من أقدم الناشطات النسائيات، انتخبت لعضوية البرلمان اليوناني قبل أن تصبح أول امرأة تشغل منصب وزيرة ثقافة في الحكومة اليونانية.

مكتبة الرمحي أحمد

الأرضية للفنادق، ونثرثر طول الوقت. قد يظن أيّ شخص يرانا أنني أجبر هذه الفتاة على التحدّث طول الوقت كعلاج لها. (معاذ الله!) كان الأمر معكوساً، فقد كنت أنا من يشعر بالراحة عندما تتحدّث. كنت أصغي إليها بشغف كشخص تحمّل عقداً من الوحدة والاشتياق في جزيرة معزولة، أو كشخص يصغي بعاطفة للحنٍ جديد. كانت تستمتع بإرباكي عندما تميل لطلب سيجارة من المنضدة المجاورة، أو عندما تضع قهوتها التركية في فنجان الشاي. كان قلبي يرتاح عندما أتجرّأ على النظر في عينيها الداكنتين، لكني كنت منتبهاً على الدوام من أن يضعف مبعث ذاك النور الذي يشعّ من عينيها.

على الرغم من أني كنت أصغرها بسبعة شهورٍ فقط، إلا أنني كنت سعيداً لأنها كانت تعاملني كأنها شقيقتي الكبرى، فهمت أنها كانت تحاول أن تنتبه إليّ مفترضةً أنني أجد من الصعب التعامل مع صعوبات الحياة. (لم يكن سهلاً أن أتخلص من حالة الارتياب الوسواسي التي جعلتني أشعر أنّ هذا الملاك الحارس الذي يمثّل حالة وسطى بين أمي ودالغا، اللتين خسرتهما، كان يختبرني.) عندما خرجنا لتناول الطعام مع أصدقائها، كانت تنظر إليّ من زاوية عينها بينما هي تتحدّث للآخرين، وقد جعلني ذلك أشعر بالارتباك. كانت لايز مجموعة مميزة من الأصدقاء الذين يعاملونها كقائد. كان معظمهم يعمل في مجالات لا تحقق لهم رغباتهم الفعلية التي لا يهتم أحدٌ لها. عرفت أن جمهور هارفرد سيتّهمني بأني مرتد لمرافقتي هذا المزيج الذي يضم شاعراً (مترجماً) ورسّاماً (مدرّس لغات أجنبية) ودارساً لتاريخ الفن (دليلاً سياحياً) ومخرجاً مسرحياً مساعداً (يعمل

مكتبة الرمحي أحمد

في صوتيات الأفلام) ومصمّماً لأداوات صناعية (مصحّح مطبعي)، إضافةً إلى الذين وجدوا أنفسهم يعملون في مجال الإعلام دون أن تكون لديهم ثقافة التواصل.

كانت إيز تمضي وقتها في المقاهي المشبوهة والحانات التي تقدّم المشروبات الروحيّة في حي بيوغلو وشارع بغداد، برفقة أشباه المثقفين الذين كانوا يسخرون من أبسط الأخطاء التي يرتكبها الآخرون. كنت أشعر بالتعاطف مع التوأم الحقيقي بيستي وجوفتي، وهما عازفتا فلوت وتشيللو تخرّجتا من المعهد الموسيقي بدرجة شرف. ورغم أنهما غالباً ما كانتا تستفزانني، فقد كنت أشعر بسعادة كبيرة من مراقبة تطور حالة تبادل الإهانات بين الفتاتين الممتلئتين اللتين كانتا تكتبان في مجلات متنافسة. كنا نلتقي في الثالث عشر من كل شهر لتناول العشاء في المطعم العثماني الأنيق هونكار، في نيشانتاش. وكان على الجميع أن يحضروا ما لم يكن لدى أحدنا عذر حقيقي. افترض الأخوة أوجومو أن المجموعة المؤلفة من عشرين صديقاً كانت تمثّل نخبة إعلاميّ البلد، وقد خصّصوا الطابق العلوي من المطعم لمجموعة الأصدقاء العدميين.

في اجتماعنا الثاني في هونكار، تعرّضت لعقوبةٍ فُرضت عليّ لأني فشلت في معرفة تاريخ الذكرى السنويّة رقم ٧٧٥ لمسجد العجائب الأثري في قرية ديفري:

"عليه أن يغني أغنية شعبيّة من منتصف..."

"ماذا لو تلوت قصيدة للشاعر كوجوك إسكندر؟"

"يجب أن يقضي ليلة مع بيستي وجوفتي في نفس السرير..."

مكتبة الرمحي أحمد

"ماذا لو دفعت ثمن عشائكم جميعاً لسنة كاملة؟"

"عليه أن يروي لنا قصة مثيرة،" هذا ما اقترحه عزمي الذي كان نحاتاً وناقداً فنيّاً. وقد أذهلني أن أسمع إيز تؤيد الاقتراح قائلةً: "ومن فضلك، لا نريد نهاية سعيدة". عندما التقت عيوننا شعرتُ أنها كانت تشعر بالسّر الذي أخفيته عنها، وكانت كما لو أنها أرادت منّي أن أكشف عنه في رسالة مشفّرة. عندما رأت ترددي مسّدت شعري بيدها وأمرتني: "أنه شرابك وابدأ من فضلك، عزيزي أردا"

تذكّرت بينما أنا كنت أنهي شرابي مزحة كوجوك إسكندر: "عليّ أن أخطّط وأرتكب جريمة قتل خلال ساعة، وهذه الجريمة ستزعجني لدقائق". بدأتُ أصلّي.

في قديم الزمان عاشت في إسطنبول، حيث تختلط الجنّة بالجحيم، سيدة غنية تدعى عدالت إرجن. كانت تعيش في القصر الواقع قرب البوسفور الحبيب، وقد ورثته عن زوجها الأول الذي مات بنوبة قلبيّة، كانت تعيش هناك مع زوجها الثاني راسم، وابنتها، من زوجها الأول، دنيز ذات الثمانية عشر عاماً، وابنها، من زوجها الثاني، آراس ذي الأحد عشر عاماً.

كان راسم الوسيم قد استلم مؤخّراً الإدارة الماليّة في شركة خيوط القطن في ضاحية حرمدير، التي كانت عدالت قد ورثته كذلك من زوجها الأول. (لم يكن الأولاد يعرفون أن الخطيبة التي تركها راسم ليتزوج بعدالت قد انتحرت، وأنه قد حمل اسم عائلة زوجته وارتقى ليصبح نائب رئيس مجلس إدارة الشركة.)

يبدو أن عدالت كانت سعيدة بأنّ دينيز، وبتشجيع من راسم، قد

مكتبة الرمحي أحمد

احترفت كرة السلة ووصلت إلى الفريق الوطني للشباب، وأنها قد تقبّلت زوج أمها وكرّست نفسها لرعاية أخيها. كان آراس طفلاً حساساً وموهوباً جدّاً، وكان المدلّل في نظر العائلة. لم يبتعد آراس عن أمه أبداً منذ تعلّم الوقوف بجانبها والإمساك بتنّورتها. حتى إنه كان يذرف الدموع إذا لم يتمكّن من الانضمام إليها حتى في المرحاض، ولم يكن يقبل حتى أن يصغي لقصة ويأخذ قيلولة بعد الظهر ما لم تحكّ أمه ظهره. وقد جعلها مرّةً تروي له، لمدّة أسبوع، قصّة "بائعة الكبريت الصغيرة" التي تجمّدت حتى الموت في الشارع وهي تبيع عيدان الثقاب في ليلة الميلاد، وكان يقول وهو غارقٌ في الدموع: "ولكن، يا أمي، هل ذهبت بائعة الكبريت إلى الجنّة فعلاً؟" لم يرفع أيٌّ من أبويه أو حتى أساتذته صوته في وجه هذا الصبي الناضج حسن السلوك. يقال إنّ أمه طردت المربيّة وولش لأنها قالت: "سيعاني آراس من مشكلات نفسيّة في المستقبل لأنّه لم يعش طفولته بشكل كامل أبداً". مع إنهاء المرحلة الابتدائية كان آراس يستمع للموسيقا الكلاسيكيّة، وقد أقسم المدرس الذي كان يعلّمه العزف أنه يعزف موسيقا فيفالدي مثل قديس.

بدأ آراس يستمتع بمرافقة أبيه إلى مباريات كرة السلة التي تشارك فيها دنيز، وإلى مباريات كرة القدم التي يلعبها فريق فَنَربخجة. السرّ الكبير الثاني الذي أخفاه عن أمّه كان أنّه كان يستمتع بتناول كرات اللحم المقلية، الطعام التقليدي في الشوارع، قبل أن يدخل إلى الاستاد. شعر آراس في أول مباراة حضرها لدنيز أنّ هناك مئات من العيون تلتهم سيقانها الطويلة الرشيقة. وقد انهمرت دموعه حين

مكتبة الرمحي أحمد

ضحك أبوه من اقتراحه بأنّ على دينيز أن تذهب للعب وهي ترتدي سترة فضفاضة.

لم تكن عدالت تعلم أيضاً بالنزهات التي كان الأب والابن يقومان بها شهرياً إلى القرن الذهبي. حيث كان راسم، بعد أن يرميا صنارتَي الصيد المبهرجة من فوق جسر أتاتورك، يخبر ابنه عن مغامراته الماجنة في مطاردة النساء. وكان آراس ينساق لخيال أبيه بتلهّفٍ دائم، ويتخيّله يدخل مهجع الطالبات وهو يرتدي زيّ امرأة، ويستمر بممارسة الحب مع ثلاث شريكات في الغرفة حتى الصباح. كانا يسيران بعد ذلك إلى حي كيزتاشي[1] الهادئ المعتدل ويمرّان بمنزل والدة راسم. لم يفهم آراس أبداً لماذا كانت أمّه تمنعه من رؤية جدّته ذات العينين الزرقاوين الرماديتين، وابنتها الشقراء روزين، عمته التي تمرّر يديها بـ...بـ...طء فوق وجهه وتلمسه كما لو كانت تتساءل من يشبه. يتظاهر راسم أنه لا يسمع أخته التوأم وهي تسأل ابنه: "آراس، أيّهما أكثر إيلاماً برأيك: أن تفقد شخصيتك أو أن تفقد عينيك؟"

تعرّض آراس، عندما كان في الصف الأول الابتدائي، للضرب على يد ولدٍ أكبر منه بسنتين، فما كان من راسم إلاّ أن هاجم منزل الولد المتنمّر وضرب أباه وأخاه الأكبر وحطّم الأثاث الموجود في حجرة معيشتهم. كان أولاد الجيران الهمجيون يتجنّبون آراس خوفاً من مهارة دينيز في الكاراتيه، وكان آراس يسأل نفسه ما إذا كانت مواهبه نوعاً من العقاب. كان يلجأ إلى قراءة الكتب وسماع الموسيقا

١ كيزتاشي: الاسم التركي لموقع أثري يضم عمود مارقيان الذي شيّده الإمبراطور فلافيوس مارقيان ٤٥٠-٤٥٧.

مكتبة الرمحي أحمد

هرباً من الإحساس بالوحدة، وعندما سئل ما الذي يريده مكافأةً على اجتيازه امتحانات المرحلة الابتدائية بنجاح باهر، أجاب: "أريد الإذن بأن أصبح موسيقيّاً عندما أكبر، لأن أختي الكبرى ستدير أعمالكم بشكل أفضل مما سأفعل"

وحين فُرض على الملايين من سكان اسطنبول أن يتحمّلوا، باسم تحقيق الأمن، إزعاج استقبال الرئيس الأميركي مع رؤساء خمسٍ وأربعين دولة أخرى لعقد لقاء القمة الدورية لدول حلف شمال الأطلسي، كانت الليلة التي انتهت فيها القمة هي ذات الليلة التي اصطدمت فيها سيارة راسم، الثمل، الجاكوار بحافلة قديمة محطّمة. نجا هو بخدوش بسيطة وكان قادراً على تناسي الحادث، أمّا عدالت فكان عليها أن تقضي وقتاً في العناية الفائقة، ودخل آراس، الذي أهمله أبوه وأخته، في حالة اكتئاب. كان يراقب الأمواج المتلاحقة في البوسفور من شرفته، حتى يغوص في فترات طويلة من النوم العمـ...ـيـ...ـق وهو يحمل هرّته سارة ذات الشعر الأصفر بين ذراعيه. بعد أسبوع من الحادث، في ذات الليلة التي عبرت فيها شعلة الأولمبياد شوارع المدينة المزدحمة والتي أغلقت في ساعة الذروة، أرسلت دنيز آراس مع السائق نور الله لحضور الجزء الثاني من فيلم "الرجل العنكبوت"، لكنّ آراس عاد دون أن يتابع النصف الثاني من الفيلم. وأثناء صعوده إلى غرفته سمع أنيناً صادراً من حجرة نوم أمّه فاندفع إلى هناك ليرى أباه وأخته غير الشقيقة يمارسان الحب فوق سرير والدته. صُدم الصبي! ركض بصمت إلى منزل نور الله الواقع في الحديقة الخلفية وهو يجهش في البكاء، وهناك روى ما شاهده. مسبّباً صدمةً للجميع، عاد بعد ذلك إلى غرفته، وقام، وهو ممسك هرّته سارة،

مكتبة الرمحي أحمد

برمي نفسه في مياه البوسفور القاسية. لا تزال جثّة آراس التي تحمل سارة تتردد حتى الآن إلى الشاطئ في مكانٍ ما قرب جامع بيبك.

بعد أسبوعين، تحسّنت عدالت وخرجت من المستشفى، لكنها عادت وانتكست عندما علمت بما حدث. ابيضّ شعرها وكان ردّ فعلها الأوّل هو أن طردت دنيز، حيث تكفّلت بمصاريف سفرها إلى بريطانيا لتدرس علم النفس هناك، لكنها قاطعتها نهائيّاً وقالت إنها لا تريد رؤيتها ثانيةً أبداً. رفض راسم أن يطلّق عدالت، بل إنّه هدّد بأنه إذا لم يحصل على مبلغ ١٠ مليون دولار في الحال فإنّه سيسلّم جميع صفقات الشركة غير المصرّح عنها إلى وزارة الماليّة. أطلق نور الله رصاصةً واحدةً من مسدسه في قلب راسم، وجاء تقرير الوفاة بأنه: "انتحار ناتج عن الاكتئاب"

لم تنقطع عدالت، المرأة المرنة، عن الحياة تماماً. لقد كرّست نفسها للأعمال الخيريّة والدينيّة، لكنها تنهار كليّاً في كلّ مرّة تسمع فيها صوت عزفٍ على آلة الكمان، وتضرب صدرها وهي تصيح باكيةً: "ابني، ابني الوحيد... أنا أعاني في هذا الجحيم، أنا لا أستحقّ أن أكون قربك في الجنّة يا ابني الحبيب".

ستسقط من السماء ثلاث تفاحات: واحدة للراوي، وواحدة للمستمعين، والأخيرة لمن يفهم...

***

عرفت أنّ هذه التراجيديا المبتدعة سوف تزيد من احترامي بعينيّ

مكتبة الرمحي أحمد

إيز. بدأنا نقوم بالرحلات معاً في أيّام العطل، ونقضي العديد من الليالي في الفنادق البعيدة في البلدات التي يعود تاريخها إلى القرون الوسطى، حيث ترسّخ كلُّ سنتميتر من جسمها في ذاكرتي. زرنا بلدات تبعد مئات الكيلومترات عن إسطنبول، حيث لا تزال الإنسانيّة موجودة وحيث هناك مطاعم منزليّة تقدّم وجبات لذيذة بقيمة ٥ دولارات. بنيت في الحديقة الأسطوريّة في كازداغي العديد من القرى الجذابة التي بقيت فارغة تقريباً ببيوتها المبنية من القرميد. ولأن القرى القريبة من إسطنبول امتلأت بالشباب الباحث عن عمل، فقد شغل جيل الشباب هذه المنازل واحداً تلو الآخر. مشينا عبر كل إنشٍ من الغابات القديمة المتعبة في كازداغي المثيرة. إذا التقيت من جديد بأشجار اللوز والرمان والتوت وشجيرات سلطان الجبل المحميّة بأشجار الصنوبر، فأنا على الأرجح لن أعرفها، كما أني لن أعرف العصافير مثل جلم ماء البوسفور وطائر النحل وطائر الشرشور والقبّرة سوداء الرأس أو حتى الحسون. لكنّي أذكر جيّداً كيف كنّا ننام على ذراعيّ بعضنا بعضاً بين نباتات الخشخاش المحيطة بالمروج. لا أعتقد أنّي سأرى مجدّداً محلاّت القطع التذكاريّة مع علاماتها السخيفة، أو نادلات المقاهي العابسات اللاتي يرفضن البقشيش.

جاء أهل إيز، الذين لا يتوقفون عن الجدل، إلى إسطنبول لحضور العرس العائلي. وبينما كانت أمّها تتفحّصني من الأعلى إلى الأسفل بكثير من الريبة والشك، حاولت أن أوصل لها بعيني رسالة أن "اهدئي، أيتها المرأة السخيفة، ليست لديّ نيّة أن أصبح صهرك"

عرفت أن إيز وخالي سيعجبان ببعضهما بعضاً. دعانا إلى مطعمه

مكتبة الرمحي أحمد

المفضل وقدّم لنا حقيبة صغيرة كانت فيها اثنتان وثلاثون قصاصة ورقيّة تحمل أخباراً من عام ٢٠٠٣. طلب مني أن أختار عشراً منها وأن أتفحّصها وأجمعها في رواية سخيفة.

١- كوتاهية: لأنهم ظنّوا أن عرض الليزر في افتتاح الحانة زاي كان جسماً غامضاً، لذا منعوا عروض الليزر في السنة المقبلة.

٢- سامسون: سرق م.ب (٢٢ عاماً) فرعاً محلياً لأحد المصارف، وقد أُلقي القبض عليه بعد شهرين وهو يحاول إيداع المبلغ في نفس الفرع.

٣- بورصة: أطلق س.ك (٣٠ عاماً) النار على جميع حبّات البندورة عندما علم أنه لم يبقَ هناك فلفل أخضر في متجر الخضار، سائلاً: "أيّ متجر خضار هذا؟"

٤- أضنة: جمعية الطيور الداجنة تخفق في تنظيم صراع للديكة.

٥- بورصة: بناء جامع يتّسع لـ ٣٠٠٠ شخص في بلدّة يقطنها ٣٠٠٠ مواطن.

٦- باريس: عند تظهير الفيلم الموجود في الكاميرا، تعرفت الشرطة إلى التركي الذي رمى كاميرته من المدرجات في مباراة كرة القدم الودّيّة بين تركيا والبرازيل.

٧- أدابازاري: س. أ.، موظف الصحة في قسم الحوادث والطوارئ في المستشفى الحكومي، سلّم مكانه للبحّار المتقاعد س. ف. لساعتين. وأحد الأطبّاء أنقذ مريضاً قطع يده وقام البحّار بخياطتها له.

٨- سيواس: قتل أ. ك. زوجته بقطع حنجرتها أمام أولادها أنه

مكتبة الرمحي أحمد

اعتقد أنها تقيم علاقة مع غيره.

٩- أيدين: معتقداً أن زوجته قد خرجت، أحضر م. ج. (٢٨ عاماً) عشيقته في صندوق سيارته. وعندما أدرك أن زوجته في المنزل نسي تماماً أمر العشيقة، التي أنقذتها الشرطة فيما بعد عندما سمعوا صوت ضرباتها من داخل صندوق السيارة.

١٠- بورصة: ركنت ل. أ. الثملى سيارتها على منحدر شديد الانحدار، لكنها بدلاً من أن تدوس على المكابح استلقت أمام السيارة.

***

ذهبت إلى حلبة الرماية لأني وعدت عادل كاسناك بذلك، وأردت عذراً لألغي تسجيلي في أقرب فرصة. سيمنحني ذلك الفرصة للتمتّع ببعض الإهانات الشعريّة من الرجل الذي يشبه الدب القطبيّ في شكله. عندما سأل: "هل تريد إيصالاً حقّاً؟" تذكّرت تقريراً صحفيّاً كان يقول إنّ ٦٦ من كل ١٠٠ ليرة من الاقتصاد التركي تبقى دون تسجيل، "وأنّه تم اكتشاف ١١٤ طريقة مختلفة للتهرّب من الضرائب"

أجبته: لا يبدو من الجيّد أن تشجّع زبائنك على التهرب من الضرائب يا سيد عادل.

- بنيّ، لا تكن مغروراً جداً، مثل بعض الشباب الذين توقفوا للتوّ عن الاستمناء وبدأوا بالذهاب إلى بيوت الدعارة. يجب أن تعرف

مكتبة الرمحي أحمد

أن هذه هي الطريقة التي يحاول بها السوق البقاء. أعتذر عن افتراض أنك قد تستخدم الضريبة التي ادّخرتها لأشياء أفضل مما قد تقوم به الحكومة.

دخلنا حلبة الرماية معاً. لم يكن المكان بدائيّاً كما توقّعت. كانت هناك مجموعة من الرجال من ذوي الأوزان الثقيلة يرتدون مناظير الوقاية وسدادات الأذن يتهادون في المكان كالبطّ، يختبئون خلف الحواجز ثم يظهرون ليرموا إمّا بيدٍ واحدة أو بشكلٍ جانبي باليدين معاً، وكانوا يرمون إما وقوفاً أو وهم يجلسون القرفصاء.

وصل الارتجال الفوضوي إلى النهاية عندما نفخ المدرّب الذي يرتدي سروالاً أحمر وسترة أرجوانية في صفارته. اجتمع الطلاب بإذعانٍ حوله في نصف دائرة. لم أُفاجَأ لسماعهم يشتكون حين طُلب منهم إطلاق ست رصاصات في اثنتي عشرة ثانية.

قلت لعادل: لن أتمكن أبداً من العمل مع هذا الفريق.

– توقّعت أنّك ستقول ذلك، يا إرجينكون جونيور. أستطيع أن أرتّب لك دروساً فرديّة مع أفضل مدرّب رماية في المدينة، إذا دفعت الفرق...

كنت إذاً في طريقي للقاء جاهد جِفْتَجي، الذي كان تأثيره عليّ أكبر من جميع مدرسيّ هارفرد. أضاف عادل كاسناك:

– إحدى مشكلاته هي أنه يغضب عندما يلفظ الناس الحرف الأخير من اسمه "ت". إنه من شرق الأناضول، ماتت زوجته وهي تلد له توأماً، ماتا أيضاً. ولم يتزوّج مرّة ثانية أبداً. كان سائق شاحنة، لكنه أُجبر على التقاعد باكراً بعد حادث سيرٍ سبّب له عجزاً دائماً

مكتبة الرمحي أحمد

في قدمه. لا بدّ أنّه كان أفضل صيّاد في جبال شَرناخ قبل ذلك. بنيّ، عندما تعتاد وجهه القبيح ستدرك أي رفيقٍ مثيرٍ هو...

لم يكن يبدو على جاهد أنّه تجاوز الخامسة والأربعين، رغم أنه كان لديه شيبٌ كثيف. كان له هذا المظهر الكئيب كما لو أنه قد ينفجر في البكاء إذا سألته: "كيف حالك؟" اعتقدت للحظة أنه ذكّرني بـ"ليني"، العملاق الساذج في رواية **فئران ورجال**. كانت عيناه تخفيان مدًّ وجزرَ الوحدة العميقة والنبيلة التي كان يعيشها. كنت أتوقّع من كاسناك أن يحكّ كرشه وهو يدرك تماماً أننا كنا من نفس النوع. تغضّن وجه السيد شاهد في كل مرة وضع فيها ثقله على قدمه الكسيحة، ومن ثم كان يبدو كأنه تحرّر، كما لو أنّ العقاب يخفّ مع كل خطوة. كان عليّ أن أُجهَد درسين كي أجعله يتوقف عن مخاطبتي بـ"سيّدي".

كان يراقب التمرين بنظراته المسكونة بالجنّ ويزأر مثل واعظٍ متشدّد، مظهراً الكثير من الاحترام للأسلحة كما لو أنها خيول أصيلة. بطريقة ما اكتشف أنّ لديّ موهبة "رام" (يبدو أنّني تعاملت مع السلاح كأنه قطعة من جسدي، وكانت ذراعي تبدو امتداداً طبيعيٍّ للمقبض.) كان واضحاً أنه إذا لم يتلقّ السلاح الحرارة من الجسد فإنّه سينقل برودة الروح إلى الجسد. بالنتيجة، كنت مقيّداً لعشرة أيّام إلى مسدس من نوع ويبلي، "مسدس فريد بطلقة واحدة"، لأصل إلى حالة الاتّحاد مع النسيج المعدنيّ. وبينما كنت ممسكاً المسدس طويل المقبض بين يديّ ومركّزاً على المرآة الضخمة أمامي، تذكّرت مشهداً من فيلم وثائقيّ عن تزاوج السلاحف.

حملت هذا السلاح المميّز في حقيبتي وأنا في طريقي إلى العمل،

مكتبة الرمحي أحمد

وفي المنزل عندما كنت أذهب إلى السرير كنت أخفيه تحت وسادتي وأصلّي. تحمّلت لأجل السيد جاهد الطقس كاملاً، وعندما تناولت أخيراً مكعّبات السكر المباركة تخيّلت أن سيّدي الغامض سيقدّمني في النهاية قرباناً لويلي البسيط.

شجعتني تقنية جاهد جِفْتَجي التعليميّة المتكلّفة. كنت أشعر كما لو أنني أخطف المسدس وأطلق بجنون على كل الأهداف التي تقف أمامي عندما أسمعه يقول: "أحسنت، أنت وحش، عظيم جدّاً"

كان يقول: ارسم خطّاً وهميّاً بين عينك اليمنى والهدف، ومن ثم دع الرصاصات تطير مثل امرأة حاقدة على طول ذلك الخط.

لم أستطع أبداً أن أتخيّل أنّني قد أكون أكثر استرخاءً في ساحة الرمي من أكثر مسابح المياه المعدنية أناقةً. كنت سعيداً بالانضمام إلى صفوف الطلاب المتقدّمين. وفي الأسبوع الثامن راقب كاسناك أدائي الناجح للرمي من مسافة خمسة وعشرين متراً وخمسين متراً. كنت قد قرّرت أن أنتزع منه هذا الاعتراف: "أنت تركّز على الهدف كقنّاص وتداعب الزناد كما لو أنك تعدّ حبّات سبحة الصلاة، أحسنت!"

كنت أصحب جاهد مرّة في الأسبوع إلى المطاعم المحليّة حيث يختار أن يقرأ جريدة تقدميّة، أو القاموس التركي الضخم. أعترف أنني استمتعت بمراقبته ينظر حوله بفضول مراقباً التجّار المحليّين يتلمظّون بشفاههم ويبتلعون غداءهم بسرعة. كانت رؤيته كل مرّة يحمل فيها الشوكة إلى فمه وينهي بإجهاد قضمة أخرى معبّرة مثل رقصة الدرويش. ولجعله يتعرّق من الإرباك كنت أتّصل بإيز وأتبادل معها محادثة جنسيّة بينما نحن ننتظر قهوتنا. كان مستمعاً جيداً على

مكتبة الرمحي أحمد

الرغم من عينيه الحزينتين اللتين بدتا كأنهما تقولان: لا تحاول حتّى أن تسألني أيّ أسئلة شخصيّة.

ليلة ١١ تموز/ يوليو، عندما غادرت إيز إلى أدابازاري[1] لتشاهد المأساة الطبيعيّة، أجبرتُ جاهد جفتجي أن يأتي إلى مطعم إسكيلي، وشيئاً فشيئاً أخبرت سيّدي قصّة حياتي كاملةً. كان كلّ ما عرفته عنه أنّه يعيش في الطابق الثاني من بناء سكنيّ في حي العمرانيّة البسيط. إذا بدأت الآن بالبحث عن قاتل أبي فلديّ مرشدٌ ممتاز يعرف تماماً كيف يبقي فمه مغلقاً.

منذ التقيت إيز لم أرَ كوابيس أبداً، سوى مرّة واحدة مارست فيها الحب الندي مع زهال، شريكة حبيبتي في السكن، التي قطعت ثدييها الكبيرين مثل المرأة الموجودة في إحدى قصائد كوجوك إسكندر. أصبحت في سلام تام مع حياتي منذ قبّلت إيز. لكن ولأني تعرفت إليها بمساعدة سلجوق ألتون الكريه، فقد كنت أخشى الجزء المفاجئ الثاني من المسرحيّة.

***

وقع خالي سلفادور في حبّ فتاةٍ شابّةٍ لطيفة تسكن لوحةً رسمها

١ في أدابازاري المجاورة، في الأسبوع الثاني من تموز/ يوليو، تتكاثر ملايين الفراشات البيضاء في أشجار الحور الأبيض، حيث تخزن يرقاتها وتنطلق في رحلتها الأخيرة فوق نهر سقاريا لتموت. تظهر فوق جسر سقاريا غمامة كثيفة كالغيوم المحمّلة بالثلج تعيق حركة المرور.

مكتبة الرمحي أحمد

هربرت درابر[1] ابتاعها من معرض في لندن. ذكّرني عري هذه الفتاة، التي أطلق عليها خالي اسم سيلفي، بوجهها الملائكي وهيئتها الجانبيّة وهي تمدّ جسدها ليحضن شريط الأعشاب البحرية الذي يفوق عمره مئتي عام، بالإسكندر الأكبر. انطلق خالي في رحلة لكتابة رواية سخيفة. وقد كلّمني ليلة عودته إلى إسطنبول قائلاً بانفعالٍ كبير:

– أردا عزيزي، أنا على وشك الوصول إلى نقطة تحوّل في حياتي، الفتاة الفاتنة التي مارست الجنس مع الرجل الأسود ذي اليد الواحدة في الفيلم الألمانيّ الذي شاهدته ثلاث مرات هي صورة طبق الأصل عن سيلفي! سأستقلّ أول طائرة ذاهبة إلى أمستردام ولن أرجع حتّى أجدها.

أجبته:

– آمل أنك لن تطلب مني إعادة السندات والعقارات التي نقلتها إلى اسمي، إذا كنت تنوي الزواج من نجمة الأفلام الإباحيّة هذه، لأنّي قد لا أعيدهما.

منذ بدأت أطلق الرصاص كحبّات الفول السوداني أصبحت انفعاليّاً ومتعنّتاً.

في الصباح الذي غادر فيه خالي إلى أمستردام وصلتني إلى مكتبي رسالة مكتوبة على ظهر فاتورة تسوّق وتحمل علامة "شخصيّ" كانت الرسالة داخل المغلف المجعّد تحمل الكلمات التاليّة:

يا ابن العاهرة اليهوديّة المرتدة!
ستصبح حياتك منذ الآن سجناً،

---

١ هربرت جيمس درابر (١٨٦٣–١٩٢٠): رسام إنكليزي من العصر الفيكتوري.

مكتبة الرمحي أحمد

أيّها اللوطيّ المخنّث!
انتظر شيطانك القادم من الجحيم...

وضعت الرسالة ومغلّفها في جيب سترتي، مفترضاً أنّها مزحة من بيستي وجوفتي، وركّزت على سلسلة لقاءاتي. وفي المساء، بينما كنت متوجهاً إلى حلبة الرمي، شعرت بأنّ جسدي كلّه يرتجف نتيجة شكّي الوسواسي. بالتّأكيد لن يقوم التوأم المزعج بمثل هذه المزحة السخيفة؟ أنا لم أؤذِ أحداً قط طيلة حياتي سوى نفسي، لماذا إذاً ستصبح حياتي سجناً؟ لا أعتقد أن والدَيّ تركا خلفهما فواتير مستحقة الدفع. بدأت أتساءل حول هذا التهديد الذي يفتقد تماماً لأيّة علامة، من شخصٍ يجهل أنّ حياة السجن قد تكون نوعاً من المكافأة بالنسبة لي.

تركني السيّد جاهد وحدي لفترة غاضباً من أدائي السيّئ. وكنت كلما سحبت الزناد أكثر بحثاً عن العلاج ارتجفت يدي أكثر. عاد سيدي بعد عشر دقائق وللمرّة الأولى والأخيرة وضع يده اليسرى على كتفي. يصعب على أن أشرح كيف شعرت بالراحة وأنا أسمعه يقول:

– أنا مستعدٌّ لنسيان هذه الجلسة. لن يقفز إصبعك إلى الزناد ما لم تكن جاهزاً لذلك. أردا، إنك تخسر وحسب احترام السلاح لك بهذه الطريقة.

لم آتِ على ذكر الرسالة أمام إيز، وبعد يومين نسيت تماماً أين وضعتها.

قمت بإيصال إيز إلى منزلها، ليلة ٢٢ تموز/يوليو، وقدت السيّارة

مكتبة الرمحي أحمد

وحدي عائداً إلى المنزل. كان الوقت ليلاً عندما خرجت ست عربات شحن آتية من أنقرة عن سكّتها. كان عدد الضحايا الذي أُعلن رسميّاً في البداية ١٣٩ ضحية، وانخفض العدد بعد ذلك إلى ٣٧. كان المختصون قد حذروا قبلاً من ضعف البنية التحتيّة ومن الخطر القاتل الذي قد تسبّبه إذا ما بقيت في الخدمة، لكنّ المسؤولين عن الكارثة رفضوا الاستقالة. كنت أتساءل طوال الطريق الرئيسي ما إذا كانت الكلاب الضالّة قد نجت من الحادث، وكنت أستمع بضيقٍ إلى بات ميثني[١]. كنت أحاول أن أجد بعض الراحة بشتم كل أولئك الرجال أصحاب الشوارب الذين يتقاسمون المسؤولية في حادث القطار. مع أني كنت مخموراً، فقد انتبهت إلى الظل الذي قفز أمام السيّارة. ولو لم أكن أقود السيّارة على مهل لكنت رميته على طول الطريق وصولاً إلى المقبرة العثمانية. (ما كان يجب أن أتوقّف تحت ضوء الشارع المطفأ.) تعرّفت إلى الرجل السمين الذي تفوح منه رائحة العرق والذي ابتسم لي مكشّراً وهو يدسّ سكينه الكبّاس تحت ذقني. كان ذاك الرجل سيدو، الذي أرسلت له أمي من يضربه ويدمّر متجر أبيه ويطرده مع عائلته من تشامليجا لأنه دعاني بـ"ابن العاهرة اليهودية المرتدّة". عاد سيدو بعد خمسة عشر عاماً ليقول: هاأنذا من جديد يا ابن اليهودية المرتدّة!"

مستغلاً المفاجأة التي نفخها في وجهي، سحبني خارج السيارة وبدأ يجرّني ناحية المقبرة الساحليّة.

– سأُقطّعك إرباً إرباً في وسط الشارع إذا حاولت أن تصرخ!

---

١ بات ميثني: أميركي، مؤلف موسيقي وعازف غيتار.

مكتبة الرمحي أحمد

ارتجفت وأنا أتذكّر أنه في بلدنا تُرتكب جريمة قتلٍ كلّ دقيقتين، وأن ٣٢,٧ بالمئة من القضايا التي تصل إلى المحاكم تبقى عالقةً دون حلّ. لم أكن أتوقّع أن أرى كشك الشرطة فارغاً في هذا الشارع المغلق النهاية الذي كنت أعبره للمرة الثانية في حياتي فقط. تابع سيدو خطبته حتى وصلنا إلى حيث كان هناك هذا الكشك الصغير مثل أحد أكواخ الإسكيمو وكان مناراً.

– حين رمتنا أمّك الحشرة المقرفة خارج أملاكنا، دُمّرت أعمال أبي. وحين مات بنوبة قلبيّة أجبر خالي أمي على الزواج من أرملٍ عجوز. ولم أعرف شيئاً عن أختي الصغيرة بعد ذلك لأن ذاك الوغد أرسلها إلى الجنوب لتصبح الزوجة الثانية لرجل في الثمانينات من العمر. في الأسبوع الذي عدت فيه من الخدمة العسكرية طردني هذا البخيل خارج المنزل. ولأن السجن في اسطنبول بدا غير كافٍ، فقد انتقلت من سجنٍ إلى آخر عبر الأناضول. ما لم أتعلّمه قط، لا من المدرسة ولا من العائلة، تعلمته من أحد السجناء الأقوياء في ديار بكر قام برعايتي. خرجت من السجن بعد صدور عفوٍ عام، وبدأت أجني مالاً أكثر مما يجني الرئيس.

وختم كلامه قائلاً:

– عندما أنهيت مهمتي الأخيرة في الخارج ورجعت إلى إسطنبول، علمت أن الملاك عزرائيل قد قبض روح زوج أمي وأمّك الحشرة المقرفة.

كان عليّ أن أتكئ على الأرض قبالة كشك الشرطة، متراجعاً في كلّ مرّة يمسّ فيها حنجرتي بسكينه. شعرت بأمواجٍ من النار تنتشر

مكتبة الرمحي أحمد

عبر جسدي بينما هو يصفعني على وجهي بشكل متكرّر. كانت عيناي معلّقتان على شواهد القبور في المقبرة العثمانية المقابلة. أعتقد أن عينيه كانتا تبدوان أكبر في ضوء القمر وأنهما كانتا تخيفانني كما كانت عينا أمي المليئتان بالرغبة في الانتقام تفعلان. ازداد رعبي حين قال:

– أنت لم ترتكب جريمة تتطلّب مني قتلك. لا أعرف إذا كان هذا مكافأةً أم عقاباً، لكن فقط لتعذيب روح أمّك سأغتصبك هنا، أيّها الوغد اليهوديّ!

لماذا لم يكن السلاح في يدي! وبينما كنت أصرخ به "كفى" شعرت كما لو أنّ يداً مباركةً أطلقت رشّتين من الرذاذ القاتل للحشرات الطائرة عليه وانهار سيدو مثل كيسٍ أخرق. تذكّرت الصوت الشعري للمسدس مع كاتم الصوت الذي ذكره إرج أيدن[1] في رواياته. ومع تراجع إيقاع صوت الأقدام في المقبرة، ركضت كاسراً صمت الليل وأنا أرتعش كهرّةٍ صغيرة بائسة. كان جسدي يرتجف وشعرت أن قلبي سيقف. بدأت أتقيّأ وأنا أتذكّر قضيب سيدو الذي مازال منتصباً خارجاً من سحّابه المفتوح.

نهضت حالما تمالكت نفسي وحاولت الركض مجدّداً إلى سيّارتي الجيب، لكني تمكّنت فقط من السير متمسّكاً بالجدار الطباشيري في المقبرة. ما كان ليفاجئني أن تكون أمي قد اتفقت مع عصابة مسلحين ليبقوني تحت مراقبتهم حتى بعد موتها. تساءلت كم مرّةً سأُخطف وأيّ جزءٍ من جسدي سيعاني من الانتقام من حماقاتها.

---

١ إرج أيدن: روائي أميركي من أصل تركي، كتب باللغة الإنكليزية.

مكتبة الرمحي أحمد

بدأ قلبي ينشط أثناء عودتي الآمنة إلى المنزل، كما لو أنني قد عشت صدمةً ممتعةً بقرارٍ غير متوقع خلّصني من عقوبة السجن المؤبّد. قبّلت خدّ إفاكت عند منتصف الليل، وبينما كانت تغسل يديها سألتني: "هل خطبت إيز؟" تناولت قرصاً ونصف من الحبوب المنوّمة وذهبت إلى السرير سائلاً الله أن يجعلني أنسى كل ما عانيته في الساعتين الأخيرتين، وأن تكون هذه الصفحة هي الأخيرة فعلاً من مقتطفات كوابيسي.

نهضت مع أذان الفجر، وبعد حمّام تأمّليٍّ طويل ارتديت بذلتي الداكنة وتوجهت إلى المقبرة الساحليّة. كانت دقّات قلبي تتسارع مع كلّ خطوة. أدهشني ألاّ أرى جثة سيدو فوق المنحدر المتّجه نحو كشك الشرطة، ولو لم أرَ قيئي المنتشر مع قشور المشمش لكنت أقسمت أنّ كلّ ما جرى في الليلة الماضية كان مجرد حلم ليس أكثر. شعرت برعشة الارتياح وسرت باتجاه السوق، متتبّعاً آثارَ شواهد الأضرحة المعزولة للجنود العثمانيين والأطبّاء والموظفين الحكوميين في المناصب العليا الذين ماتوا شباباً. عرفت أنّني سأمرّ قرب بائع الكعك المالح جارنا الذي يقف عند بوابة الحديقة المعزولة ويقرأ الصحيفة المحلية بصوتٍ عالٍ.

– إذا لم تسألني أيّ شيءٍ حول الدراويش، سأشتري منك لفّتَي كعك.

لكن، وكما لو أنّه كان مستعدّاً للرد، جعلني أشعر بالخجل نوعاً ما حين أجابني:

– هل أرسلوك إلى أميركا كي تتعلم بعد عشر سنوات أن تنهي

مكتبة الرمحي أحمد

النقاش بهذه الطريقة؟ إن لم نسألك أنت فمن سنسأل يا سيد أردا؟

ذهبت إلى مكتبي بحماسٍ غير معتاد، لأجد أنّ لديّ رسالتين على الأقل في بريدي الإلكتروني، وصلتا بينما كنت أقاتل دفاعاً عن حياتي. كانت الأولى من سلجوق ألتون الكريه:

عزيزي أردا

آمل أنّها إشارة جيّدة. لقد حلمت في الليلة الماضية أنّك كنت مستلقياً قرب مقبرة ووجهك للأرض، وكنت تبكي طالباً المساعدة. لكن وقبل أن أتمكن من الوصول إليك رأيتك تنهض وتشكّر ظلاً، وقد هرب الظل وقفز في مياه البوسفور...

أرسل إليك أطيب أمنياتي وأتمنى أن نتمكن من اللقاء قريباً لنتحدّث.

محبّتي لايز...

الرسالة الثانية كانت من خالي الخارج عن أيّة سيطرة:

أردا، أردا، أردا

أتمنّى لو أنّي لم أجد أبداً شقيقة سيلفي المتخيّلة! ديمي هي مخنّث ثنائي الجنس أجرى عمليّة تحوّل، لكنّها ما زالت صديقة للأتراك. (ستكون ضيفتي في الصيف المقبل.) أرجّح أنك ستغضب وأنت تقرأ في إحدى قصصي أن صديقها وصديقتها كانا أبناء عم

مكتبة الرمحي أحمد

بعضهما. وجدت كتاب كورنيل وولريتش[1]، من عام ١٩٣٠، **قلب رجل شاب**، في مكتبة للكتب المستعملة يديرها صديقها فِن. أنا متوجّه إلى سان فرانسيسكو لألحق بهيلين. م. غرادي، التي اشترت الكتاب عام ١٩٣١ أنا أعيش راوية تجريبية ستتقاطع فيها حياة كل من هيلين وديمي...

استمرّ في هرائه. كانت محاولات سلفادور الجامحة لتحقيق بحثٍ يخدم كتاباته فاشلة على الدوام، بينما كنت أنا، ودون أن يعلم، أعيشُ قصصاً بوليسية حقيقيّة.

***

كنت أتناول العشاء مع مصرفيٍّ ثرثار في المطعم المريح لفندق الفصول الأربعة، عندما سمعت أخباراً جعلت الدم يجمد في عروقي. لقد تعرّضت إيز لحادث سيرٍ وقد تمّ نقلها إلى غرفة العناية الفائقة في مستشفى خاص في الجانب الآسيوي من المدينة. هل كان هذا الإخراج السينمائي للمشهد الدموي الأخير الذي سأفتقدها فيه؟ (شعرت بالألم يجتاح كياني كلّه.) أسرعت إلى مستشفى لقمان. ماذا لو كنت على وشك أن أخسر إيز؟ هل سأتمكّن من مواصلة حياتي مرّة ثانية؟

١ كورنيل وولريتش: كاتب أميركي، حُوّلت العديد من قصصه ورواياته إلى أفلام سينمائية.

مكتبة الرمحي أحمد

وجدت زهال في غرفة الانتظار الباردة لوحدة العناية الفائقة. كانت لا تزال في حالة صدمة.

– كنا قد انتهينا للتوّ من حضور فيلم لنيكول كيدمان، وفي طريق عودتنا إلى المنزل في سيارة إيز، السوزوكي، انتبهنا إلى أن هناك متجراً مفتوحاً في شارع إيكاداي فتوقفنا لشراء شيء نشربه. خرجت من السيّارة أولاً، وفجأةً اصطدمت سيّارة من نوع لاند كروزر بسيّارة الجيب من الخلف ورمت إيز أرضاً بينما كانت تفكّ حزام الأمان. كان ذلك مرعباً، أعتقد أني رأيت رأس إيز يخرج من زجاج السيارة الأمامي. وانطلقت السيّارة بعيداً وموسيقا الأرابيسك تصدح من نوافذها المفتوحة. أصيبت إيز بنزيف دماغي وهناك مئات الشظايا الزجاجية عالقة في وجهها...

قالت زهال ذلك وغرقت مجدّداً في البكاء.

تحدّث إليّ بعد ذلك الطبيب المناوب، الذي يرتدي ساعة رولكس ذهبية، وقال:

– لدى صديقتك ارتجاج متوسط الشدّة، سيكون بإمكاننا، بعد أن نحدّد مستوى تخثّر الدم في الرأس، أن نقوم بإجراء عمليّة، لكن علينا أن ننتظر ثماني وأربعين ساعة قبل القيام بأيّ شيء. ستكون العمليّة ناجحة، وسيسير كلّ شيء على ما يرام. ولكن، لسوء الحظ، وجهها متضرّر بشكلٍ كبير. أعرف الكثير من النساء اللاتي تعرضن لحالاتٍ مشابهة، ورغم أنهن نجون من النزيف الدماغي فقد كنّ يصرخن حين يرين وجوههن: لماذا أنقذتموني؟

كان رأسي يدور. سُمح لي أن أدخل إليها لعشر دقائق فقط. تمنيّت

مكتبة الرمحي أحمد

ألاّ يكون رقم الغرفة في وحدة العناية الفائقة يحمل إشارة لشيء ما. (٢٨٥ الرقم غير المحظوظ في شهادتي الإعدادية.) عندما رأيت وجه إيز تحت جهاز التنفس أغمضت عينيّ وشرعت بالبكاء. كان وجهها مغطّى بقناع من اللحم المفروم، دخلت قطع الزجاج كل مسام فيه، وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً فقد كان أنفها وشفتاها ممزّقين. كانت الشظايا تلمع على نحو متقطّع مثل ابتسامة ساخرة. أعتقد أنّي لم أرَ أبداً وجهاً مرعباً كهذا حتّى في أسوأ كوابيسي. نظرت إلى الدكتور رولكس، الذي كان يكمل جرد الأضرار، "ثلاث أسنان مكسورة"، وغادر الغرفة مباشرة. هل كان ذلك ظلّ ابتسامة ما رأيته وأنا أحاول أن أتمالك نفسي وأركّز على إيز؟ تذكّرت حادث السير الذي تعرّضت له قبل سنوات، السرير حيث استلقيت ضعيفاً مثل خيال المآتة، كيف شعرت بأن ألمي توقّف في النهاية وغدا جسدي خفيفاً مثل مركبٍ شراعي يطفو فوق نهرٍ رماديٍّ ضاربٍ للبياض. وعلى أمل أن ينتهي طريق العذاب في لحظة سلام، ربّما كان عليّ أنا أيضاً أن أحاول الابتسام. أذكر أني رويت لأمّي، وأنا في فترة النقاهة، حلماً رأيته، وقد فسّرته لي: "يبدو أنك تغازل الموت، يا أردا، لكني لن أسلّم حياتك، حتى ولا لملاك الموت، قبل أن يأخذ حياتي أنا يا بنيّ العزيز".

كانت يدا حبيبتي مضمّدتين بالكامل ما عدا أظافرها المطليّة باللونين الأصفر والأزرق تكريماً لفريق فنربخجة. وبينما كانت شفتاي تضغطان على سبّابتها اليمنى، شعرت بقلبي يرتاح وبأني لم أعد قلقاً من وجهها المأساوي. تذكّرت ما قاله غراهام غرين لعشيقته

مكتبة الرمحي أحمد

القديمة إيفون كلوتا عشيّة موته: "لقد أدركت للتوّ أنّ الحبّ الحقيقيّ يخلق بين الاثنين عندما لا تكون هناك أيّ غريزة جنسيّة فيه". ملت على أذنها وهمست لها:

– اسمعي يا فتاتي الظريفة، ستخرجين من هذا المستشفى بخيرٍ وأمان. سيعيد لك أفضل جراحي التجميل على سطح الأرض وجهك كما كان، بإذن الله. لن أتخلّى عنك أبداً، مهما حدث! ربّما سنتزوج. حقّاً أنا لا يهمّني إن لم تتمكّني من الخروج من المنزل لفترة، أو حتّى أبداً. سأكون سعيداً لأنه سيكون لديك وقتٌ أكثر لي. بأيّة حال، أنا لا أحبّ مخالطة الناس، وأنت ستكتشفين سرّ الصمت...

ذهبت لرؤية الطبيب الذي سيجري العملية، والذي كان يشبه وودي ألن تماماً حين يقطب جبينه. وقد فوجئت لأنه لم يطلب ثلثي أجرته بالدولار. كان صاحب المتجر يوبّخ مساعده أمام المتجر لحظة وقوع الحادث، وقد أعطى رقم السيّارة الهاربة للشرطة. ولكن عندما عُرف أنّ السيّارة لاند كروزر تعود إلى كوتسي سيرحمزة. الذي سيصبح صهراً لأحد الوزراء، والذي هو في الأصل ابن متعهّد بناء بارز في الطائفة الدينية، اختفت شهادة صاحب المتجر. كان مديرا كلٍّ من إيز وزهال غارقين في الديون في تعاملاتهما مع المصارف العامّة ودائرة الخصخصة، وقد قرّرا منع ظهور أيّة أخبار عن الحادث في الصحف المحليّة. كنت مركّزاً على وضع إيز لذا لم أتمكّن من متابعة التطورات المثيرة للقرف، لكني تذكّرت مقطعاً من قصيدة لكوجوك إسكندر تحمل اسم

مكتبة الرمحي أحمد

"مجلة دولسينيا".[1]

رجع والد إيز الودود وحده لحضور العمليّة، بعد أن كان قد غادر مع زوجته إلى أميركا لحضور ولادة حفيدهما. لكنّه ترك لي التصرّف عندما رأى أنّي كنت قد تكفّلت بالترتيبات. كانت العمليّة ناجحة، ولأنّ ضمان إيز الصحيّ غطّى فقط ٢٠% من تكاليف المستشفى فقد دفعت أنا بقيّة المصاريف.

عندما نظرت إيز إلى وجهها، رغم كلّ التحذيرات، غلبتها الدموع وأخذت بالصراخ. كانت يجب أن تبقى في المستشفى اثنتين وسبعين ساعة أخرى، لمنع خطر الإصابة بنزيف مزمن. في اليوم التالي اصطحبت أمها، التي أنجبتها، لرؤيتها، وقد دخلت الغرفة بينما كانت إيز نائمة وسررت إلى أنّها فقدت الوعي حين رأتها ولكن دون صراخ. أيّاً كان ما قاله لها سلجوق ألتون الكريه، عندما اتّصل للاطمئنان عليها، فإنّ عينيها قد حاولتا الضحك. أعطاني بعد ذلك عنوان جرّاح تجميليّ ماهر في لندن، متخصّص في مثل هذه الحالات، لكنّه أزعجني بقوله:

– سيقبل هذا الرجل المتغطرس إعطاء موعد لمريض بعد أربعة

---

١ ماذا نفعل يا مصطفى؟ ما هو عملنا
على هذا الكوكب، في هذا النظام الحقير، في هذه الأراضي
التي ليس لها صفة؟
لماذا ما زلنا نعيش في الشقاء؟
لماذا ما زلنا نعاني يا مصطفى؟
إما أن تضربنا الشرطة، أو أنهم متآمرون؟
إذا كانت هذه الدولة التي نريدها...
هناك أناسٌ تعتبرهم الدولة أهم منّا بكثير.

مكتبة الرمحي أحمد

شهور ربّما، ولكن إذا كانت أمّك هي صاحبة العلاقة فإنّه سيضع إيز على طاولة العمليات في أول فرصة.

إيز، التي كانت ابنة موظف حكومي شريف ومتقاعد، ولم يكن لديها المال حتى لتسافر في عطلة، رفضت اقتراحي بأن أدفع تكاليف الجراحة التجميليّة، وقد أجبتها:

– اسمعي أيّتها الفتاة الظريفة، أنا أعرض عليك أن نتزوّج حالما يشفى وجهك، بإذن الله. إذا أصبحت زوجتي فإنني سوف أقتطع ما تدينين لي به من مخصصاتك كزوجة، وإذا انتهى الأمر بك للزواج برجلٍ آخر فسوف أحاسب زوجك المغفّل...

لامست إيز في هذه الفترة من النضال أحاسيسي بشكلٍ هائل. (وكذلك فعلت أنا.) ولكنّها لن تنظر إليّ بتودّد بعد الآن، كما لو أنّي شقيقها الصغير، الأمر الذي كان يجعلني أشعر بكثير من قلّة الثقة. أوصى الطبيب الجرّاح بأسبوعين من الراحة قبل السفر إلى لندن. أخبرت إيز عائلتها في الصباح الذي غادرت فيه المستشفى أنها تريد البقاء برفقتي حتى نسافر معاً إلى المملكة المتحدة. وقد تشاجرت مع أمّها التي تلقّت الأمر كما لو أنّها كانت ذاهبة للعمل في بيت للدعارة. وبينما كانت هذه المرأة المملّة تغادر الغرفة غارقةً في دموعها، تذكّرت من جديد أنّني لم أتمكّن أبداً أن أقول لأمّي "لا" ولو لمرّةٍ واحدة.

telegram @ktabpdf

كانت إيز ترتجف، وعندما خرجت إلى ضوء النهار غطّت وجهها بوشاحٍ فيروزي أحضرته لها زهال. انتبهت ونحن في طريقنا إلى البيت أن خير الله الغبي كان يحدّق إليها عبر المرآة العاكسة فضربته

مكتبة الرمحي أحمد

بحقيبتي على رقبته. بدت إفاكت أكثر مرونةً مما توقّعت، حيث عانقت إيز وقالت: "فليأخذ الله في أقرب وقت حياة من فعل هذا بوجهك الجميل"، هل كانت هذه رسالة مقدّسة؟ (ألن يقبل أي خادم لله أن يأخذ حياة كوتسي الشيطان مقابل ٥٠,٠٠٠ دولار، أو خادمٌ مختار مثل جاهد يقوم بهذا لقاء ١٠٠,٠٠٠ دولار؟ ولكن كان عليّ أولاً أن أخفّف من ألم إيز صاحبة الروح الجميلة...)

أصيبت إيز بنوبة من البكاء في إحدى الأمسيات بعد الأذان، ساعدتها على النوم بواسطة الحبوب المنوّمة، وبقيت ساهراً، وبدأت، كما لو أنّي واقعٌ تحت تأثير سحر، بقراءة رواية سلجوق ألتون الأولى التي وقّعها لأمّي. أعتقد أن العنوان المستعار من الشاعر أقطاي رفعت، **الوحدة تأتي من الطريق الذي تسلكه**، كان مناورة لزيادة مبيعات الكتاب. لم أذهب للنوم حتى أنهيت الرواية. وفي اليوم التالي قرأت روايتيه الأخريين في نفس الوقت. عرفت الآن لماذا لم توجّهني أمي لقراءة هذه الأعمال التي عليّ الاعتراف بأنّها ممتعة. لسوء الحظ، فإنّ هذا الرجل غير الجذّاب، الذي أعرفه منذ الطفولة، كان إذا صادفته مشكلة يستخدمني كنموذج للبطل والراوي في رواياته. (حقيقةً، ليس لديّ تعاطف نحوه أكثر مما نحو قاتل أبي.)

أعلن خالي، الذي عاد خاوي اليدين من سان فرانسيسكو، أنّ "المدينة كانت رطبة جدّاً حتّى ليقوم المرء بالاستمناء." (عرفت أنه كان يتجاهل الألم الذي تعانيه إيز.) غادرنا في اليوم التالي إلى لندن ونحن نحمل آمالاً كبيرة. سمحت إيز لزهال فقط، من مجموعة أصدقائها، أن تأتي لوداعنا في المطار. تلفّحت إيز بوشاحها، وكانت

مكتبة الرمحي أحمد

متوترة كما لو أنّ الجميع ينظرون إليها. دفعنا أجور بطاقاتنا وجلسنا في أبعد مقهى تمكّنا من إيجاده. أثناء انشغال إيز بقراءة كتابٍ هزليٍّ عن المساواة بين الجنسين، همست زهال في أذني:

– لا تدعها تنتبه، لكنّي واثقة أن كوتسي سيرحمزة الحقير يجلس خلفنا على بعد ثلاث موائد.

استدرت وقد أصابتني رعشة اشمئزاز كما لو أن أفعى مجلجلة كانت خلفي. كان الوغد القصير الذي يشبه المغول ويرتدي قميص فيرزاتشي واقفاً وهو يضع سيجارته بين أصابعه الغليظة. كان واضحاً أن الرجل القبيح الواقف إلى يمينه ويحمل له حقيبته باهتمام، والذي بدا من شكله أنه مدمن على المخدرات، هو حارسه الشخصي. ترنّح مغادراً إلى جحيمه، وكانت مشيته المتهادية تذكّر بمشية الرئيس السابق تورغوت أوزال. شتمت هذا المنافق المتبجّح بينما هو يختال مبتعداً. جاءني الإلهام مثل فيلٍ يتذكّر بعد أربعين عاماً من قتل زوجته، طبعت كل جزء منه في ذاكرتي.

بعد سلسلة من إعلانات التأخير المتلاحقة كل نصف ساعة، صعدنا أخيراً إلى الطائرة. حدّقت المضيفة في قسم رجال الأعمال بإيز إلى أقصى درجات الإزعاج. مباشرةً بعد تناولها الدواءِ غطّت إيز في نوم عميق. غطّيت كامل وجهها، ماعدا أنفها وفمها، بالوشاح ودثّرتها جيداً. (لاحظت أنّني صرت معتاداً على هذه الأفعال.) قبل أن أبدأ بقراءة **سبوتنيك الحبيبة**، لهوراكي موراكامي[1]، نظرت، تماماً

١ هوراكي موراكامي: روائي وكاتب قصة قصيرة ومقالات ومترجم ياباني من مواليد ١٩٤٩. ترجمت كتبه لأكثر من ٥٠ لغة.

مكتبة الرمحي أحمد

كأحد أبطال سلجوق ألتون غريبي الأطوار، إلى إسطنبول المهيبة، هؤلاء الذين فشلوا في ربح روحها يغتصبون جسدها حجراً حجراً كلّ يوم.

كانت هذه هي زيارة إيز الأولى إلى لندن، لذا كانت تتفحّص بتمعّن كلّ ما حولها. نزلنا في فندق ريتز قرب الميريديان حيث أدلت دالغا باعترافاتها. كان لديّ هاجسٌ بأنه ستُعرض علينا الغرفة المظلمة رقم ٤٢٣، حيث نزل غراهام غرين وكذلك سينا، الشخصيّة الخائفة لدى سلجوق ألتون. عند ظهر اليوم التالي قمنا، ونحن نشعر بالخوف، بزيارة إلى المكتب الخاص للطبيب روهاتجي الواقع في شارع هارلي. قادتنا موظّفة الاستقبال، التي بدت كعارضة أزياء متقاعدة، مباشرةً إلى غرفة صغيرة ضيّقة. حيث كانت هناك ثمانية مهاجع تشبه الخلايا بحيث لا يمكن للمرضى المنتكسين أن يزعجوا الآخرين. أصيبت بام بنوبة هلع تقريباً عندما علمت أننا أتينا بدون موعد.

تماماً في اللحظة التي كان الطبيب فيها يتحدّث هاتفيّاً إلى مساعده في بوسطن، وضعت ٥٠ جنيهاً في جيب بام. "أنا أتحمّل كامل المسؤوليّة، لا تحاولي إيقافي من فضلك"، قلت لها ذلك وأنا أدخل غرفة الطبيب. استدار الطبيب الهنديّ، الذي كان وجهه ناحية الجدار الخلفيّ ويتحدّث على الهاتف بلهجة إنكليزيّة مفخّمة لكن شعريّة، حين فاجأه صوت فتح الباب، وأنا صُعقت لرؤية هذا الرجل، الذي لا أذكر أنّي رأيت في حياتي شخصاً بمثل قبحه. (لم أستطع منع نفسي من التساؤل أيّ جزءٍ من جسده لم يكن بحاجة لجراحة تجميليّة.) عندما

مكتبة الرمحي أحمد

بدأ يتفحّصني بعينيه المنتفختين، تهيّأت لطردي من الغرفة. لكنّه أشار إليّ مبتسماً أن أجلس في الكرسي المجاور لمكتبه، واستدار ثانيةً نحو الجدار ليكمل محادثته. حسب ما جاء في بطاقة الأعمال الموضوعة على المنضدة فهو قد تخرّج من كليّة الطبّ في جامعة أوكسفورد عام ١٩٧٩. تنهّدت متسائلاً فيما إذا كانت أمّي، التي رأت الشهادات المذكورة بعد اسمه، BMBch, BA(Hons), DM, FRCS (plast)[١]، عندما كنت أنا في الثانوية، أرادتني أن أصبح جرّاحاً تجميليّاً. أحصيت أربعة عشر تمثالاً نصفيّاً لمؤلفيّن موسيقيّين موزّعة على قواعد من خشب الماهوغاني حول مكتبه.

أنهى محادثته، وارتفع صوت موسيقا بيانو مألوفة تدريجيّاً ليملأ الغرفة.

سألني: هل أنت إيدور جادجنسن أم أخوه التوأم؟

تساءلت بانزعاج فيما إذا كان عليّ أن أشعر بالسعادة لأني وصلت في النهاية إلى هذا الجرّاح الذي يشجّع فريق تشيلسي. أكّدت له مباشرةً أنّني خريّج هارفرد، ولخّصت له بشكل جديّ أحداث الأسبوع الفائت.

ضحك وهو يقول: "ما زلت لا أستطيع أن أصدّق أنّني أنظر إلى تركيّ في هيئة أمير فايكنغ"، وأوضحت له أنّ جدّي من أصلٍ سويديٍّ نقيّ.

– سيّد هارفرد، كان عندي العديد من المرضى الأتراك، لكنّهم

---

١ DM: بكالوريوس في الطب، BA (Hons): شهادة الماجستير بدرجة الشرف، BMBch: شهادة جراح زميل في الجامعة الملكية، FRCS (plast): شهادة عضوية في كلية الجراحين الملكية في اختصاص التجميل.

مكتبة الرمحي أحمد

جميعاً لا يعرفون عازف البيانو العالمي عادل بيرت. إذا عرفت من ألّف هذه المقطوعة التي نصغي إليها ومن العازف الذي يعزفها، سيكون بإمكانك ربّما أن تمحو الانطباع السيّئ الذي أحمله عن الأتراك.

(كان هورويتز عازف البيانو المفضّل لدى أبي!)

– من بعد إذنك سأجيب عن السؤالين. المقطوعة هي ٥٥ الحلم لشوبان الرقم ٢، والعازف هو فلاديمير هورويتز.

أذكر ضحكته العصبية وهو يقول: يجب أن أخرج إلى موعدٍ مهم، أدخل أميرتك مباشرةً.

دخلت إيز، محنية الرأس، مكسورة القلب كما لو أنّها محظيّة قليلة الخبرة، لكنه عندما وضع يده على كتفها وقال: "سأعيد إليك وجهك أيتها الجميلة التركيّة" شعرت بأنّي سأقبّل يده كما يفعلون في الأفلام التركيّة السخيفة.

كان يمكن لإيز أن تخضع للجراحة خلال أربعة أيّام، وسيكون علينا أن نبقى في لندن خمسة شهور بعد ذلك. كنت مدركاً تماماً أنّها ستحتاج لفترة طويلة من العلاج النفسيّ. وقد لفت الطبيب نظرنا إلى هذا.

أجريت العملية في عيادة "دعنا نواجه ذلك" المجاورة لصالة نادي تشلسي لكرة القدم. استغرقت العمليّة ثلاث ساعات ونصف، إلى أن جاءت الممرضة القبرصيّة، بلغتها التركيّة التي تتخللها عبارة "ميرسي جداً" في كل فرصة، وهي تحمل أخباراً جيّدة. خلال فترة العلاج السريري استأجرت شقّة مفروشة في منطقة لين بارك. وكنت أخطّط للذهاب إلى إسطنبول مرّة في الشهر لحضور لقاءات الإدارة.

مكتبة الرمحي أحمد

كان عليّ أن أشرف على الأعمال عبر الهاتف لأن خالي المتعذّر كبته ذهب في رحلة "استمناء حيّ" مع رسومات إيجون شيلي[1] في المعارض الأوروبية.

خرجت إيز خلال الأسابيع الأربعة التالية للتجول وهي ترتدي قناعاً واقياً من مادة شبيهة بالشاش. كانت مرهقة من تناول الأدوية المستمر. وكانت ترتجف عند تطبيق الكريم الواقي وتتنهّد بغضب وهي تقاوم الرغبة الشديدة لحكّ وجهها. بعد أن تخلد إيز للنوم، كنت أخرج للتجول في الشوارع مجدّداً قسمي بالانتقام. وبينما كنت أنتظر قرب سريرها في الحجرة ذات النور الباهت كي أعطيها الأدوية الضرورية في الثانية صباحاً، قرأت الأعمال الكاملة لتوماس بيرنهارد[2] وبول أوستر[3]. كان الطبيب سعيداً لدى الفحص الأوّل، وقد أوقف استخدام القناع، ومع تقليل جرعات الأدوية بدأت فترة المسّاج التي استمرّت ثلاثة أشهر. عندما جاء جيديز، شقيق إيز التوأم الذي يعتقد أن البيتلز قتلوا موسيقا البوب، مع أمه لزيارتنا، عدت إلى إسطنبول لأربعة أيّام. في اليوم الأول من عودتي، وبعد سلسلة من اللقاءات الإدارية، التقيت على الغداء بالمجموعة نفسها في مطعم

---

١ إيجون شيلي (١٨٩٠–١٩١٨): فنان نمساوي، كانت مواضيع رسوماته هي الرغبات والأحلام والانفعالات والحاجات النفسية الخفية وانعكس هذا على حركات الجسد وتفصيلاته في لوحاته التي كانت بالغة الدقة في التصوير.

٢ توماس بيرنهارد (١٩٣١–١٩٨٩): شاعر هولندي، كتب إلى جانب الشعر الرواية والمسرحية.

٣ بول اوستر: كاتب ومخرج أميركي لأبوين يهوديين من أصل بولندي. اشتهر بكتابة روايات بوليسية ذات طابع خاص، واشتهر كذلك بترجمته للشعر والكتب من اللغة الفرنسية.

مكتبة الرمحي أحمد

هونكار. وعرفت أن جوفتي الجاحدة بحيلها البيزنطية قد احتلّت مكان إيز في العمل، ولذلك لم تحضر الغداء.

رأى كاسناك المدير، الذي زرته في اليوم الأخير، أنني يجب أن أهجر هذه الفتاة، التي ستغرق في الاكتئاب حتى لو شفيت تماماً، وأن عليّ أن أجد وسيلة للزواج بأميرة أوربيّة من السلالة العثمانيّة. عرفت أنّني سأجد السيد جاهد في المخزن يراجع القاموس الموضوع على طاولته المتحركة. لم أفاجأ حين رأيته يبدو مذنباً وقد شعرت بالإرباك عندما رآني، لكنه انفعل عندما رويت له بالتفصيل ما حدث لنا. بدأت كلامي المحضّر مع صلاة:

– ... في الأيّام الغابرة انضمّ البعض إلى الطوائف الدينيّة ليكسبوا "تأشيرة دخول إلى الجنّة" أو "بسبب عقليّة القطيع". يقال إنّ والد كوتسي عديم الضمير، الحاج الكاذب، انضمّ إلى المجمع الديني ليكسب تأثيراً على التجارة، لكنّه ربح بضعة عروض لصفقات ولم يعمل أبداً في الشأن العام. هذا المنافق الذي يستخدم أي منفذ في النظام الماليّ ليدفع ضريبة أقلّ مما يدفعه مدرّس في مدرسة ثانوية طامحاً إلى حصاد خيرات الدولة كأنّها مزرعته الخاصة من خلال علاقاته مع الناس النافذين. بينما ابنه الخسيس يتمتع بحياة البذخ والتبذير من المال الذي يسلبونه من أفواه الناس. صديقتي، التي قُتلت تقريباً، تبكي باستمرار من الألم. الحقيقة أنّ هذا الرجل لا يجلس في زاوية ما من السجن ينتظر عقوبته، والحقيقة أن الناشرين الذين منحتهم حياتها رفضوا الحديث عن حالتها خوفاً. هذا ما يجعل دمي يغلي. سيد جاهد، إن لم ينل عقوبته ضميري لن يرتاح أبداً! أنا مستعدّ

مكتبة الرمحي أحمد

لدفع ثروة لأي شخص يساعدني...

لم أتوقّع أبداً أن يقاطعني مباشرةً رافعاً يده مثل رئيس قبيلة من الهنود الحمر.

– هل تسمع ما تقوله يا أردا؟ هل علّمتك الجامعة الأميركيّة أن تصحّح الخطأ بخطأ آخر؟ أنت شابٌّ ولأنّ ألمك ما زال حديثاً فإنّ ردّ فعلك يصل إلى أقصى حدوده. هذا سببه جزئيّاً أنّ الشباب حسني التربية أمثالك لا يتورطون في السياسات ولا يهتمون للواجبات العامة التي يبقيها النظام متخلّفة. معاذ الله، أنا لن أسيء أبداً استخدام هبة ربّي ولن أوجّه سلاحاً ضدّ أيّ خادم آخر لإرادته. لن أقتل سمكة ذهبية بعد ما حدث معي. بينما أنت تشتكي ظلم النظام يجب ألا تنكر العدالة المقدّسة لله العظيم. ليس هناك مهربٌ من عدالته. أخيراً، كيف يمكنك أن تتأكّد أن كوتسي الهارب لا يتلقّ عقابه المقدّس في هذه اللحظة؟

جعلني ردّه، الذي كان موجزاً أكثر مما توقّعت، أغضب أكثر. قلت له:

– لم يبقَ سواك لم يتحدّث باسم الله بعد يا جاهد جفتجي. هذا البلد، باسمه من المفترض، قد عانى ما يكفي من هؤلاء الذين يستفيدون من سذاجة الناس. لن أنام في سلام حتى يدفن كوتسي في الألم العميق مثل ما هي إيز. إلى جانب ذلك، من هذا الذي يستطيع أن يقول أن محاولتي لمعاقبته ليست قدراً مقدّساً؟

غادرت دون وداع، وكلانا كان يعرف أننا لن نرى بعضنا ثانيةً على الأرجح.

مكتبة الرمحي أحمد

قبل أن تقلع الطائرة المتأخرة إلى لندن اشتريت لإيز مجلاتها الهزلية الغريبة المفضّلة لديها وحبّات الكستناء المغطاة بالشوكولا وأحدث قرص مضغوط لسيزن أكسو.

عادت روح إيز الطيبة من جديد جزئيّاً عندما شُفي وجهها بشكل أسرع مما توقّع الطبيب روهاتجي. وصلت زهال وظافر في زيارة مفاجئة إلينا. وفي المرة الثانية التي عدت فيها من زيارة إسطنبول جلبت معي إفاكت في زيارة استمرّت أسبوعاً. خالي، الذي كان في رحلة استمناء قوي لزيارة التماثيل العارية التي تعود لما قبل الميلاد والموجودة في متحف الميتروبوليتان ومتحفَي بوسطن واللوفر، زارنا وبقي معنا لفترة في لندن. بدأت إيز منذ شهر تشرين الأول/ أكتوبر تجالس الناس بارتياح. قمنا برحلات ممتعة برفقة الممرضة سراب وزوجها خبير الحاسوب ووصلنا حتى إنفرنس. في رحلتي الثالثة إلى إسطنبول كتبت رسالة لكوتسي سيرحمزة، وعلى الفور ندمت على ذلك وبدأت أخاف من افتقادي للثقة بالنفس:

ستدفع غالياً ثمن فعلتك!
شيطانك الذي لن يفارقك...

شُفي وجه إيز تماماً في منتصف كانون الثاني/ يناير. وفضّلنا أن نتجاهل التأثيرات الجانبية (فقدان جزئي للرؤية في عينها اليسرى، وفقدان القدرة على تحريك حاجبيها وجبينها). في زيارتنا الأخيرة إلى عيادته دعوتُ الطبيب روهاتجي لزيارتنا في إسطنبول وقدّمت له حامل سيجارٍ فضيٍّ يحمل خاتم السلطان عبد الحميد الثاني.

مكتبة الرمحي أحمد

قال بينما كان يودّعنا:

– أعرف أنّك تتساءل لماذا أرفض القيام بجراحة تجميليّة لوجهي القبيح. عزيزي خريّج هارفرد، لقد حلمت أنّه إذا مسّت يد جرّاحٍ ما وجهي فسأخسر موهبتي في الجراحة.

تذكّرت حكمة السيّد جاهد الذي يرفض استخدام موهبته في الرمي بمهارة ضدّ أيّ إنسانٍ آخر. مكتبة *الرمحي أحمد*

أردت أن أُحرج سلجوق ألتون لدى عودتي، فاشتريت نسخة نادرة من كتاب **مسدس للبيع** موقّعة بقلم غراهام غرين، من بائع الكتب المستعملة المفضّل لديه. (أردت أولاً أن أستثير شهيّته بعرض الكتاب عليه وبعدها أقرّر إذا كنت سأعطيه له أم لا.) قبل ثلاثة أيّام من لمّ شملنا في إسطنبول، أخذت كلّ النقود المعدنيّة من فئة البنس والبنسين التي وجدتها في علبة المطبخ، وأعطيتها لفتاة فقيرة كانت تُرضع طفلها في محطة البيكعادللي. وقد وبّختني قائلةً:

– كم زجاجة حليب تظنّ أنّني أستطيع أن أشتري بهذه؟

كان واضحاً من نبرة صوت زهال عندما اتّصلت في ساعات الصباح الباكرة من اليوم التالي أنّها تحمل أخباراً صادمة.

– فيما أنا أتساءل كيف سأنقل لك الخبر الأول، سمعت خبراً آخر يجب أن أخبرك إيّاه. أمس الأول، بينما كان صاحب المتجر الغدّار وعائلته في نزهة إلى غابة بلغراد أتت النار على متجرهم وبيتهم بالكامل. أمس مساءً، بينما كان كوتسي في طريقه إلى ساحل البحر الأسود في سيّارته المرسيدس صدمته به سيّارة شاحنة لا تحمل لوحة رقميّة من الجانب ودفعته إلى داخل حفرة. كسر الوغد المسكين

مكتبة الرمحي أحمد

رقبته، وهو الآن في كرسي متحرّك! أردا، أعتقد أنّ مثل هذه المصادفات تحدث فقط في الأفلام والروايات...

كنت مذعوراً ولا أدري ماذا أقول. طلبت حلبة الرماية على الهاتف، وعندما أخبرت كاسناك أنني أريد التحدّث إلى سيّدي، أجاب: "عليك أن تنتحر يا بنيّ" (جاهد جفتجي انتحر قبل أسبوعين.) وحين عرف أننا كنّا عائدين إلى إسطنبول في نهاية الأسبوع، فقط طلب بأدب زجاجة كونياك نابولي.

ذهبت لرؤية إيز التي تحزم حقائبها وهي تسمع أغاني سيزن أكسو، وكان يتملّكني إحساس كما لو أنّ أحدهم قد لكمني مرتين على ذقني. نقلت الأخبار لإيز بمنتهى الجديّة. مالت إيز برأسها، ربّما لتتجنب رؤيتي أكذب، وسألتني:

– هل تمّ هذا بأوامرٍ منك أردا؟

(أدركت من نبرة صوتها أنّها لم تكن تتهمني.) وأنا أداعب وجهها، الذي ببراءة وجه طفل، لم أنسَ أن أقول: لو أنّ سيدي جاهد لم يمت قبل أسبوعين، ربّما ما كان جوابي هو "لا".

مكتبة الرمحي أحمد

- ب -

"السجين ليس من ارتكب جريمة، بل من يتعلّق بجريمته ويعيشها مرّة بعد أخرى.

جميعنا نشعر بذنب الجريمة، الجريمة الكبرى لعدم عيش الحياة بالكامل."

(هنري ميلر، الأحد بعد الحرب)

هل هو مجرّد أحمقٍ قبيح من يصادق المرايا؟ لقد استشرت مرآتي ثلاث مرّاتٍ في اليوم. عندما سمعت ما قالوه من وراء ظهري في تارلاباشي - "هل يمكن لهذا الشخص القبيح أن يكون ابناً لرجل وسيم يشبه الممثل قادر إينانير؟" - اعتقدت أنني ما زلت أعاني نفحاتٍ غاضبةً أخرى من الله.

وفقاً لتقويم البشريّة، إذا كانت السنة من عمر الكلب تكافئ سبع سنوات ونصف من عمر الإنسان، ألا يعني ذلك أنّني قد بلغت ٣٠٠ سنة؟

عكست ذلك على فكرة لو أنّي حُكمت بالسجن عشرين عاماً

مكتبة الرمحي أحمد

عن كل حياةٍ أنهيتها، فأنا لا أستطيع أن أحسب كم يجب أن تكون مدّة العقوبة الإجماليّة.

أدركت، دون مساعدة سيدي جورسل حتّى، أنّ الكتب هي الأصدقاء الخونة. (لكن لا تدعهم أبداً يكتشفون ضعفك.) وضعت جانباً الكتب الأربعين الأقل ضرراً وأحرقت البقية كعقاب.

أدركت أيضاً أنّني ما لم أعترف لمعلّمي بأنّني كنت قاتلاً، فسأقع تدريجيّاً تحت سيطرة الإحساس بالذنب، لكنّه رفض أن يصغي.

– لا أعتقد أنّ لديك أيّ شيء تخبرني به عن نفسك لم أتمكن من معرفته سلفاً. الجزء الأكثر غموضاً في فكرة الجنّة والنار هو افتقادنا للمعرفة الدقيقة لقواعد الدخول إليها. يذهب قاتلٌ ساذجٌ وقع في الفخ إلى الجنة، وموظّفٌ شريفٌ تسبّب لبلده بضررٍ بقيمة ملايين الدولارات، ليس عمداً وإنما عن طريق الخطأ، يذهب إلى النار.

هذا ما قاله الرجل المقدّس.

هل أشار خادمكم الأمين لكم إلى آخر ما كتبه في المفكرة التي كان يحتفظ بها؟

الحظ الوحيد الجيد الذي صادفته طوال حياتي كان صداقتي مع أكثر الرجال حكمةً في المدينة، هو الذي هرب بعيداً ليختبئ بين المرضى المقيمين في مستشفى ليهرب من فوضى الحياة الضحلة حوله.

حسب ما جاء في العهد القديم، فإن ميتوشالح، جدّ نوح عليه

مكتبة الرمحي أحمد

السلام، عاش ٩٦٩ سنة، ووفقاً لإسحاق ب. سنجر [١]، فإنّ عشيّة الطوفان لا بدّ أنّه كان يشعر بالملل من حياته.

هناك مبرّر للقتل، ولكن ما من عزاء للضجر...

للحصول على كتبنا قبل الجميع
بروابط تحميل مباشرة
تابعونا
على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد
facebook.com/ktabpdf
على تيليجرام
telegram @ktabpdf

١ إسحاق باشفيش سنجر (١٩٠٢-١٩٩١): روائي وكاتب قصة قصيرة، حائز على جائزة نوبل للأداب عام ١٩٧٨.

مكتبة الرمحي أحمد

- أ -

”هل الموت ذكر أم أنثى؟“

(معمّر القذّافي، الموت، ١٩٩٦)

عندما قالت إيز إنّها ستنتقل للعيش معي ظننتها تمزح. وقد قبلت إفاكت الأمر على أنه إرادة الله آملةً أن يضفي ذلك بعض النور والانسجام لبيتنا.

لا أذكر أنّي تناولت يوماً وجبةً ألذّ من تلك التي تناولناها معاً ليلة رأس السنة، والتي تألفت من كرات اللحم النيء، الكباب الجاهز والخيار المخلّل والحلويات العثمانيّة. (شاهدنا فيلماً مثيراً للفكر اخترته عشوائياً من مجموعة أبي، قبل أن نخلد للنوم عند منتصف الليل.)[١] بدأت إيز بعد يومين تعمل كمستشارة علاقات عامة في شركتنا. لو رأى أبي المقالات المميزة التي كتبتها في النشرات الدورية الاستفزازية كان سيقول: ”سنجابي، اجثُ أمام أمّك إذا اقتضى الأمر، ولكن لا تدع هذه الفتاة الرائعة تضيع منك“

١ فيلم ”أحضر لي رأس ألفريدو غارسيا“ لسام بكنباه.

مكتبة الرمحي أحمد

على الرغم من انخفاض الستة أصفار الذي عانت منه الليرة التركية، إلاّ أنّ شركاتنا كانت لا تزال تعمل بشكل جيّد. لم تكن هناك رسائل هزليّة من الخال، الذي كان مشغولاً باستكشاف المعالم الأثرية في كاليفورنيا التي ذُكرت في قصص وليام سارويان[1]. أستيقظ كلّ صباح وأنا أشعر بعدم الارتياح لاحترامي المتزايد لإيز. ارتعشت فجأةً وأنا أذكر كلمات بطل الرواية التي كنت أقرأها: "زوجتي وأولادي في الغرفة المجاورة، وأنا في صحة جيدة ولديّ ما يكفي من المال. إلهي، أنا حزين جداً"

(لا بدّ أنني كنت أفتقد ملاكي الحارس، الذي اتفقت أمّي معه على حمايتي بعد موتها.)

إذا لم تكن إيز في العمل، فإنّها تلتصق أمام التلفاز تتابع أفلام الكرتون والألعاب الأولمبيّة في أثينا. لاحظت أنّها كانت تفضّل أن تبقى وحيدةً وكانت سعيدةً بالخروج إلى أقرب سينما.

تأثرت بشكل غير متوقّع بفيلم وثائقيّ يحمل عنوان "أبي، المهندس المعماري"، وفيه يحاولُ ناثنيل كان أن يكتشف وجه أبيه لويس كان[2]. كان سطحاً يشبه صحراء مليئة بالحفر التي نتجت من حادثٍ تعرّض له وهو طفل في إستونيا. عندما قلت مفترضاً أن إيز ربّما تكون مهتمّة بشخصيّة كان (الذي كان قبيحاً ومشوّهاً ومتغطرساً) واختلافه عن أبناء جيله، كان كلّ ما قالته، دون أن تحرّك عينيها عن شاشة التلفاز: "لا يمكنني أن أهتمّ بأي شيء أكثر من

١ وليام سارويان (١٩٠٨-١٩٨١): روائي ومسرحي أميركي من أصل أرمني.

٢ لويس كان (١٩٠١-١٩٧٤): مهندس معماري أميركي.

مكتبة الرمحي أحمد

نهائيّات الترامبولين"

وصلتني رسالة ثانية إلى مكتبي:

٠٢,٠٤,٢٠٠٥

صديقي أردا إرجينكون:

هل أنت مستعدّ لمعرفة من قتل أباك؟

لن تبغضه أكثر منّي.

بما أنّ الحياة مسرحيّة من ثلاثة فصول، أقترح أن أقدّم لك ستّة أدلّة متتالية. (إذا أخطأت في أداء دورك فأنت لن تحظى بفرصة ثانية.)

إذا وصلت إلى المرحلة السادسة، سنتخلص منه سويّة.

سيكون الدليل الأوّل جاهزاً بتاريخ ١٢,٠٤,٠٥، والثاني في ٢٢,٠٤,٠٥

سمِّ بالله واذهب إلى متحف كاري وابحث عن الرقمين في الساحة الوسطى...

كان الأشخاص الوحيدون الذين عرفوا أنني بدأت البحث عن قاتل أبي، غير السيد جاهد، هم خالي الطيب القلب وسلجوق ألتون الكريه وإيز وعادل كاسناك.

أدركت وأنا أرتجف، من الجمل الاعتراضية المبعثرة بشكل عشوائيّ بين سطور رواياته المكتوبة بسرعة، أن تلك الرسالة، بنغمتها التفخيمية المرضيّة، هي من سلجوق ألتون. (هذا هو الوقت لمعالجة

مكتبة الرمحي أحمد

هذا المختلّ؛ أنا لا أهتم إذا كان يراني مغفلاً ومتسكّعاً كسولاً.)

متحف كاري

تذكّرت الرحلات التي قمت بها برفقة أبي إلى قناة فالنس والعجائب الفوضوية لنوافذ مخزن زين العابدين للموسيقا. وكيف كنّا نذهب بعد ذلك إلى سوق الهورهور حيث كان أبي يقول: "لقد توقفوا عن تقليب صفحات الرزنامة هنا قبل ثلاثين سنة" كنّا نتناول الشاورما التركية الخاصة في مطعم البيتا المعزول.

أعتقد أنّ أبي كان يمزح عندما قال إن الإمبراطورية البيزنطية خلال مؤامراتها حفرت نفقاً تحت الأرض بطول ثلاثة كيلومترات بين جامع السلطان أحمد الملكي وسوق هورهور. وبعد ١٠٠٠ سنة كنت أشعر بعدم الارتياح ونحن نمرّ من هناك كأنني أدخل بلداً أجنبيّاً. تخيّلت حتّى أنّ السلطان محمد الثاني، فاتح إسطنبول، قد يُصعق لرؤية مثل هذه المواكب من النساء المحجّبات.

أعتقد أن الأبنية القبيحة المحيطة بمتحف كاري، الذي احتفظ بسحره البسيط ١٥٠٠ سنة، قد زادت من فتنته. هذا البناء الأثري الذي كان في البدء كنيسة ثم أصبح جامعاً وتحوّل مؤخراً إلى متحف يجذب السيّاح الأجانب بمعدل أكبر من الطبيعي بثلاث مرّات. عند مدخل المرحاض قديم الطراز في الفناء، ذي الأعمدة القصيرة الثخينة، كان هناك كشك لماسح أحذية، وفي الداخل كانت تباع تذكارات منطقة كابادوكيا بمرافقة موسيقا الأرابيسك. وكما لو أن كلّ الأنواع المختلفة للزجاج المستخدم في النوافذ المشرفة على

مكتبة الرمحي أحمد

فناء المتحف لم تكن قبيحة بما يكفي، فقد تمّ حشو أوراق الصحف في ألواح الزجاج المكسورة. في القسم الأمامي كان هناك أنبوب بلاستيكي مقزز لتصريف المياه القذرة ممتدّ من السطح إلى الأرض ومخفي نوعاً ما بالأشجار الشامخة هناك. ذعرت وأنا أرى هذا المنظر - كان كمن يرمي الأسيد على وجه ملكة جمال - شعرت بالخجل من المعماريين المجهولين الذين بنوا كاري العظيم ومن حرّاسه البيزنطيين والعثمانيين.

عرفت أنّ المتحف لن يكون مزدحماً عشيّة الموسم. القسم الذي تصطفّ المساجد والكنائس على جانبه يسمّى بالعربيّة "صحن" أردت أن أنظر - للمرة الأخيرة ربّما - إلى الفسيفساء والرسوم الجصيّة النادرة في جامع/ كنيسة كاراي. قال أبي إنّ الرسوم الجصية كانت "أكثر الأعمال البيزنطيّة البصريّة إدهاشاً". (كان يرى أن الفنانين الأتراك بعد ناظم زيا لم يقتربوا من عمق الرسم الجصّيّ المعروف بالمذبحة الآشورية.) متعباً من مراقبة فتاة هبيّة تتفحّص الرسوم في الطريق المؤدي إلى صحن الكنيسة الخارجيّ بواسطة منظارها، والزوجين الإسبانيين الأنيقين اللذين كانا يتشاجران بين القبور، انتقلت إلى وسط باحة الصلاة. عند المدخل كان هناك صفّان من السائحات ولم تفاجئني رؤيتهن يتثاءبن وهنّ يستمعن لحديث الدليلة السياحية التي كانت تتحدّث الإنكليزية بشكل سيّئ. تساءلت بسخريّة، فيما لو كنت صائد نساء سوقيّ، أيّاً من هذه الآثار المليئة بالسيللوليت كنت سأختار؟

بدأت أشكّ أنّ سلجوق ألتون بعقله المنغلق كان يقصد تقديم أدلّة

مكتبة الرمحي أحمد

تسخر من شغف أبي بالتاريخ والرياضيات. دعيت إلى المتحف في ١٢ نيسان/ أبريل لإيجاد رقمين، برسالة مؤرّخة في ٢ نيسان/ أبريل. كلمات الرسالة كانت مرتبطة بشكل أساسي بالأرقام. اعتقدت أنني ربما أكتشفهما كزوج أو كنقطتين متعاكستين. عندما رأيت أخيراً أيقونتين ضخمتين عند نهاية القبة، شعرت الراحة الخالصة بعد أن اجتزت الامتحان.

اقتربت من الفسيفساء المهيبة المليئة بالأمل والأرقام الموحية بالرهبة تدور في رأسي.

عندما أصبح المكان مسجداً في القرن السادس عشر، أُزيلت عينا المسيح عليه السلام. (ولكن في الجناح الأيمن، يمكن أن تشعر بالحدس المسبق في عيني مريم العذراء القلقتين المثبتتين على طفلها.)

على طول قاعدة الفسيفساء التي كانت بارتفاع مترين فوق الأرض كانت هناك أغطية واقية بطول شبرين. لم أكن مخطئاً في افتراض أنّه حتى اللص قليل الحذر سيخفي أدلّته تحت هذه الأغطية، بدلاً من وسط الأيقونات. رأيت الرقمين (٣٨) و(٢٤٨) محفورين بسكين على جانبي الواقيات البلاستيكية. غادرت المتحف وأنا أتذكّر كلمة بسملة في الرسالة الأخيرة وأعزّي نفسي بفكرة أنّ هذين الرقمين المنقوشين بسرعة ربما يحملان رسالة نصيّة وفقاً لطريقة الكتابة بالشيفرة الرقميّة الحرفيّة "الأبجد"[١].

١ الأبجد: طريقة لكتابة كلمة أو ظاهرة بتخصيص أرقام مقابلة للحروف في الأبجدية العربية.

مكتبة الرمحي أحمد

رجعت إلى المكتب في سيّارة أجرة مكتوب على صندوقها "تجاوزني على مسؤوليتك" عرفت أنّ عليّ أن أخفي التطورات عن إيز، التي تسمح بتوجيه أبسط انتقاد لسلجوق ألتون، حتى يصبح لديّ دليل. في الطريق شعرت بالاضطراب من فكرة أن أكون مراقباً وسط قصّة بوليسيّة.

عندما سمعت أنّ ألتون كان لديه مسبقاً كتاب غراهام غرين الذي وقّعه لعشيقته الأولى، دوروثي غلوفر، قرّرت أن أهدي النسخة التي ابتعتها من لندن إلى البروفسور هالوك أورال، جامع الكتب الموقّعة. وتمكّنت بمساعدته أن أستخدم طريقة "الأبجد" لحل شيفرة الأرقام القدريّة ٣٨ و٢٤٨، وأعرف أنّها كانت تعني "مقبرة الجلادين"

***

الجلادون، مقبرة الجلادين

سافر خالي إلى موسكو وهو يطارد كتاباً مغرياً وجده في متجر للكتب المستعملة، وهناك قام بزيارة المشافي النفسية الواحدة والثمانين التي أنشئت في فترة الاتحاد السوفييتي، حيث تم إرسال المثقفين إليها "للعلاج". في هذه الأثناء كتبت إيز مقالة بعنوان: "إسطنبول: مدينة الخير والرعونة"، تحدّثت فيها عن كيفية تنازع شخصين في مطعم للكباب بيأس على من يدفع الفاتورة، وكيف أن نفس الشخصين يدمّران نفسيهما في ازدحام السير، وكلٌّ منهما يرفض أن يعطي طريقاً للآخر. عادل كاسناك، الذي أصبح مديرَ الأمن في شركتنا ابتداءً من

مكتبة الرمحي أحمد

شهر نيسان/ أبريل، قرأ مقالتها مرتين وقال: "بنيّ، لو أن فتاتك كتبت عن الأربع مليارات رغيف من الخبز التي ترمى في القمامة في بلد فيه ٧,٠٠٠,٠٠٠ شخص يعيشون بأقل من دولارين في اليوم، هل كان قرّاؤها سيتنكّرون لها؟"

لم أستطع أن أجد شيئاً حول الجلادين أو مقبرة الجلادين في الموسوعات أو حتى على شبكة الإنترنت. اتّصلت بسلجوق ألتون، قبل أن يتمكن مني الإرهاق. عرفت أنّه سيكون مفيداً دون أن يقدّم الكثير. نصحني بالتوجّه إلى نيدريت إيشلي العامل في مجال الكتب المستعملة في متجر اسمه تركواز. شعرت بالارتياح لنيدريت ورفيقه بوزانت اللذين كانا يصرخان على بعضهما في المتجر الصغير الضيق الواقع في شارع جانبي في بيوغلو. (على الرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهاها في إدارة متجر للكتب المستعملة في بلد يعاني سكّانه من إعاقة في القراءة، فهما لم يكونا تعيسين.) بناءً على الكتيب الذي وضعوه يدوياً فإنّ المقبرة كانت تقع على منحدر قرب مقهى بيير لوتي[1] التاريخيّ في أعلى تلة حيّ السلطان أيّوب:

> شيّدت حجارة ضخمة فوق القبور، تعادل بارتفاعها طول الإنسان. على الرغم من أن هؤلاء الجلادين كانوا ينفّذون الأوامر فقط، إلاّ أنّهم عموماً كانوا مكروهين على الدوام، وقد دُفنوا بشكل منعزل، ولم يقبل الناس أن يتم دفنهم في المقابر العامّة.

١ بيير لوتي (١٨٥٠–١٩٢٣): كاتب فرنسي عمل ضابطاً في البحرية، وقد عشق اسطنبول وذكرها في رواياته فأطلق اسمه على مقهى فيها تخليداً لذكراه.

مكتبة الرمحي أحمد

كان يفترض أنّ خير الله من قره جمرك المجاورة، إلاّ أنّه، ورغم تحذيراتي، قام بدورتين خاطئتين قبل أن يجد مقهى بيير لوتي. كانت قد أعيدت تسمية المقهى التاريخي باسم بيير لوتي بعد أن تكررت زيارة الكاتب المشهور إليه لمشاهدة المنظر البانورامي لإسطنبول والقرن الذهبي. اعتقد أبي أنّ العثمانيّين قد أبدوا حفاوةً مبالغاً فيها لبيير لوتي، ذاك الفرد الغريب الذي استمر وجوده عدة أجيال، وقد أطلق أبي على الحماس الصادق تجاه الأجانب، سواء كانوا فرق الرقص البلقانية أم حكّام كرة القدم الزوار، "تزامن بيير لوتي". بعد أن تناوت القهوة التي بلا طعم، مثل قهوة إفاكت، التي أحضرها نادل يرتدي مئزراً فوق الثياب ويقوم بالخدمة مكرهاً، خرجت من المقهى وأنا أستمتع بصمت بقدوم الربيع، ومشيت غير واثقٍ نحو المقبرة العثمانيّة، مستعيناً بخريطة قياس ١/٢٠٠٠ موجودة على ظهر الكتيب. على التلة الوعرة، حيث يقال إنّ مقبرة الجلادين تقع هناك، كانت هناك مقبرة – عمرها ربما قرن من الزمان – فيها العديد من الشواهد التي تؤكّد أن أصول موتاها تعود إلى البحر الأسود. عندما سألت الشاب الأسمر، الذي كان يمشي قافزاً، وبدا كما لو أنه متطوع في الجيش يقف مرافقاً، أين تقع مقبرة الجلادين، أجابني: "والله لا أعرف، لقد أتيت من الشرق منذ شهرين فقط"

عندما ذعر الشخصان الآخران اللذان سألتهما عندما لفظت كلمة "جلادين"، قررت أن أتّصل بألتون من جديد. انسحبت من موقع الاستكشاف، وتجولت في محيط المقبرة المجاورة حيث تقف شواهد أضرحة نخبة من العثمانيين، إلى أن وجدت قبراً مهدّماً

مكتبة الرمحي أحمد

للسلطان بيازيد الثاني شيخ الإسلام، الذي كان أباً لـ٩٩ ولداً. مشيت في المنطقة المجاورة التي كانت بدون أسوار. خامرني شعور متزايد بالراحة الداخلية عندما وصلت إلى مسكن الراحة الأبدية للمشير جقماق، رجعت.

عندما سمع ألتون أنّي لم أتمكّن من إيجاد ما توقّعته على تلال أيوب، نصحني، بثرثرته العصبية، أن أقصد يوجين جينيال، الذي دعاني إلى منزله الواقع في الحي الجنوي في جالاتا، لتناول السحلب معه في الليلة التالية. أعجبت بالقائمة العالميّة من الأسماء التي كانت على مدخل العمارة السكنية الأثريّة التي كانت بحجم قلعة. بينما كنت أصعد في المصعد القديم، ارتعشت وأنا أتذكّر أن جينيال الذي تجاوز عمره السبعين والذي كتب باسم مستعار، إنجن جينال، كتباً حول العمارة، وكان موسوعة متنقلة يتقيّأ معرفته في كلّ مناسبة. تماماً قبل أن تلامس يدي الجرس كان الباب قد فتح حتى المنتصف مع صوت صريرٍ إيقاعيّ. أعتقد أنّ العملاق بعينيه الزرقاوين وشعره الرمادي المحمرّ كان يشبه بابا نويل وخير الدين بارباروس العثماني. وحين لاحظ أني كنت أنظر إلى مريلته الأرجوانيّة، قال دارس تاريخ الفنون المشرقيّة: "كنت أعدّ فطيرة التفاح لأجلك"، وحالما سمع اسمي بدأ يتحدّث بصوتٍ عالٍ ونحن أمام الباب: "أردا يعني في الواقع المياه الجارية، إنّه نهرنا الوحيد الذي لم يغيّر اسمه منذ العصور القديمة. الكلمة المستخدمة للدلالة على المياه الجارية أو النبع باللغة الأرمنيّة هي أرو وبالفارسيّة القديمة أديا..." لعنت سلجوق ألتون الساديّ في سريّ وأنا أنتظره لينهي تحيّته. بينما كنت أتجوّل في

مكتبة الرمحي أحمد

الشقّة الواسعة ذات السقف العالي، التي كان حتى المرحاض فيها يحوي صورة لقصر توبكابي، خطوت بتردد على السجاد الحريري. كانت جدران غرفة الجلوس مزيّنة بلوحات منقوشة بالخط العثمانيّ مع أختام، وكانت هناك رسوم تعرٍّ مشرقيّة في غرفة النوم. أعتقد أن النقوش التي أبدعها المهندس المعماري ج. ب. بيرانسي[1] كانت تناسب تماماً خزائن الكتب الماهاغونية في مكتبه. ولقد أجاب عن سؤالي: "هل أنت مولعٌ بلويس كان؟" بقوله: "لقد اعتاد كان أن يجلس أمام نقش بيرانسي في مكتبه الفوضوي في فيلادلفيا"

كان واضحاً أنّ المرأة الشابّة التي أنّبها بالروسيّة، والتي حملت القهوة والفطيرة إلى الكرسي المميّز ذي المسند في الصالة حيث كنت أنتظر بقلبٍ مرتجف، ليست خادمته. بدلاً من أن أدخل مباشرةً في الموضوع الأساسي الذي أتيت لأجله وأغادر بعد ذلك، شعرت برغبة في جعل هذا المشرقيّ العتيق يتحدّث. عرفت أنّ مجرّد الإشارة إلى صورة العائلة الموضوعة على المنضدة في الوسط كان كافياً ليبدأ خطبته ويروي سيرته الذاتيّة:

– أنا الفرد الأخير من العائلة الجنوية التي عاشت في جالاتا منذ القرن الرابع عشر ولم تقطع روابطها مع إسطنبول أبداً. بفضل أجدادنا، الذين أصبحوا أثرياء من تجارة النسيج خلال العصور البيزنطيّة والعثمانيّة، فإنه لم يكن على أي فرد من عائلة جينيال أن يعمل خلال المئتي سنة الأخيرة. أستطيع أن أميّز الآثار البيزنطيّة والعثمانيّة حجراً حجراً من تلمسّها وعيناي مغمضتان. لقد زرت كلّ

---

١ جيوفاني باتيستا بيرانسي (١٧٢٠–١٧٧٨): فنان إيطالي شهير.

مكتبة الرمحي أحمد

مدينة ساحليّة تحوي متحفاً على سطح الأرض، وقضيت الكثير من الوقت في القراءة وتعلّم اللغات بحيث لم يبقَ لديّ الوقت لأكتب ما أريد. بالنسبة لي فإنّ فكّ رموز المخطوطات المكتوبة باللغات الميتة هو شغفٌ عظيمٌ. إذا متّ قبل سلجوق ألتون فأنا سوف أترك له كنز مخطوطاتي المؤلّف من ألفي مخطوط. في اللحظة التي سأشعر بها أني فقدت مناعتي للوحش الذي يتحرّش بجسد إسطنبول وروحها، سأهرب إلى شقيقتي في جنوا.

لقد مسّني ذاك الوميض المعترف بالجميل في عينيه عندما تحدّث عن والديه. (من المثير كيف أنّ المشرقيّين لا يستشرقون عندما يتعلّق الأمر بالعائلة.) عندما خرجت رفيقته، آنّا، من الغرفة بعد تأنيبها لأنّها قدّمت لنا الكونياك في أكواب غير مناسبة، صرّحت لمستضيفي عن سبب زيارتي:

– سيّدي، أنا أحضّر شيئاً للمشاركة في مسابقة للكتّاب الهواة. يبحث بطلي عن قاتل أبيه، وعليه أن يجد سلسلة من الأدلة في ستّة مواقع تاريخيّة. لا أعلم لماذا، لكن الموقع الثاني الذي اخترته كان مقبرة الجلادين. وآسف للقول بأنّي لم أستطع أن أجدها على منحدرات أيوب. وقد وجدت أنّ اكتشاف السبب في ذلك ربما يساعدني في عملي أكثر من التخلّي عن الفكرة...

– يجب ألاّ يفاجأ المرء من الناس الذين يفتقدون الاحترام تجاه الموت عندما يكونون غير قادرين على احتضان الحياة. لقد أصبحنا شعباً محدود الإحساس بالتاريخ، نستمتع بالانتصارات العرضية على أرض المعركة وبالقصص السخيفة عن الباشوات المخنّثين. حتى وإن

مكتبة الرمحي أحمد

بقي الجلادون المجنّدون منبوذين حتّى في قبورهم، فالحقيقة أن المقبرة في منطقة أيوب لها دلالة. خلال تمدّد المدينة الخارج عن السيطرة أصبح المكان مقبرةً عامّة، والناس عديمو الإحساس الذين سمحوا بأن تكون أرض الموتى الجدد فوق المقبرة القديمة سمحوا بتخريب النسيج التاريخي لأيّوب إلى الأبد.

نُصبت الحجارة الضخمة، المنقوشة بخشونة، لتبدو كأنها شواهد أضرحة للجلادين. عندما يُنبش الموضوع مرة كل أربعين عاماً أذكر أيّ مشهدٍ صاعق تمثّله هذه الحجارة المظلمة، المليئة بالحفر ومن دون أسماء. المساعدة الوحيدة التي يمكنني أن أقدّمها لك هي أن تحاول وستجد صورة لم ترَ النور بعد حتى اليوم أحفظها في أرشيفي.

كان هذا ما قاله.

حالما نظرت إلى الصورة الباهتة في صندوق الكرتون الفينيسي الذي وضعته آنا أمامي أدركت مباشرةً كيف يمكنني أن أصل إلى الدليل، وتمكّنت بصعوبة من منع نفسي من الهتاف بسرور. قلبت الصورة بين أصابعي وأنا أحاول إخفاء إثارتي، ولم يعد لديّ صبرٌ لانتظار الصباح.

لم أستطع وأنا في طريقي إلى الخارج أن أقاوم الرغبة بطرح سؤالٍ عن كيفية لقائه بسلجوق ألتون.

"لقد أتى إليّ مثلك تماماً طالباً المساعدة لروايةٍ كان يكتبها"، وأضاف بعد ذلك: "لكنه كتب واحدةً بالفعل". شعرت بالإحراج بفعل المفاجأة، وهربت مباشرةً من النظرة اللائمة التي وجّهها إليّ بعينيه الزرقاوين.

مكتبة الرمحي أحمد

أنّبت نفسي أثناء نزولي بالمصعد لأنّي لم أدرك مباشرةً تورّطه في حبكة سلجوق ألتون.

للمرة الأخيرة توجّهت إلى مقبرة الجلادين معزيّاً نفسي بحقيقة أنّ إيز لن تضغط عليّ حتى إذا عرفت أنني أخبّئ شيئاً ما. انتبهت في زيارتي الأولى وأنا في طريقي إلى أسفل التل أنّ هناك اختلافاً في إحدى الدرجات. ولقد لاحظت في الصورة التي عرضها جينيال عليّ أنّ هذه الدرجة بالذات قد تمّ تحويلها من شاهدة ضريح استُخدمت في مقبرة الجلادين. اقتربت بمنتهى الاحترام من الحجر المسامّي القديم الذي بدا كما لو أن مجموعة من الجلادين قد أطلقوا مئات الرصاصات عليه وفكّرت كيف أن جينيال المهتم بجمالية التاريخ سيثور غضباً إذا ما رأى أن العنصر الأثري الأخير في الموقع التاريخيّ يُستخدم كحجرٍ في درج.

انتشلت قطعة الكرتون الصغيرة التي وضعت في أكبر شق كان في الحجر وعلى جانبيها كُتب بواسطة قلم كلمتي: "إيزنيك" و"نايك"

لقد تعلمت في المدرسة الابتدائية أنّ اسمَي مدينتَي إيزنيك ونايك مستعاران من آلهة النصر "نايك". وعندما تقول نايك في إسطنبول فإن الأثر الأول الذي يتبادر إلى الذهن وهو الأثر المفضل لدى أبي: كيزتاشي (برج العذراء) في مقاطعة فاتح. رجعت وأنا أشعر بالسعادة لأني سأذهب إلى برج العذراء في صباح ٢ أيار/ مايو.

لا بدّ أن ألتون قد قرّر أن يعطي في ألعوبته دليلاً مزدوجاً في حال سافرت إلى إيزنيك. هل كان يتسلّى بمعاملته لي بشكل منطقيّ كشخص ذكي في المرحلتين الأوليتين، لكنه يحاول أن يزيد التوتر

مكتبة الرمحي أحمد

في المرحلة التالية؟ لم أستطع أن أنام في تلك الليلة، بقيت مستيقظاً وأنا أشعر بتشنّج هائل في جنبي الأيسر من حلم راودني رأيتُ فيه أنّ سلجوق ألتون كان أبي. بدأت أتساءل عن مدى العلاقة التي كانت تربط أمي بصديق العائلة الغريب هذا.

***

كيزتاشي/ برج العذراء

حين وصلت رحلته الروحيّة إلى خاركوف في أوكرانيا كان خالي مرهقاً جسدياً من السفر، فعاد مسرعاً إلى البلاد. انطلقت إيز في مقالتها، التي حملت عنوان "مرآة الشخص الذي لا يستطيع استخدام النقود الورقيّة"، من الحديث عن الطريقة الهمجيّة التي تجعل عملتنا الورقية تبلى وتهترئ، وافترضت أن المراحيض العامّة في بلدنا أقذر من تلك الموجودة في الدول الأفريقيّة. وكنت منتبهاً إلى أنّ إيز كانت تُنتقد بمقالاتٍ أخرى بنفس الطريقة التي انتقدت فيها الأقلام الرجعيّة أبي.

اعتدت خلال فترة نقاهة إيز أن ألجأ إلى قطار الأنفاق في المدينة لتجنّب رؤية وجوه الفتيات الشابات الممتلئات بالحياة والصحة وهن يملأن المدينة بأصواتهن. (حتى الكسالى نوعاً ما لا يضجرون من عالم المترو الكئيب. وقد وجدت في أغاني البوسكرز[1] غير المرخّصين والمنتشرين في ممراته وسيلة علاجيّة. ملل الانتظار بين حشد الناس عند باب النفق يصبح متعةً للسائحين في رحلة الصيد

١ البوسكرز: فنانو الشارع.

مكتبة الرمحي أحمد

في حديقة لوناباركِ.) وبغضّ النظر عن إحساسي القوي بأنني قد أقابل دالغا وهي تصعد فوق الدرج المتحرّك فيما أنا أنزل عبره، فقد استمتعت باللجوء إلى ما تحت الأرض. حين انتهت الألعاب الأولمبيّة في أثينا صارت إيز تركّز على بطولة أميركا المفتوحة. ولأنّها قد تفهم كلامي على نحوٍ خاطئ، لم أخبرها أنها كانت تذكّرني بلاعبة التنس السويسريّة باتي شنايدر، التي قالت في نهائيّات القفز بالزانة: "تعال وشاهد كيف تبدو الفتاة الجميلة". لكني كنت سعيداً عندما فشلت في تحطيم الرقم القياسيّ الذي سجّلته الروسيّة يلينا إيسينابيا التي كانت تشبه دالغا الشابّة كثيراً.

عُرف العمود الغرانيتي الذي شيّده تاتيانوس للإمبراطور ماركيانوس، حاكم القسطنطينية، في القرن الخامس باسم "كيزتاشي" (برج العذراء) بعد نقش تمثال لآلهة النصر (نايك) على الواجهة الشمالية لقاعدة العمود. عندما أتى الحريق على المناطق المجاورة عام ١٩٠٨، أخفي العمود، الذي كان بطول سبعة عشر متراً، في حديقةٍ سريّة. يبدو العمود الرمادي الأنيق، المكوّن من قطعة واحدة، مثل يتيم نجا من الحريق. كان أبي، كلّما زرنا برج العذراء، بعد تناول الشّاورما في سوق هورهور، يذكر الملاحظة[1] التي جاءت في الموسوعة العثمانية المفسّرة بالكامل ضمن ٣٥٠ صفحة، وكان يضحك بصوتٍ عالٍ.

١ كانت حول تمثال الإمبراطور ماركيانوس (٤٥١–٤٥٧). حيث كان هناك شائعة تقول إنّه كان يمكن أن يحدد ما إذا كانت الفتاة التي عبرته عذراء أم لا. حتى إنه يقال إن التمثال قد كُسر عندما جرّب جوستانيوس الثاني هذه الحيلة مع شقيقة زوجته.

مكتبة الرمحي أحمد

عبرت الشارع الهادئ الذي يحمل اسم البرج، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أعبر فيها هذا الشارع بعد وفاة أبي. شعرت كأنّي سفينة في عرض البحر تشاهد منارةً صديقة تهديها إلى الشاطئ. لم أنتبه قبلاً للعناية الكبيرة بفكرة ألاّ يتجاوز ارتفاع الأبنية المحيطة به ارتفاعه. بدا هذا الموقع الهادئ الذي عاش في فترات زمنيّة مختلفة صامتاً دون قلق، وكأن هذا الأثر البيزنطيّ قام بتنويم الأبنية المجاورة له وكذلك ساكني المدينة مغناطيسيّاً.

تجوّلت كعابر سبيل مؤدّب أضاع طريقه حتى وصلت إلى الشارع الجانبي حيث كان ينتظرني خير الله، الذي كان يظنّ أنّ برج العذراء قد شُيّد في احتفالات يوم الاستقلال في عهد أتاتورك، وأنه نُسي فيما بعد. شعرت وأنا أقترب من العمود أنّ حجمه تضاءل. ولم أفاجأ بالأعشاب اليابسة التي تعانق العمود وتخفيه حتى أصبح مكبّاً للزجاجات البلاستيكية. لم أستطع تحمّل الإهمال الذي تعرّض له العمود الحجري، الإهمال الذي يحرم التاريخ من نقش يلخّص ١٥٠٠ سنة من ماضيه. وقد أزعجتني رؤية ملصق لحملة الانتخابات البلدية معلّقاً على ارتفاع يمكن فقط لزرافة أن تصل إليه.

اقتربت من التمثال مثل عرّاف محترف. أدخلت يدي في أكبر الشقوق التي رأيتها وشكرت الله وأنا أسحبها وأجد بين سبابتي وإبهامي قلم رصاص أصفرَ صغير بطول ثلاثة سنتيمترات. رأيت بضع كلمات قصيرة باللغات العربية واللاتينية واليونانية والأرمنية محفورة بواسطة رأس إبرة على الوجوه الأربعة للقلم ذي الشكل السداسي.

مكتبة الرمحي أحمد

قررت أن أكافئ نفسي بزجاجة مياه عذبة مع نهاية المرحلة الثالثة، فتوجّهت نحو كشكٍ كان موجوداً هناك، ولكني تراجعت غاضباً عندما رأيت الملصق الهزلي عند الباب.

أقلقني اسم "تايتانيك" على باب المتجر الذي كان إما مزحة أو نتاج عقلٍ منحرف. شعرت بوخز في رقبتي وأنا أتخيل وجود عينين مركزتين عليّ. إن لم تكونا فعلاً عينيّ ملاكي الحارس فإنه بالتأكيد سيعيدهما إلى حيث تنتميان.

وفقاً لما قاله صاحبا متجر "تركواز"، اللذان اعتقدا أنّني أكتب رواية، فإنّ دليلي الرابع كان "أقدم معبد". عندما اتّصلت بيوجين جينيال قال: "إن لم تكن تكتب سيرتك الذاتية فإنك تقوم بخداعي فعلاً"، واعتقدت أنه سيقطع الاتصال. كنيسة القديس يوحنا المعمدان، التي هي أقدم معبد في المدينة، بنيت في القرن الخامس وفتحت للعبادة مدة ألف عام إلى أن تمّت إعادة تكريسها كجامع إمراهور. أستطيع الآن أن أنتظر بهدوء وسعادة حتى يأتي تاريخ ١٢ نيسان/ أبريل، وأنا اشعر بالرضا لفكرة أن حيرة سلجوق ألتون ستزداد قليلاً بعد كل جولة.

***

جامع إمراهور

كنت أتوقّع تماماً بعض الغرابة الجديدة من خالي عندما دعاني لتناول العشاء في مطعم البيتزا "بيدوس" كان يحمل معه مجموعة

مكتبة الرمحي أحمد

كبيرة جداً من الأوراق تحمل أسماء أربعين شارعاً مثيرة للتفكير مختارة من ٤٨,٠٠٠ موقع من أطلس إسطنبول. وبينما نحن نحتسي القهوة المعدّة على الطريقة المنزلية كان يحلم بالرحلات الثقافية – الاجتماعية التي سيقوم بها إلى عشرين شارعاً من الأسماء التي يحملها في حقيبته ستختارها له إيز. وكي لا يبدو كمن يزعج هدوء هذه الشوارع، فإنه سيقوم بالتقاط صور فيها. إيز التي تصارع لتتخلّص من ورطتها، قرّرت أن تحوّل يومياتها في لعبة الإعلام الذي يغطّي عالم السياسة والأعمال إلى رواية مصورة تحمل عنوان **السقوط الأخير للصوفيّ الساذج**. كان المسؤولون الرئيسيون عن إسطبلات السلطان يُعرفون باسم إمراهور. قبل انطلاقي إلى إمراهور التقيت مصرفيّاً ساذجاً على غداء عمل في مطعم "الفصول الأربعة"، وشعرت بالسرور حين رأيت في زاوية مميزة من المطعم صديقة أبي أوديت عازفة البيانو وزوجها المولع بالكتب تونتش أولوغ. رفعت يدي محيّياً، متأكّداً من أن الزوج الأنيق سيسألان متى أنوي الزواج، ولكني تراجعت بسرعة عندما انتبهت إلى أنّهما كانا يجلسان إلى نفس الطاولة مع سلجوق ألتون وزوجته. ربّما كان يجري حساباته لمعرفة ما إذا كان قد وضع دليله الرابع في ثقب يسهل الوصول إليه، بينما هو يتناول وجبة الأرز بالخضار الموجودة أمامه. في الطريق إلى تشاماليجا لم أستطع تحمّل فكرة أنه ربما كان يستخدم إيز وعادل كاسناك كأداة وأنه يستخدم قاتلاً كذلك.

لم يكن أبي قادراً، بطريقةٍ ما، على وضع حي سماتيا في عالمه.

مكتبة الرمحي أحمد

كان يقول إن هذا هو الحي الوحيد الذي لم يتغير اسمه أبداً منذ تأسّس على يد البيزنطيين. لاحظت أنّه حتّى السيّارات التي تعبر الشوارع الكئيبة تنتبه فلا تطلق أصوات أبواقها. بغض النظر عن الأبنية القليلة المبعثرة على جانبي الشارع، كان هناك منظر لطيف لكشك يونانيّ مهجور وقصر عثمانيّ له شرفة. لم أستطع الامتناع عن التوقف لتناول التولومبا[1] في متجر روملي للمعجنات، وهناك سألت عن مكان جامع إمراهور. كان هناك ملصق حملة انتخابيّة في الطريق المحاذي للجامع الذي كان يمتدّ طوليّاً مثل متحف عتيق من العصور القديمة، ولم أفاجَأ برؤية أنّ المرشّحين، إضافةً إلى الشاب الأرمنيّ، كانوا مجموعة من العجائز أصحاب الشوارب. البناء المقابل ذو الجدران العالية كان يشبه برجاً من القرون الوسطى، وقد حوّله المسؤول عن الإسطبلات الملكيّة لأحد السلاطين إلى مسجد في عام ١٤٨٦.

رآني الشاب الأسمر أنتظر بهدوء عند بوابة المبنى التي تحمل الرقم ١٩٣٨٩١، فجاء إليّ وهو يتخطّر في مشيته وأخبرني أنّ المتحف مغلق رسمياً وأنني لا أستطيع زيارته إلاّ بإذن من الموظف المسؤول. لم أتراجع مدركاً أن رفيقي الصبور لن يهتم بوجودي. ألقيت نظرة متفحصة على أشجار التين الكثيرة المنتشرة في الفناء وعلى الأشجار الضخمة الأخرى التي لا أعرف اسمها. بدأت بالجناح الجنوبي، وتبعت قطع الآجرّ التي بلون الحنّاء في الجدار المتين. ثم مررت بسرور بالجناح الغربي المزدان بأسماء أبطال

١ التولومبا: حلوى تركية عبارة عن نوع من الكعك المنقوع في القطر.

مكتبة الرمحي أحمد

من الأقاليم الشرقيّة. قبالة الحديقة، التي فيها ممرات مبلّطة ببلاط أحمر يتلاءم مع لون المتحف المنعزل، كانت هناك مجموعة من النساء يجلسن إلى طاولات منفصلة، بعضهن محجبات وأخريات في أثوابٍ مكشوفة تناسب جوّ الربيع. وكانت هناك مجموعة من المتقاعدين بعضهم نائم في الظلّ وآخرون يحدّقون بعيون فارغة في المحيط كأنهم يتنافسون للفوز بلقب أكثر الوجوه مأساوية – هزليّة. تذكّرت الصور الحزينة في موسوعة **إسطنبول من الأمس إلى اليوم** للآثار الباقية في متحف غامض على وشك التحوّل إلى مكبّ نفايات. مثل مشروع غير منته، بدا المتحف، بأرضيته ذات التصميم الهندسي الساحر كأنها مفروشة بسجاد حريريّ، أثراً مهمّاً. فقد قاوم حريق عام ١٧٨٢ وزلزال عام ١٨٩٤، لكن سقفه انهار تحت ثقل الثلوج في عام ١٩٠٨ ولم يتمّ ترميمه أبداً. عبرت البوّابة الرئيسيّة وأنا أشعر بعدم الارتياح لأني مواطنٌ في بلد لا يمتلك حتّى حساسية مدير الإسطبل العثماني.

مع انطلاق أذان الظهيرة دفعت مشطي القديم في شقّ مغرٍ، موازٍ للوحة التعريف بالبناء، فسقطت قطعة من الكرتون بحجم علبة الكبريت إلى الأرض. التقطت الورقة الصفراء المشؤومة التي كانت تحمل كلمتي "حاديم"[١] و"أتيك"[٢].

حاولت فهم هذا الدليل الجديد في ضوء الأدلة الثلاثة السابقة. ربّما تكون كلمتا "حاديم" و/أو "أتيك" هما الاسمان الأولان

١ مخصي.

٢ نشيط.

مكتبة الرمحي أحمد

لاثنين من الباشاوات العثمانيين الذين تم من أجلهما بناء نصب أثري ووفقاً للمعلومات الموجودة في موسوعتين مختلفتين، فإنّ حاديم علي باشا، رأس المؤسّسة الدينيّة، عُيّن مرّتين صدراً أعظم في زمن السلطان بيازيد الثاني، وفي المصادر المعاصرة تمّت الإشارة إلى أتيك علي باشا. كان أبي يقول: "لا يمكن أن يكون هناك كلمة أنسب من كلمة "أتيك" لوصف شخص يصعد من العدم ليصبح رئيساً للوزراء.") لا بدّ وأنّ الدليل الخامس موجود في الجامع الواقع في شارع تشمبرليتاش في مجمّع أتيك علي باشا الذي سمّي نسبةً إلى فاعل الخير الذي حوّل كنيسة كاراي إلى جامع.

جامع أتيك علي باشا

انتهت مهمّة خالي بشكلٍ مفاجئ عندما اعترض سكان عدد من الشوارع حين أمسكوا به يصوّر أولادهم دون إذن. وقد سافر إلى ستوكهولم لحضور حفل تأبين ابن عمّه الوحيد، قبل أن أنطلق إلى تشمبرليتاش. وتلقّى أثناء سفره نبأ وفاة صديقه بيجورن، الذي كان يشجّعه دوماً على سلسة رحلاته الجدليّة، بنوبة قلبيّة. وقد علّق على الخبر بقوله: "أشعر أن الموت يطوف من حولي".

كان يخطّط، بعد أن يقوم بواجبه نحو ابن عمه العزيز، للقيام برحلةٍ إلى عشرة نوادٍ للتعري هي الأكثر جموحاً في أوربا وتعتمد على جمال الذكور. في تلك الأثناء تخلّت إيز عن مشروع روايتها الهزليّة عندما عُرض عليها العمل كمحرّرة في مجلّة أسبوعيّة. وقد انتقدت في مقالتها الأولى للمجلّة، والتي نشرتها تحت اسمٍ مستعار

مكتبة الرمحي أحمد

هو بالتازار ساتيرباشي، أولئك الكتّاب الذين اعتبروا أنفسهم من كبار المبدعين عندما حقّقت كتبهم السطحيّة أعلى نسبة مبيعات.

كنت أحاول فكّ رموز كتاب فن التصوير الذي يحمل عنوان جسر **الانتحار** بقلم إيان سنكلير. وكنت قد اشتريته لأجل هذه السطور:

> أفهم الآن شغفك بالاتجاه غرباً. إنه الشغف بالانقراض والمعرفة بأن نصرك سيكون في انقراضك الجسديّ. ولكن في العهود العظيمة، عندما كان الإنسان عظيماً، فقد اتّجه شرقاً.

عندما عبرت العمود البيزنطي، المرمَّم كيفما اتفق، والذي شيّد في القرن الرابع من قبل الإمبراطور قسطنطين، شعرت بالرثاء لحالة كيزتاشي (برج العذراء) المحاط بالجدران. كانت مقبرة الجامع المؤلفة من قبر واضح وشواهد قبور مزخرفة فنياً محاطة بشبكة من الأسلاك. رأيت إجراءات مماثلة في حدائق الحيوانات تتّخذ لحماية الحيوانات البريّة من إزعاج البشر. حين دخلت من البوابة الرئيسية، وأنا أصلي في سرّيّ، بدوت كأنّي أنزلق في نفق الزمن إلى القرن السادس عشر. شعرت بالراحة في هذه البيئة الهادئة والمتناغمة. أغمضت عينيّ نصف إغماضة وسط القباب الخمس في جامع أتيك علي باشا وكلّ ما يعود إليه. كان صمتٌ مؤثّر يلفّ الناس العابرين حالما يدخلون البوابات الثلاث المفضية إلى الفناء الواسع. لم أستطع مقاومة إغراء سقسقة الساقية المقابلة لمدخل الجامع وهي تدعوني إليها، فعبرت الفناء بإجلال إلى الساقية، وقرأت العبارة

مكتبة الرمحي أحمد

المكتوبة فوقها: "من فضلك، لا تهدر الماء"، لكني شعرت بالغثيان عندما رأيت العلامة الملصقة في أكثر المناطق وضوحاً، "خدمة إبادة الحشرات". بقراءة العلامة الموضوعة فوق باب المعبد قرب الساقية، "مطلوب صائغ ألماس محترف"، تساءلت ما هي الصفات المطلوبة وكيف يمكن لمشاغل الفضة المنتشرة في المحيط أن تعمل دون أي صوت.

بينما كنت أشاهد واجهة الجامع المصنوعة من حجارة القطع، لاحظت أربع أبنية ملحقة إلى يسار الفناء. كنت مهتمّاً لرؤية محلات البقالة ومصلحي الأحذية التي تؤمن الدخل لمجمع الجامع الموجود في الطابق الأرضي للبناء القديم المؤجّر لتجّار الفضة. هل كان تاريخ بناء هذا الأثر التاريخي البسيط هندسيّاً والجذاب واسم المهندس المعماري الذي صممه غير مذكورين عمداً؟ كانت هناك ملاحظة معلقة على الأعمدة الأسطوانية الضخمة الموجودة أمام البوّابة الرئيسيّة، "من فضلك لا تلمس الأعمدة" أبقيت رأسي ممدوداً عبر باب البناء الأثري، وأنا أشعر بالإثم دون وعي لأني كنت أعرف فقط كيف أؤدي الصلاة الأساسية. صعقت جدّاً بمناخ العظمة الذي يعود عمره إلى ٥٠٠ سنة. وكشخص لا يتهرب من دفع الضريبة عن أملاكه، ولا يضمر شراً لأحد، تساءلت لماذا شعرت بمثل هذا الضغط الروحيّ. اعتاد أبي أن يدمدم: "أشك في القيمة العلاجية للصلاة خمس مرات في اليوم"

انتقلت إلى أكمة بحجم قبر طفل في مركز الفناء. وبواسطة سبّابتي سحبت لفافة صغيرة من الورق من أنبوب مربوط بشجيرة صغيرة

مكتبة الرمحي أحمد

بسماكة إبهامي، مكتوب فيها:

الخطيب والقاضي
أعطى اسمه للساقية التي بناها
وليفرح روح ابنته
التي ماتت قبله بثماني عشرة سنة.

اشتريت كتاباً من مجلّدين عن السواقي العامة في اسطنبول، *Su Güzeli* (**جمال الماء**)، وكان مرفقاً بالصور الملونة، وصادراً عن بلدية إسطنبول. كنت واثقاً أن قراءة قصّة حياة ١٤٣ ساقية عامة واكتشاف مكان الموعد الأخير سبّب لي عسر هضم عاطفياً. وبدلاً من الدخول في صراع مع هذه الأدلة العديدة جدّاً، التي لن يكون تفسير بعضها بالأمر السهل، قررت التعامل مع تلك المذكورة في كتب الرحلات. بنزولك بضع خطوات تحت أي شارع قد تكتشف عوالم مختلفة، رحلة من عشر دقائق قد تعوّد بك إلى الوراء ١٠٠٠ سنة. كنت أجد السكينة في هذه العوالم المميزة، رافضاً تقاسم أحلامي مع حياتي الواقعية. إذا كان الدليل الأخير يمكن أن يجد لي قاتل أبي المريض النفسي السافل، عرفت أنه علي عندئذٍ أن أسلّمه للشرطة عن طريق عادل كاسناك. ولكن المشكلة الحقيقيّة كانت كيفية الإيقاع بسلجوق ألتون المصاب بجنون العظمة، والذي كان يستمتع بتوجيه القصة كاملةً من خلف الستار، في الفخ. إنّ فرصتي الوحيدة لكَشّ ملك لاعب الشطرنج المقيت هذا، الذي كان يجرجرني عبر المدينة، كانت بإيجاد نقطة ضعف غير متوقعة في دليله الأخير. كنت متلهفاً

مكتبة الرمحي أحمد

لرؤية وجه إيز عندما أمسك به متلبّساً وأكتشف دوره في المؤامرة وكم خدمت مصالحه. عرفت أني إذا فشلت فإن ذاك الرجل المتكتم قد يسيئ إليّ في إحدى رواياته التي يكتبها بسرعة (لو كانت أمي مكاني، أما كانت ستقنع قاتل أبي بالتخلص من ألتون أوّلاً، ومن ثمّ تتخلص من القاتل على يد قاتلها الجديد؟)

ركّزت على الصور التذكارية الموجودة في "جمال المياه"، وكل صورة فيه كانت تجعلني حزيناً. يمكنني حتى أن أرى كيف أنّ هذه السواقي الأثريّة كنوزٌ مهملة ستضيء ما حولها حالما يتمّ ترميم واجهاتها. بدأت باستيعاب هذه الآثار المنمنمة مع أسمائها الأصلية مقطعاً مقطعاً مع موسيقا بات ميثني، وحين وصلت إلى ساقية مصطفى باشا فهمتُ الكتاب.

بدا لي أنني سأجد الدليل الأخير عند نهاية الكتاب في القسم الذي يتحدث عن السواقي في أسكودار. كانت عبارة "جمال الماء" قد ذكرت فقط من قبل الفنانين المستشرقين الهامين، كيوجين فلاندين[1] ووليام هنري بارتليت[2]، في التعليق على ساقية سعد الدين أفندي، ولقد نظرت بتمعّنٍ إلى النقوش، وقرأت بحزن العبارة التحذيرية للصور المضحكة المبكية. يقول الكتاب عنها:

> تقع على الجهة اليمنى من الشارع الذي يقود إلى طونوسباجي، بعد زاوية قبر قره جه أحمد. بنيت عام ١٧٤١ (١١٥٤هـ)، وقد بناها سعد الدين أفندي، ابن

---

١ يوجين فلاندين: مستشرق فرنسي، رسام ومعماري وسياسي.

٢ ويليام هنري بارتليت: فنان بريطاني عُرف بفن النقش على الفولاذ.

مكتبة الرمحي أحمد

قازاصقر فوز الله أفندي وحفيد شيخ الإسلام الخواجة سعد الدين أفندي – مؤلّف كتاب *Tacüt Tevarih* (**دوحة المشايخ**) – رحم الله روح ابنته زبيدة. كان سعد الدين أفندي خطيباً في الجامع، وخلال تعيينه فقيهاً في مصر عمل قاضياً في مكّة وإسطنبول ومات عام ١٧٥٩. وهو يرقد في قبر خلف الساقية...

عرفتُ عندما قرأته مرة ثانية أن الألم الأبدي في رأسي سيعود. تساءلت أي نوع من الخطط الجهنميّة وضع هذا الشخص الغدار الذي من أسكودار في رأسه حين اختار أن يكون موقع الدليل مجاوراً تقريباً لقبر والديّ. شعرت أنّ شعر رأسي قد وقف تماماً. رميت جهاز الحاسوب المحمول على شاشة التلفاز في مكتبي. دخلت مساعدتي الأمينة مباشرةً، وللمرة الأولى في حياتي وبّختها وطردتها. ناسبني حينها، على الأرجح، أن ألاحظ أنني أصبح مثل أمي. تناولت حبتي أسبرين مباشرةً، وكعلاج بدأت أعدّ الأطفال في القرية المواجهة للبحر في اللوحة القماشيّة الموجودة أمامي. استمرت أمي في جمع كتب إلياس كانيتي عن الأقوال المأثورة حتى بعد موت أبي الثرثار. أذكره يقول في كتابه الأخير: "ليس هناك مفر من الألم الذي ينبع من الصميم، فهو يكون مفهوماً، محتملاً ومستمراً، ويخلق شاعراً". وبينما بدأت أشجّع نفسي، "هيّا يا أردا!"،

مكتبة الرمحي أحمد

ارتحت لفكرتي وتابعت، "أرهم، أيها الشاب الكبير، ماذا يمكن للألم أن يفعل حين تغذّيه الكراهية والفضول والضجر"

***

ساقية سعد الدين أفندي

حزيران/ يونيو هو الشهر الذي لا أستطيع التكيّف معه أبداً، على الرغم من أنني ألفظ اسمه بسعادة. سيتجه خالي مع صديقه الجديد، جون العاجز، عندما تنتهي رحلته الشهوانيّة، إلى سفوح الهملايا للبحث عن نمور الثلج.

قال لي: لقد بدأت أرتجف فعلاً. تثيرني فكرة أنني سأرى القطط السحريّة التي تغطي أجسادها بأذيالها الطويلة تفادياً للبرد. أنا واثقٌ، يا أردا، بأن هذه الرحلة الغامضة ستكون نقطة تحوّل في حياتي.

كوّنت إيز خلال جولاتها الصباحيّة في سترتها المضحكة على منحدرات تشامليجا صداقاتٍ مع الناس خلال ثمانية وعشرين يوماً أكثر مما فعلت أنا في ثمانية عشر عاماً. كانت تعدّ لمقال بعنوان: "الشعراء الأحياء الأبرز في نظر الشاعر جوفان طوران[1]"

بدأت بقراءة رواية غيرهارد كوبف المليئة بالمعضلات، *There is no Borges* (**ليس هناك بورخيس**).

قبل أن أتوجه نحو جادة نوح باتجاه مقبرة قرة جه أحمد دخلت

---

١ أدونيس، إلهان بيرك، إيف بونفوا، أوجين دي أندرادي، لويز غليك، جيفري هيل، فيليب جاكوتيه، ماريو لوزي، و. س. ميرفن، فيسلافا زيمبورسكا.

مكتبة الرمحي أحمد

مطعماً يقدم الطعام المنزلي حيث عرفت أني سأتمتع برؤية الصور الفوتوغرافيّة لمناطق شرق البحر الأسود.

ركزت محاولاً ألا تفوتني الأسماء الجذّابة للشوارع الجانبيّة بينما أنا أمشي برشاقة بين الأبنية كأنني رئيس ورشة عمّال. مكتب التأمين، وحدة طفل الأنبوب، المستشفى والقصر العدلي في أسكودار، كانت كلها مصفوفة بشكل قوس قبالتي كما لو أنها محاطة بعناية مقدّسة. كما غزت الشارع مطاعم الكباب والأكشاك، وصالونات التجميل ومحلات بيع أجهزة الاتصالات، والمقاهي. وقد شكّلت مقاهي التدخين الأعمال الأكثر ربحاً. عنصر الفوضى الآخر كان الآرمات العديدة جداً لمئات الأعمال الصغيرة. بينما كنت أقترب أكثر من قرة جه أحمد بدأت تظهر مشاغل الرخام التي بدت مثل المخازن بستائرها المهترئة التي نادراً ما تفتح. كان وجود مشغل تجهيز شواهد القبور في الطابق العلوي ومكتب المحامي في القبو أمراً مثيراً للضحك في تناقضه الواضح مثل صورة كاريكاتورية. البائع صاحب الشاربين، الذي رآني أتفحص عن كثب في مخزن يعرض شواهد قبور للأولاد، دعاني إلى الداخل ليريني بقية المجموعة...

مع الانتهاء من هضبة جادة نوح السريالية يبدأ سور قرة جه أحمد الذي لا نهاية له. وحالما تحوّلت إلى شارع طونوسباجي انتبهت إلى أنني لم أزر قبر والديّ منذ وفاة أمي. الساقية المتوضعة على محور الجامع مع ساحة المقبرة والقبر، وباتت تستخدم اليوم لماء الوضوء، تشبه بشكل طبيعي بطلاً شعبيّاً صامتاً فقد فتنته في المنفى. ضحكت في سري عندما رأيت العبارة المكتوبة في منشور عام ١٩٣٨ حول

مكتبة الرمحي أحمد

سواقي إسطنبول: "يظهر في عمارتها تأثير الروكوكو التركي". حول قبر سعد الدين أفندي كانت هناك قبور بشواهد فنية. كنت أنظر إلى ساحة الجامع من خلال السور المؤقت الموضوع فوق الجدار، عندما لاحظت الحجارة المرحّلة بين أكوام النفايات.

كان النقش الموجود على الساقية الجافة، حيث مددت يدي وأنا أصلي باحثاً عن الدليل الأخير، يقول:

هذا العالم مائدة عشاء
الرغبات تأتي وتذهب
إذا وجدتنا
لا تتمنى أن تجد شيئاً آخر
تشربه
١٩٧٠

تفحّصت يدي اليمنى الحجر المتعب ثلماً بثلم ووجدته فارغاً، لكني لم أصب بالذعر ولم أفكّر في البحث عن الدليل في مكانٍ آخر. ربما كان محرك الدمى قد أعيق ولم يستطع الوصول في الموعد، أو ربما كان يختبر ثبات عزيمتي بتوجيهي إلى أماكن لقاء مع علامات أكثر وضوحاً. نهضت في اليوم التالي بحماس، ولكني بدأت أشعر بقليل من القلق لأني لم أحرز أيّ تقدم. في اليوم الثالث جرّبت بعض الأساليب غير المسبوقة حتى في الروايات البوليسية، حتى أني جربت، دون نجاح، فك شيفرة الرسالة المنقوشة على القبر، المكتوبة بلغة تركية بائسة. ومن ثم راجعت الوضع في ظلّ الصناديق

مكتبة الرمحي أحمد

المجاورة حيث كان يتم تفريغ قمامة الشارع. إذا رجعت خاوي اليدين من سفرتي في ٥ حزيران/ يونيو، فإنّ عليّ البدء بالتفكير في أدلة واقعية.

***

كانت هناك سيارة زفاف من طراز قديم تعبر من شارع إيناداي جامي، بينما كنت أعبره عاقداً العزم على أن أقول وداعاً لساقيتي. (يعجبني رأيي المسبق بأن الفتيات اللاتي يتزوجن بمرافقة موكب سيارات ينتهي بهنّ الحال في منازل غير سعيدة). كما لو أني منقاد بقوة خفية اندفعتُ إلى الشارع الذي تحدّه المقبرة حيث كانت السجادات معلقة على الجدران لتجفّ. لاحظت وجود مرحاض قديم لكنه لا يزال صالحاً للاستعمال. حاولت الاستمتاع بالرسالة المنقوشة على لوحة تعريفه:

بيرفان كبير طباخي
السلطان ن. محمد محمد أفندي
بُني ١٠٥٥هـ
١٦٤١ م
هُجر عام ١٩٣٥
وعام ١٩٩٣ تمّ ترميمه

مشيت ببطء شديد نحو وسط الشارع. فكرت أنّ الرجال والنساء

مكتبة الرمحي أحمد

الكبار في السن الذين يظهرون من نوافذ الأبنية الخشبية ليشاهدوا سيارة الزفاف يتخذون وضعيات تستحق تصويرها صوراً تذكارية. ورحت أنظر بحسد إلى الأطفال الذين يلعبون، وقد غمرتهم السعادة، قرب هذه الأبنية العثمانية إلى جانب مخزن البقالة المضاء بشكل خافت والمخبز المهجور والمحلات الصغيرة لتصليح الأحذية المقاومة للزلازل والفيضانات والجهل. أدركت أنني لم أكن منزعجاً من اقترابي من قبر أمي، هي التي سرقت مني سعادة طفولتي مقابل ثراء مستحيل التصور.

تابعت سيري في شارع باكيرشيلار يوكوسو. وأنا أهمّ بشتم الناس الذين رموا الأكياس البلاستيكية قرب المقبرة، فاجأتني العبارة المكتوبة التي تسمح للناس برمي النفايات في الشارع مرتين في الأسبوع فقط. الإطار الأخير الذي علق في ذهني من الشارع الهادئ هو صورة سيدة مشغولة البال تنفخ دخان سيجارتها باتجاه المقبرة المجاورة من نافذة في الطابق الثاني لبناءٍ متداعٍ للسقوط. وقد ذكّرتني بالممثلة جيسيكا لانغ.

تحت كوخ حديث قرب ساقية مهرماه ابنة السلطان كانت هناك مجموعة من المتقاعدين السعداء. بافتراض أنهم كانوا بمتوسط عمر خمس وسبعين عاماً، تساءلت ما الذي يدفعهم إلى الضحك.

لم أعتقد أبداً أنه يمكن أن يكون هناك مثل هذا الازدحام يوم الأحد في مثلث مؤلف من جامع ومزار ومقبرة. بوجود السيارات القديمة المحيطة بالسواقي أصبح النقش الفيروزي فوق النافذة المزودة بحاجز من القضبان الحديدية المتصالبة واضحاً. نظر إلي

مكتبة الرمحي أحمد

الحارس الأسمر الذي كان مسؤولاً عن الاعتناء بمكان الوضوء شزراً محاولاً تذكّر أين رآني من قبل. اعتقدتُ أنّ هذا الرجل العجوز قد كرّس نفسه لرعاية السواقي المنسية بلا مقابل حتى رأيت الإشارات: "ادفع أجرة المرحاض" و"أغلق صنابير المياه". عرفت أنني إذا مددت يدي للمرة الأخيرة خلف النقش فسأستردّها خاوية. أغمضت عيني وأنا أشعر بالرضا لأني فعلت كل ما بوسعي.

غادرت جناح قرة جه أحمد، لا أدري أين أذهب. إذا كانت نية محرك الدمى الذي يحركني جعلي أتعرّف على الآثار البيزنطية والعثمانية المهملة وعوالمها القريبة جداً من الحياة فهو على الأقل قد نجح في ذلك. لكني غضبت من نفسي فجأةً للصورة المبالغ فيها التي رسمتها له. تذكرت الرحلات الطويلة التي كنت أذهب فيها مع أبي وكيف كنت أنظر إليه بإعجاب وأنا أنتظر منه إشارة التوجه نحو مطعم الكباب أو الشاورما.

مع أذان الظهيرة بدأت أتفحّص مخططات الأرض في المقبرة المجاورة للشارع، وتساءلت فيما إذا كانوا قد وضعوا عمداً هؤلاء الذين ماتوا شباباً جانباً. بدأ شيطاني يوسوس لي من جديد – "أبوك جورجي بلقاني، أمك يهودية. أنت خليط سويدي. بيئتك ليس لها أثر في لون عينيك وشعرك، وعندما تملك المال لا تستطيع حتى تذكّر مقداره. ماذا تفعل إذاً؟ تتسكع في أرض الظلال هذه؟" – تمنيت لو أن صوت الأذان ينقذني من هذه الأفكار.

تجاوزت مطعم "مابيين"، إلى الأطراف التي عليها جداول المياه تقطر فوق الصخور. تناولت كرات اللحم النيئة في فناء مطعم الكباب

مكتبة الرمحي أحمد

الذي كان في الماضي قصراً عثمانياً في ظل أشجار الصنوبر الضخمة. وصلت إلى نتيجة أنّ عدم ترك دليل عند ساقية سعد الدين أفندي كان حركة متعمدة، وأنّ عليّ، كي أتعقّب قاتل أبي، فرز وترتيب ما كان لديّ بالتفصيل. مع صوت رجل يصرخ: "لا تقلق..." من آله التسجيل البدائية في سيارة الأجرة التي استقللتها. فكّرت بقلق: "هل أنا ضحيّة مزحة مخطّط لها أم أنني أعيش حلماً سيّئاً؟"

***

حاولت إلهاء نفسي بالدراسة. قبل أن أستسلم بامتنان لبات ميزني، بحثت عن الصفات المشتركة بين أماكن التواعد الستة:

كاراي وإمراهور كانت كنائس تحوّلت إلى جوامع/ كانت هناك طبقة تعلو مقبرة الجلادين/ أحد تمثالي نايك في برج العذراء قد ضاع/ حاديم علي أصبح جامع أتيك علي باشا/ والساقية في مجمع قره جه أحمد (قره جه أحمد الذي ارتقى من كونه ابن سلطان ليصبح درويشاً) بنيت تكريماً لابنته الميتة ولكنها حملت اسم أبيها، القاضي.

وضعت في عقلي "الثنائية" التي يحملها كل دليل منتبهاً إلى أن أياً من هذه الأدلة لا يحمل اختصاراً ما، وقمت بترتيب أدلتي في الترتيب الذي أتتني فيه:

١- متحف كاراي،

٢- مقبرة الجلادين،

٣- كيزتاشي، برج العذراء،

مكتبة الرمحي أحمد

٤- جامع إمراهور،

٥- جامع أتيك علي باشا،

٦- مقبرة قره جه أحمد (ساقية سعد الدين أفندي).

لاحظت أن ثلاثة من هذه الأسماء تبدأ بالحرف (ج)، وبكتابة الأسماء التي لا تبدأ بهذا الحرف وبالتركيز على الأحرف الكبيرة حاولتُ أن أصبر على الوقت: ج، ا، ي، تمنيت ألاّ تكون مجاهد مع حرفين مفقودين. وأنا أصلّي في سري، انكببتُ على القاموس التركي العثماني. هل يكون هذا قاتل أبي؟ هذا التافه الذي اسم عائلته جفتجي يعبّر عن كل من "شخصية جيكل وهايد" وشخصية "الفلاح" مؤكداً على صفاته الغامضة من اجتهاده ونكرانه لذاته؟ وقف شعر رأسي عندما فكرت أن هذا الرجل المقموع، الذي يتحرك تحت اسم مزيف يبدو ككلمة سر واعتراف في آنٍ معاً، متحدثاً كفيلسوف، وعند الضرورة يجعل المسدّس طيّعاً في يده كأنه قائد فرقة موسيقية.

ألم يبدُ كقاتل متسلسل غامض ودقيق أكثر منه كقاتل مريض نفسيّاً عندما انسلّ عائداً وتلاعب بالشرطة التي لم تتمكن من إلقاء القبض عليه؟ عليّ أن أعترف أن القدر قد جمعنا معاً. كان أبي يقول: "العلماء الذين لا يستطيعون تحليل مفهوم القدر لا يمكنهم أبداً تفسير وجود الله"

عرفت أنني أستطيع أن أحرج عادل كاسناك في المطعم المريح حيث يطبخون نقانق الغنم على النار. طلبت منه بأدب ألاّ يتجشّأ عبر الهاتف. سألته إذا كان قد حضر جنازة السيد جاهد، ولم أفاجأ عندما قال بأنه سمع خبر انتحاره عبر الهاتف من صاحب متجر للبقالة ادّعى

مكتبة الرمحي أحمد

أنه قريبه. لم أستطع أن أصدق أنني أتقاسم مصيبتي مع قاتل أبي، الذي كان قد خدعني بموقفه اللامبالي وجعلني أثق به. أدركت سريعاً أن هذا الرجل قد يؤذيني. لقد رأى عمق ألمي وقت حادثة إيز، وقد عاقب المجرم الهارب وسبّب له الشلل، وتابع فأحرق منزل ومتجر شريكه في الجرم. أردت أن ألتقي هذا القاتل ذا الروحين الذي أنقذ لي شرفي وعلى الأرجح حياتي بإطلاقه النار على سيدو الغدار، على الرغم من أنه قال: "لن أستخدم موهبتي التي منّ الله بها علي باستخدام السلاح ضد أيٍّ من عبيده"

بافتراض أن قاتل أبي ومنقذي أراد فعلاً أن يلتقي بي، فقد أراد أن أجد الدليل الأخير في حلبة الرماية. كنت أعلم أنني أستطيع أن أجد الصعلوك كاسناك على طاولة لعب الورق.

من دون احترام لتركيزه همست له: "إذا لم تسأل عن السبب، وإذا وجدت لي أي شيء تركه السيد جاهد وراءه في حلبة الرماية، فسأقدّم لك زجاجتين من أفخر أنواع الكونياك"

***

عندما رأيت اسم بدرخان أوزتورك أول مرة على الصفحة الثانية من القاموس التركي – العثماني الذي أحضره كاسناك وهو يختال متبجحاً، فاجأتني الطريقة التي رتبت فيها أسماء أردا وبدرخان وجاهد أبجديّاً فيه. في الصفحة ٢٢ ظهر اسم الشارع الذي سمّاه جاهد بدرخان شارع أشرف سعد، واصفاً إيّاه بقوله: "بإذن الله،

مكتبة الرمحي أحمد

مسكني وقبري". أدركت أنني عندما دخلت مسابقة الشعر كنت قد اخترت من الدليل شارع أشرف سعد في أسكودار ووضعته عنواناً، دون أن أعلم أنه كان الشارع الذي قتل فيه أبي.

فشلت في رؤية أي تلميح في الصفحة ٢٢، وشعرت أن الأنشوطة الحقيقية التي كانت حول رقبتي تُشدّ للمرة الأخيرة.

***

في مساء ١٢ حزيران/ يونيو، عندما ذهبت إيز في رحلة لأربعة أيّام إلى كابادوكيا مع صديقاتها، أخذت تاكسي إلى شارع أشرف سعد. كنت أنوي أن أتفحّص مخبأ جاهد بدرخان ومن ثم أعود مباشرةً إلى البيت. بما أنه قد أخفى رقم بابه، فلا بد أنه توقّع أني أستطيع أن أكتشفه بصفة مميزة ما ستحدده. (أما كان من الأفضل لو أنه لاحظ أنني لم أستطع أن أنهي الجولة الأخيرة؟ حتى لو أنه صاح بصوت عالٍ أنه كان مستعداً لتقديم اعتراف مكتوب فأنا لست واثقاً أبداً أنني أريده أن يعاقب).

تخيّلت اللقاء بين روح أبي وروح قاتله. وللتخلص من الصورة ركّزت على البناء الخشبي المجاور المؤلف من طابقين والمطلي بالأحمر. من الطابق الأرضي لهذا البناء المظلم بعث الضوء الخافت شرارة مفاجئة انطبعت في رأسي وروحي. شعرت بمنديل أسود كبير يوضع فوق وجهي: دخلت من جديد في نفقٍ مظلم كما لو كنت في غيبوبة، مع أني لم أكن خائفاً رغم أني فقدت أمي وملاكي الحارس.

مكتبة الرمحي أحمد

عندما استعدت وعيي عرفت أنني كنت أسيراً في ذاك المنزل الغامض. حاولت جاهداً معرفة الوقت من خلال النور الواقع على طرف السرير الذي كنت راقداً فيه، لكني انتبهت إلى أنّ يديّ كانتا مقيدتين. للحظة شعرت بالفخر لأني شخص ذو شأن). كان علي أن أخرج خلال أربعين دقيقة أو ما يقاربها. استطعت أن أسمع جاهد بدرخان يوبّخ شاباً يدعى "عاصم" في الغرفة المجاورة، بصوت متألم تتخلله نوبات سعال مرعبة. وبعد أن طرد مساعده بصوت أشبه بالمفرقعات النارية بدأ يسير بثبات نحو الغرفة الضيقة. ندمت لأني لم أغمض عيني قبل أن ينير الضوء. عرفت في الحال أنه لن يتكلم ولم أُفاجأ أنه لم يكن أعرج. في الصالة الواسعة التي سحبني إليها كان الأثاث قد حُزم بشكل عشوائي كما لو أن ذلك تمّ في اللحظة الأخيرة. استغربت وجود الرفوف الفارغة وغياب الكتب. في الصورة الضخمة التي لم تتم إزالتها بعد عن الجدار كان عليّ أن أنظر مرتين إلى الرجل الغاضب الذي يرتدي سترة عليها علامة بيركلي. هل كان القاتل يبتسم في سرّه لاهتمامي الواضح بصورة الرجل الذي كان يشبه أبي؟ اتجه انتباهي إلى الكرسيين المخمليين الخضراوين اللذين وضعا قبالة بعضهما بعضاً في وسط الغرفة. دون أن يفكّ قيدي أجلسني على الكرسي المقابل للبحر وجلس القرفصاء أمامي وفي يده كيس بلاستيكي.

"سأحاول أن أدخل في الموضوع، وأرجو الله ألاّ أجعلك تشعر بالملل. لا تقلق إذا لم تحصل على فرصة للكلام، فالواجب الأهم مخبّأ لك.

مكتبة الرمحي أحمد

عدت من الجيش غريباً، وحيداً وفقيراً، وتخلّصت من عصابة من المجرمين سرقوا واغتصبوا أمي التي تبنّتني، وكان عمرها ٨٠ عاماً. كان أول ما قمت به كقاتل مأجور هو تنفيذ أوامر أمك لمعاقبة أبيك الشاذ. عندما كلّفني ذاك المارق (الذي تعرفه) بالعمل، قال لي، ليشحذ رغبتي بقتله، أن أباك الراحل كان مغروراً متغطرساً ومعادياً للدين ويعتاش على أموال زوجته. لقد تحمّلت اثني عشر عاماً أن أكون آلة قتل بسيناريوهات مشابهة. لم يكن لدي شك في أن ضحاياي المستقبليين، إذا لم يكونوا معادين للدين، فسيكونون على الأقل مهووسين جنسيّاً أو مبتزّين أو متهرّبين من الضرائب.

إلى أي درجة تزايد إحساسي بالرضا لإشباع الغريزة الإنسانية بتعقب الطرائد وأنا أجعلك تركض من دليل إلى آخر! كنت أتقاضى مالاً جيداً لمعاقبة هؤلاء الآثمين ولم أكن مضطراً لتحمّل نزوات أي أحد آخر.

لقد نمت بسلام في شرنقتي المغزولة من الكتب والعقائد. لو لم أتعرّف إلى الفيلسوف المختبئ داخل الرجل غريب الأطوار الذي تراه في الصورة المعلقة على الجدار، كان يمكن أن أستمر في الطريق القذر.

عندما لاحظ مستخدمي أنني بدأت أفهم ما يجري تخلّصت منه قبل أن يتمكّن من فعل ذلك بي. لو لم أقسم ألاّ أقتل أحداً آخر من الآن فصاعداً لما تمكّنت أبداً من التخلّص من مصيبتي الداخليّة. أنا بالتأكيد أستحق العقاب كقاتل متسلسل رخيص. كنت أغرق في دوامة اليأس أكثر من عذاب الضمير.

مكتبة الرمحي أحمد

كنت مشمئزاً من النظام الذي كان يستخدم الدين بشكل أساسي كوسيلة سياسية ولغايات مالية، ولا يبالي بالتاريخ والتقاليد، وتعرّض لسلسلة من الفشل الاقتصادي الاجتماعي المتكرر. ومع زيادة غضبي تدريجياً من الكتب المسؤولة عن وحدتي، فقدت كامل الأمل.

في نادي الرماية الذي تسلّلت إليه لأسباب مازوخيّة، حصلتُ على فرصتي. وصلْت أنت! حالما رأيتك ميّزت حزن الوحدة في وجهك. شكرت القدر الذي أرسل إلي هذا الشاب البريء الذي قتلت أباه. شرّفتني باهتمامك بي، وانفطر قلبي عندما سمعت أنك كنت أيضاً ضحية زواج غير سعيد. ولكني اعتقدت أنني رأيت نوراً في نهاية النفق لك. عندما قررت أن آخذك تحت جناحي استعادت حياتي بعض المعنى المؤقت.

بالطبع في إحدى المرات، عندما رأيتك مضطرباً، تركتك وحدك في الغرفة وتسللت إلى غرفة الملابس. لم تكن تلك المرة الأولى التي أفتح فيها خزانتك، لكن حين بحثت في سترتك وجدت رسالة تهديد موجّهة إليك، وبقيت قريباً منك خلال اثنتين وسبعين ساعة. بينما كنت نائماً في سريرك كنا أنا ومساعدي عاصم نتناوب عند منعطف الطريق مقابل الأبواب الرئيسية لقصرك للمراقبة من سيارته. أدركت أيضاً أنها المرة الأولى التي لم أهتم بأنني قد حنثت بقسمي عندما أطلقت النار على الرجل القذر الذي هاجمك عند أطراف المقبرة العثمانية. أعتقد أنني عاقبت الآثم الحثالة الذي تسبّب بحادث إيز كما كنت تتمنّى. ولولا ذلك لما كان يمكن أن يقدموه للعدالة.

مكتبة الرمحي أحمد

إذا كنت ستقول: "أردتهم أن يموتوا" فإنّ كلماتك كانت قانوناً يا أردا.

لا أعرف كم مرة قتلت. أشعر بالخجل لأني تحولت إلى آلة قتل فاسدة. أرفض اللجوء إلى نظام العدالة الذي يفشل في احترام قبور سلاطينه المعروفين أو شواهد أضرحة باشواته العريقين. الانتحار ليس خياراً بالنسبة لمحارب مقاتل، ولكن أنت، يا أردا، يمكنك أن تضع نهايةً لهذا البؤس!

عندما أفكّ قيدك وأضع مسدس ويلي القديم في يدك، عليك أن توجّهه إلى قلبي. في الأفلام يعدّون إلى العشرة لكني سأمهلك حتى العشرين. عندما أقول عشرين اسحب الزناد وضع المسدس في يدي اليمنى. وليصبح السيناريو مقنعاً هناك رسالة انتحار في جيب قميصي. إذا فكرت في أن إطلاق رصاصة واحدة لا يكفي لقاتل أبيك المريض، أسألك معروفاً: حاول برصاصة واحدة أن تتخلص من رغبتك في الانتقام وتحافظ على حياتك.

بطريقة ما، حتى إذا ندمت أنا فيما بعد، لدي واجب علي أن أؤديه وفقاً لقواعد عالمي. عندما ستوجّه ويلي إلى قلبي، سأوجّه مسدسي إلى قلبك. إذا بقيت أنا حياً، يا أردا، فلن تعيش أنت! لا أريد أن أحيا مع خوف من هجوم مستقبلي على منزلي المتواضع. لدي مجموعة كبيرة من الشهود في الجحيم يمكنهم أن يقسموا أنني لا أخدع عندما يكون هناك مسدس في يدي. كلمة أخيرة: إذا لم تسحب الزناد، فهناك أحد ما سيفعل بالتأكيد..."

فكّ وثاقي وتعبير الاعتذار مرسوم على وجهه، ووضع قفازاً رقيقاً

مكتبة الرمحي أحمد

لونه بيج في يدي اليمنى، ثم أعطاني مسدس ويلي الذي يمكن حشوه برصاصة واحدة فقط. أدار الراديو المحمول ووجد محطة تذيع موسيقا جنائزية. كانت عيناه تلمعان بينما يده اليسرى تأخذ المسدس من الكيس البلاستيكي. سحب كرسيه حتى تلامست ركبتانا وابتسم بسخرية بينما هو يوجّه مسدسي ليلامس قلبه. عندما لامس مسدسه قلبي وقف شعر رأسي. قبل أن يبدأ العد، قال: "إن حالفك الحظ فإن هناك دليلاً إضافياً. لقد وضعت مفكّرتي في حقيبتك"

بدأت الأرقام تتساقط من شفتيه مثل الصلوات، وعندما وصل إلى الرقم "خمسة" بدأت أتعرّق.

– ستة.

(كان عندي فضول لمعرفة متى سأبدأ برؤية شريط حياتي الكامل يعبر أمام عيني كفيلم سينمائي.)

– سبعة.

(يا ترى هل كان شبح أبي يراقب هذه المبارزة الحديثة التي تنتهي بالأرقام؟)

– ثمانية.

(تذكرت الذكرى المئوية لإلياس كانيتي، ذاك العثماني الأصيل صانع الحكم.)

– تسعة.

(قال بول سيزان: "يجب على الرسام أن يلاحظ مثل كلب، بعيون مثبّتة ومحرومة.")

– عشرة.

مكتبة الرمحي أحمد

(مع تبخّر خوفي من لقاء جاهد بدرخان وجهاً لوجه، توقفت عن التعرّق.)

– أحد عشر.

(بدا لي أنه كان سعيداً جداً بهذا الوضع.)

– اثنا عشر.

(تذكرت جملة من قصيدة استعرض لكوجوك إسكندر: "يجب أن يكون لكل شخص جثمان". أسفت لأني لم أطلب من سلجوق ألتون أن يعرّفني به.)

– ثلاثة عشر.

"خلال الدقائق الأخيرة أشعر بالانزعاج لأنه علي أن أخطط وأنفّذ جريمة قتل في ساعة. إذا بدأت بالتخطيط لها قبل وقت طويل فأنا بالتأكيد سأفسد الأمر."

– أربعة عشر.

"بما أن التاريخ موضوع دوماً تحت المراقبة، يكون أكثر صعوبةً أن تحذر اللحظة المثالية. الجريمة الكاملة تُرتكب بالصدفة. إنها مرتجلة."

– خمسة عشر.

"الجريمة تتطلب الشجاعة، والقوة، والسلاح المناسب، وبالطبع ضحية حية (إنسان إن أمكن)."

– ستة عشر.

"إنه منتصف الليل تقريباً والآن هأنذا أصبح قاتلاً. أنا سعيد. تملأ قلبي متعة لا توصف."

مكتبة الرمحي أحمد

– سبعة عشر.

"الآن أستطيع أن أفخر بين الناس. وإذا لم أستطع، فمجرد الحلم بذلك مريح."

– ثمانية عشر.

(بينما بدرخان بدأ يتجهّم تذكّرت المفكّرة الموجودة في الكيس القديم. سيطرت علي الرغبة في امتلاكها.)

– تسعة– ع–ش–ر

تذكّرت فجأةً أمي تقول: "لديك مثل هذا التعبير السخيف على وجهك، يا أردا، كما لو أن الإيطاليين في فينيسيا والإسكتلنديين في لندن يكتشفون ضحية ويسألونك عن التوجيهات". لم أستطع تحمّل رؤيتها تقف بيننا، متّهمةً إياي بالضعف والخوف من العقاب مثل طفل. ببطء شديد، وكما لو أنني أمسّد ردف حصان أصيل سحبت زناد ويلي كما أمر السيد شاهد، وحرّرته. وبينما كان شبح أمي يتبخّر صرت وجهاً لوجه مع جثة قاتل أبي. أعتقد أنها المرة الأولى التي أره فيها يضحك. أطفأت جهاز الراديو البدائي. وضعت ويلي في يده اليمنى وفقاً لتعليماته، ووضعت المسدس الذي سقط من يده في الكيس مع مفكّرته. كنت مرهقاً. لسبب ما وقفت دون حراك وراء الباب الرئيسي، الكيس في يدي. اعتادت أمي أن تقول: "لا تخرج من الحمام حتى تجفّف كل الماء عنك". (أدركت أنني كنت على وشك التحرر من شبحها إلى الأبد.)

كان شارع أشرف سعد الخاوي بريئاً مثل أفلام فيلليني ينتظر الصباح بلهفة. بينما استدرت إلى شارع بارلاك تساءلت ما إذا كان

مكتبة الرمحي أحمد

عاصم يعلم متى عليه أن يعود إلى منزل سيده الذي خطّط لانتحاره.

"إنه يتيم الآن" كانت هذه الكلمات مكتوبة على صندوق سيارة الأجرة التي ركبتها في جادة شمسي باشا. بين المجلدين السميكين اللذين أخذتهما من الكيس وجدت رسالة الوداع التالية:

عزيزي أردا

أحسنت! آمل أن أحلامك لن تصبح كوابيساً بسببي أبداً.

كان كلانا ضحية زواج غير سعيد بدأ بالحب ولكنه انتهى بالكراهية. ولأن هذه الأرض لا يمكن أن تكون جنة، فليس هناك مفر من الحالات البديلة من الجنة والجحيم، الولادة والموت.

لم يكن ممكناً أن أسأل سيدي جورسل إرجين، العصبي المزاج، أن يحلّ لي مسألة كيف يمكن أن ينتقل إلى الجنة هؤلاء الذين أنهوا عقوبتهم في النار. أتمنى لو أستطيع تذكّر من أخبرني أن هناك مكتبة عظيمة في الجحيم المعدّ لمجموعة الفلاسفة والشعراء والكتّاب...

شريكك في المؤامرة

إذا كان جورسل إرجين، الرجل العصبي المزاج، صاحب الصورة التي تشبه أبي، هل عليّ أن أخاف لأن اسمه على وزن مرسل؟ أردت بشدة أن أنهال على مفكرة بدرخان قبل أن أعود إلى المنزل لو أن

مكتبة الرمحي أحمد

السائق ذا الشاربين الكثيفين لم يستدر لينظر. كنت أعلم أنني سأجد إفاكت في غرفة الجلوس غافيةً أمام التلفاز. دخلت مكتبي وخبّأت المفكرة بين الكتب النادرة حول أسطنبول – لأطّلع عليها في أول فرصة. تفحّصت مخزن وأسطوانة المسدس الأتوماتيكي وحشرته في أسفل محفظة الأوراق، وأنا أنوي التخلّص منه. لم يكن محشوّاً...

***

لم أكن لأتجاوز جريمة القتل الثانية التي وقعت في شارع أشرف سعد، حتى صدمني خبر وفاة خالي. في طريقي لنقل جثمانه، كلمتني إيز على الهاتف قائلةً: "أريد إخبارك أنني حلمت بك أمس وقد رأيتك تتعرض للهجوم من رجل نصفه أسود ونصفه أبيض يلوّح بسيف وأنت قتلته بمسدس أعطتك إيّاه أمك في اللحظة الأخيرة"

أتى عادل كاسناك معي. بقراءة مذكّرات بدرخان، كنت مرتاحاً لوجود هذا الرجل الضخم الذي، إن لم يكن يتمتم، كان يشخر بقوة إلى جانبي. لم أبكِ خالي الذي لم أره أبداً يبكي على أحد حتى عند وفاة أمه. قريبي الأخير، الذي لم يفكّر في إيذاء أحد طوال حياته، لقي حتفه بطريقة غير عادية أبكر مما كان يتوقع. في طريق العودة إلى إسطنبول أخبرني رفيقه في السفر جون أنه كان يلاحق أنثى نمر وشبليها عندما انزلق وسقط في أخدود بعمق عشرين متراً. عندما أخرجوه من معرض التعرّف على الجثث أدركت أنّي لم أره قط مغمض العينين من قبل. بدا كما لو أنه كان ينتظر ليرى نهاية حلمه.

مكتبة الرمحي أحمد

بدا مرتاحاً، مثل موظف حكومي في طريقه إلى البيت وهو يحمل راتبه ويغفو في الحافلة. لم أستطع الامتناع عن التفكير في أنه لو أن خالي رأى المئات الذين اشتركوا في جنازته، من رجل الأعمال إلى صاحب مطعم الكباب، من الدليل السياحي إلى الساعي في مكتب الرهانات، كان سينزعج بكل تأكيد. للمرة الأولى في حياتي أشعر بالفخر بفرد من العائلة وأنا أمنع دموعي وأرى الإنسانيّة حزينة لأجل سلفادور تاراجونا، الرجل الذي ترك لي تقريباً كل ثروته بينما كان لا يزال على قيد الحياة.

عرفت أنني سأنهي مذكرات بدرخان في رحلة إسطنبول – كاتماندو – إسطنبول. أمضيت الطريق كله وأنا أقرأ في هذه الحياة الضائعة. على الرغم من أن العالم الداخلي المؤلم قد أخفي تحت غطاء من العقبات الخارجية، رغم هذا فقد استمتع بالسفر إلى المناخات الغريبة. بدت إمكانية أن يكون جده قد أطلق النار على جدي، تجارة الموت التي قادها باقي بالدولارات، وحقيقة أن العنوان الذي اختاره هذا المارق الذي انتهى به الأمر كضحية بدلاً من قاتل قد حصل على فرصة ليدخل في المسابقة التي استخدم فيها بدرخان مفكّرة كاتبة منتحرة، بدت كأنها كلها دون معنى مثل أفلام الكرتون بلا تعليق. كانت سعادته حين التقينا أول مرة كأنه يلتقي ملاك موته المستقبلي مخبّأً في خطّه الذي كتب به: "لقد وجدت أ." (لم أتذكّر أبداً أني التقيت به خلال زياراتي إلى دالغا.) خمّنت أنه باع بقية كتبه بأسعار رمزية إلى تجار كتب مستعملة لا يعرفهم.

بقراءة ما بين السطور كان واضحاً أنه استودعني على صحة

مكتبة الرمحي أحمد

جورسل إرجين. ذهبت إلى المستشفى متسائلاً إذا كنت سألتقي شيطاناً متنكراً، لأعلم أنه قد انتحر في نفس اليوم الذي مات فيه بدرخان.

"ليرقد في سلام، يبدو أنه خنق نفسه بواسطة كيس ورقي صنعه من صفحات اقتطعها من مفكّرته"، قالت الممرضة القاسية.

أخبرت إيز بكل شيء حدث، إلا أني لم أخبرها بأن بدرخان لم يضع رصاصة في مسدسه. عندما ابتلعت ريقي وقلت لها:

– لقد سمعتِ أسراراً يخبرها الرجل فقط لزوجته، لذا عليك الآن أن تتزوجي بي.

ربتت على خدي بكلتا يديها وقالت:

– إنها ليست فكرة سيئة يا أردا، فأنا حامل.

كنت في البداية محرجاً كصبي صغير يعرض قضيبه المختون للمرة الأولى في حمام تركي للنساء! ثم شعرت بانفجار الألعاب النارية في كل خلية من خلايا جسدي. عانقت إيز ومن ثم تلال تشامليجا. كنت ممتناً لكثرة الروائح في الشوارع المقفرة ولوجود أرض بدأت أشعر بها مجدداً. تبعت ريحاً هبّت فجأة واستدرت إلى شارع هوزور الهادئ. أسندت ظهري إلى شجرة صفصاف، يداي وراء ظهري، بينما صوت الجامع في الخلفية يرتفع بأذان الظهيرة. بهدوء شديد أغمضت عينيّ. شاهدت حياتي تعبر أمامي مثل فيلم، ولكن من النهاية إلى البداية. حتى عندما خطرت لي فكرة مضحكة، لم أفتح عيني. عليّ أن أطلب من سلجوق ألتون – كنت سأعطيه مفكرة بدرخان بعد قراءتها – أن يجد لي مدرّس موسيقا جيد يعلمني

مكتبة الرمحي أحمد

العزف على الغيتار. السيد شاهد، جعل الله الجنة نصيبه، اعتاد أن يقول: "يداك تناسبان المسدس، أنت تعزف موسيقا جميلة"

أعتقد أن نجوم السينما هم الوحيدون الذين يذرفون الدموع وعيونهم مغمضة.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

'رواية مثيرة'

Maureen Freely

يُقتل البروفيسور مرسل أرجينكون في ظروف غامضة. يقرّر أردا البحث عن قاتل أبيه. يرشده صديق العائلة سلجوق ألتون عبر ألغاز تدخله إلى متاهة آثار اسطنبول. ليصل في بحثه إلى القاتل المأجور بدرخان، وليجد نفسه في مواجهة مميتة.

لكن ما هي هذه المنظمة الغامضة التي وراء عمليات الاغتيال؟ ولماذا قررت اغتيال البروفيسور البارز الذي يُعتبر ثروة وطنية؟ وما قصة المفكّرة التي يحملها بدرخان دائماً كأنها كتاب مقدّس؟ ولِمَ اتّبع سلجوق ألتون هذه الطريقة الغريبة لإرشاد أردا إلى قاتل أبيه؟

وأخيراً، من هو القاتل الحقيقي؟

ولد سلجوق ألتون في أرتفين، تركيا، عام ١٩٥٠. يعيش في إسطنبول.

ISBN 978-6-14425-839-2

9 786144 258392 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

www.daralsaqi.com

مكتبة الرمحي أحمد